بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الاردنيـــــة
كلية الاداب
قسم اللغة العربية وادابها

٥:٧٥٢٢

"جبـــرا ابراهيم جبـــرا"

دراسـة في فنّـه القصصـــي

اعداد
علي احمد الفزاع العواملة

اشـــراف
الاستاذ الدكتور محمود السمرة

تاريخ المناقشـــــة

(قدّمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في اللغـــة العربية وادابها بكلية الاداب بالجامعة الاردنيـــــة
سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م)

-/-/-/-/-/-

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحتويات

المقدمة :-	١ - ٤
الفصل الاول :-	٧ - ٦٣
سيرته وآثاره	٧ - ٢٢
١ - سيرته	٧ - ٢٢
٢ - آثاره	٢٣ - ٦٣
الفصل الثاني :-	
المضامين والرؤى	٦٤ - ١١٠
١ - الرؤية المتفائلة	٦٧ - ٩١
٢ - الرؤية المتشائمة	٩١ - ١٠٣
٣ - الرؤية الغائمة	١٠٣ - ١١٠
الفصل الثالث :-	
الشخصيات	١١١ - ١٧٨
في الرواية :-	
اولا : شخصيات الفئة الاولى :	
أ) الشخصية الفلسطينية	١١٥ - ١٢٨
ب) شخصية المثقف غير الملتزم بايديولوجية معينة	١٢٨ - ١٣١
جـ) شخصية المتمرد أوالثائر أو ما يمكن وصفه بالولد الشقي	١٣١ - ١٣٧
ثانيا : شخصيات الفئة الثانية	١٣٧ - ١٦١
أ) المثقف الملتزم بايديولوجية معينة	١٣٧ - ١٤٣
ب) البيروقراطيون والمتزمتون	١٤٣ - ١٥١
جـ) شخصية المرأة	١٥١ - ١٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تابع المحتويات

في القصة القصيرة :-

اولا : الشخصية الفلسطينية ١٦٢-١٦٧

ثانيا : الشخصية المحبطة ١٦٨ - ١٧٤

ثالثا : شخصية المرأة ١٧٥- ١٧٨

الفصل الرابع : ١٧٩ - ٢٣٧

البناء الفنّي

أ) الرواية ١٨١ - ٢١٢

صراخ في ليل طويل ١٨٨ - ١٩٥

صيّادون في شارع ضيّق ١٩٦ - ٢٠١

السفينة ٢٠٢ - ٢٠٧

البحث عن وليد مسعود ٢٠٨ - ٢١٢

ب) القصّة القصيرة ٢١٣ - ٢٣٧

عرق ٢١٤ - ٢١٦

المفنّون في الظلال ٢١٧ - ٢١٩

الفراموفون ٢٢٠- ٢٢٢

ملتقى الاحلام ٢٢٣-٢٢٤

نوافذ مغلقة ٢٢٥-٢٢٧

الاختان وفاكهة من الشوك ٢٢٨-٢٣٠

النهر العميق ٢٣١-٢٣٣

السيول والعنقاء ٢٣٤-٢٣٥

الرجل الذى كان يعشق الموسيقى ٢٣٥

الشجار ٢٣٦-٢٣٧

الخاتمة. ٢٣٨-٢٤١

المصادر والمراجع ٢٤٢-٢٤٩

ملخّص باللغة الانكليزية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمة

****

منذ أن كنت طالبا في مرحلة البكالوريوس وأنا أشعر أنّ صلتي بالشعر أوثق من صلتي بالقصّة ، الطويلة منها والقصيرة ، على السواء . ولهذا كنت أنتظر الفرصة المواتية لأجعل صلتي بالقصّة موازية لصلتي بالشعر + وقد زاد من حماسي لهذا الأمر ، الاهتمام الكبير الذي تحظى به القصّة ، من قبل الدارسين ، في هذا القرن ، والمكانة الأثيرة التي تحظى بها لدى القرّاء ، ومحبّي الأدب . ولهذا عقدت النيّة على أن تكون القصّة موضوع بحثي هذا . أما اختياري لفنّ جبرا القصصي موضوعا للبحث ، دون غيره من القاصّين العرب ، فذلك يرجع لعدّة أسباب وأهمها :

أولا : أنّ فنّ جبرا القصصي لم يدرس دراسة متخصصة مستفيضة ، وكل ما كتب عنه ، باللغة العربية ، لا يتعدى مجموعة من المقالات أو الأبحاث الجزئية الصغيرة ، موزّعة في المجلّات ، أو في الكتب التي تتحدّث عن القصّة في فلسطين ، أو في الوطن العربي عامة .

ثانيا : سبق لي أن قرأت روايتيه " صيادون في شارع ضيّق " و " السفينة " وأعجبت بهما أعجابا شديدا .

ثالثا : كنت أعرف أن جبرا واسع الاطلاع على الاداب في الغرب ، وأنه خبير بأحدث اتجاهات فنّ القصة في الغرب ، وفي البلاد العربية على السواء . ولذلك قدّرت أن دراستي لقصص جبرا ستجعلني على شيء من المعرفة بالاتجاهات الحديثة في فنّ القصّة ، وعلى بصيرة بمقوّمات هذا الفن ، وخصوصياته .

رابعا : كان حضور القضية الفلسطينية في قصص جبرا حضورا لافتا للنظر فبالرغم من حماس جبرا الشديد لتلك القضية ، وشدّة احساسيته نحوها ، الا أنه قدّمها لنا في قصصه بطريقة بعيدة كل البعد عن المباشرة والخطابية والسطحية . بمعنى أن حماسه لتلك القضية لم يطغ على اهتمامه بالجوانب الفنيّة لأعماله القصصية .

أما موضوع هذه الدراسة بالتحديد ، فهو دراسة روايات جبرا وقصصه القصيرة ، التي صدرت قبل عام ١٩٨٠ ، دراسة نقديّة تطبيقيّة . وهي أربع روايات ، ومجموعة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قصص قصيرة واحدة. أما الروايات، فهي " صراخ في ليل طويل " و " صيّادون في شارع ضيّق " و " السفينة " و " البحث عن وليد مسعود "، وأما مجموعة القصص القصيرة فهي " عرق وقصص أخرى " .

ونظرا لطبيعة المادّة موضوع الدراسة فقد اعتمدت المنهج التكاملي في دراستها وتحليلها وتقييمها . ولذلك قسّمت دراستي الى أربعة فصول رئيسية وخاتمة . وقد خصصت الفصل الأول لدراسة سيرة جبرا وآثاره الأدبية، فتحدثت في القسم الأول من هذا الفصل عن طفولة جبرا ونشأته وتعليمه في فلسطين، وعن دراسته في بريطانيا، وعن هجرته بعد النكبة الى العراق، واستقراره فيها حتى الآن، وقد حاولت أن اقتصر حديثي في هذا الجانب على الأمور التي اعتقدت أنّ لها مساسا بتكوين جبرا النفسيّ أو الثقافي . وتحدثت في القسم الثاني من هذا الفصل عن أعمال جبرا الأدبيّة في غير مجال القصّة، فتحدثت عن دواوينه الشعرية، وعن كتبه النقديّة، وعن الكتب التي ترجمها عن اللغة الانجليزية الى اللغة العربية، وحاولت أن أقتصر حديثي في هذا الجانب على أهمّ القضايا الكبرى التي اشتملت عليها أعماله الأدبية هذه . وخصّصت الفصل الثاني لدراسة مضامين أعمال جبرا القصصية، والرؤى التي طرحها من خلال تلك المضامين . أما الفصل الثالث، فقد خصّصته لدراسة الشخصيّات الرئيسية في قصص جبرا، وقد أوليت الشخصيّة الفلسطينية عناية كبرى، لأنها الشخصيّة المحوريّة في معظم تلك القصص.

وأما الفصل الرابع، فتحدثت فيه عن البناء الفنّي لكل قصّة من قصص جبرا، على حدة . ثم خلصت الى مجموعة من الحقائق والنتائج وضعتها في الخاتمة .

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على ثلاثة مصادر رئيسية، وعلى مجموعة من المراجع الأخرى .

أما المصادر الرئيسية فهي :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا : مقابلات عديدة ، مطوّلة مع جبرا .

ثانيا : روايات جبرا ، وقصصه القصيرة .

ثالثا : كتب جبرا النقدية .

وأما المراجع الأخرى ، فهي ما كتبه الباحثون والكتّاب عن أعمال جبرا القصصية ، أو عن سيرته ، وهو نزر يسير ، موزّع في المجلات ، والكتب التي تتحدث عن القصّة في فلسطين أو في الوطن العربي عامّة .

وقد واجهت في هذه الدراسة مجموعة من الصعوبات التي لا بد للباحث من تقبّلها برويّة وصبر ، حتى يتغلب عليها . ولعل كبرى هذه الصعوبات هي قلة المراجع التي تتحدث عن أعمال جبرا القصصية ، والتي يمكن للباحث أن يستنير بها لو توفرّت له . وزيادة على قلّة ما كتبه الباحثون في هذا الموضوع ، فان معظم هذا القليل المتوفّر ، مجرد كلام لا يفيد الباحث في شيء . وأمام هذه الحقيقة غير السارّة ، فقد كان عليّ أن أسافر الى بغداد ، على ضيق ذات اليد ، لأقابل جبرا وأستفسر منه عن كثير من الأمور المتعلقة بهذه الدراسة . وكان عليّ أن اعتمد على نفسي ، اعتمادا شبه كلّي ، في النظر في أعمال جبرا القصصية وتحليلها وتقييمها ، وهذا مسلك وعر ، محفوف بالمنزلقات ، خاصة ، لباحث شاب مثلي . ومن تلك الصعوبات قلة معرفتي باللغة الانجليزية ، مما جعلني أحجم عن البحث ، عن المنابع التي يستقي منها جبرا ، ثقافته وفكره ، والتي تركت آثارها واضحة في معظم أعماله الأدبية . ومن هذه الصعوبات أيضا صعوبة الحديث عن عمل ابداعي ، كالقصّة مثلا ، بلغة البحث العلمي الصارمة الدقيقة ، وهي صعوبة مصدرها الوضوح والدّقة اللذان يجب أن يتوفرا في لغة البحث العلمي ، من جهة ، والغموض الفنّي ، والشفافية ، اللذان هما من طبيعة العمل الفنّي الجيد من جهة أخرى ، والتوفيق بين هذين القطبين أمر صعب .

وبعد ، فانني أؤكد على أن هذه الدراسة لا تتعدى كونها مجرد محاولة متواضعة ، للنظر في أعمال جبرا القصصية ، وقول كلمة موضوعية ، فيها . وأنا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أعترف أن أي محاولة ، لا بد أن يعتورها شيء من الخطأ أو التقصير ،فان كان في هذه الدراسة شيء من هذا القبيل ، فالكمال لله وحده ، وعذري ، أني اجتهدت في حدود طاقتي .

أمّا اذا كان لا بد من كلمة شكر تقال في هذه المقدّمة ، فالشكر أولا لأستاذي الدكتور محمود السمرة ، الذي رعى هذه الدراسة ، وأشرف عليها ، والذي منحني من علمه ، ووقته ، أكثر مما يؤمّل الطالب ، في العادة ، من استاذه .
ولا يفوتني ههنا أن أتوجّه بالشكر أيضا للأستاذ جبرا ابراهيم جبرا ، الذي لم يبخل عليّ بنصح أو اجابة عن استفسار ، والذي زوّدني بكثير من الكتب والمراجع التي احتجتاليها في هذه الدراسة .

هذا ، وأرجو أن أكون قد وفّقت فيما سعيت اليه .

××××××××××××××××

علي الفزّاع
عمان
١٨/٤/١٩٨٢م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــــــــــــــــــــل الاول

****

سيرتـــــــــــــــــه وآثـــــــــــاره

****

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

محتويـــــــات الفصـــــل

****

١- سيرتـــــــه :

في فلسطيـــــــــــن

في بريطـــــانيـــــا

في العـــــــــــراق

٢ - آثـــــــــــاره :

في الشعـــــــــــر

في النقـــــــــــد

في الترجمـــــــــــة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سيرته

****

قبل الشروع في الحديث على سيرة جبرا ابراهيم جبرا وظروف حياته الخاصّة ، وآثاره الأدبية الأخرى ، ينبغي لي أن أبرهن على ضرورة هذا الحديث وعلى احتياج هذه الدراسة اليه ، لكونه جزءا أصيلا من بنائها العام ، اذ ربما يوحي عنوان هذه الدراسة ، في ظاهره ، بأن البحث سيقتصر على تناول آثار جبرا القصصيّة بالعرض والتحليل والنقد ، من غير أيّ التفات الى سيرته أو آثاره الأدبية الأخرى .

ومثل ذلك التوهّم له ما يبرره ، ويجعله صحيحا الى حد ما ، فالاتجاهات الحديثة في الدراسات النقديّة تميل في معظمها الى دراسة آثار الكتّاب في معزل عن سيرهم الذاتيّة ، وذلك لايمان أصحاب هذه الاتجاهات بأنّ الأثر الأدبي أو الفنّي بوجه عام يجب أن يكون مكتملا بذاته ، وفي غنى تامّ عن الشروح أو الهوامش أو المقدّمات التي تسدّ ما اعتوره من ثغرات ، أو تفسر ما شابه من غموض غير فنّي أو ابهام .

لكن ذلك المنهج ، على ما فيه من صحة وجدّة ، في كيفية تناول الآثار الأدبيّة ودراستها ، لا يمكن تعميمه أو تطبيقه على كل أثر أدبي ، فالآثار الأدبية الجيّدة ، التي لا بد عند دراستها من الالتفات الى سير أصحابها كثيرة جدا . ولعلي لا أستبق الأمور اذا قلت ان آثار جبرا القصصية من ذلك النوع الجيد من الآثار الأدبيّة التي لا يمكن دراستها بمعزل عن سير أصحابها .

ولجبرا قصص قليلة يمكن دراستها من غير حاجة الى الرجوع لسيرته الذاتيّة ولكننا في الوقت نفسه ،، سنجد أنفسنا أمام كثير من القصص التي كتبها جبرا ، مضطرين الى العودة الى سيرته الذاتيّة ، لنتمكّن من فهم كثير من جزئيات هذه القصّة أو تلك . ولعل قائلا يقول : مالنا وللجزئيات؟ أو لماذا لا نأخذ مثل تلك القصص ككل متكامل ، فلا نكلّف أنفسنا عناء البحث في سيرة القاصّ من أجل جزئية صغيرة في قصّة له ، أو مجموعة قصص ؟

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولو سلّمنا بهذا القول ،على ما فيه من هنات وتسطيح للأمور ترفضه الدّقة العلميّة ، فكيف نفعل حين نجد لجبرا رواية كاملة تكاد تكون سيرة ذاتيّة له ؟ (١)

ومن هذه الحقيقة ، حقيقة وجود تلاحم متين بين آثار جبرا الأدبيّة من جهة ، وسيرته الذاتيّة من جهة أخرى ، وهذا ما سيتضح في الفصول اللاحقة ، تتضح لنا أهميّة تخصيص فصل كامل من هذه الدراسة لعرض سيرة القاصّ عرضا مفصّلا، وللالمام بمؤلفاته وآثاره الأدبية الأخرى ، سواء منها ما كان من تأليفه هو ، أو ما كان منها من تأليف غيره ، وترجمته هو .

يمكن للباحث أن يقسّم سيرة جبرا الى ثلاث مراحل رئيسيّة ، وذلك تبعا للبيئات التي عايشها خلال حياته ، وتنقله من بلاد الى أخرى ، على ما بين هذه البيئات من تفاوت واختلاف في المعطيات والمؤثرات . وسنجد أنّ كلّ واحدة من هذه البيئات لها أثرها الواضح في آثار جبرا القصصيّة من جهة ، وفي بنيانه النفسي ، وتكوين ثقافته من جهة أخرى .

أولى هذه المراحل، وربما تكون أكثرها تأثيرا في شخصيّة جبرا ، وفي نتاجه القصصي ، هي المرحلة التي قضاها من حياته في فلسطين،حيث نشأ هناك وعاش بواكير شبابه : فقد ولد في شهر آب من سنة ١٩٢٠ في مدينة بيت لحم (٢) ، حيث

(١) الرواية المقصودة هنا هي روايته " صيّادون في شارع ضيق ..

(٢) ذكر يعقوب العودات في كتابه " من أعلام الفكر والأدب في فلسطين " الصادر عن جمعية عمال المطابع التعاونية في عمان ١٩٧٦ ، أن جبرا من مواليد عام ١٩١٩ ، وهذا ما ذكره أيضا عرفان سعيد أبو حمد الهواري في كتابه " أعلام من أرض السلام "الصادر في شفا عمرو ١٩٧٩ . الا أن جبرا نفسه أكّد لي أثناء مقابلتي له في بغداد أنه ولد في عام ١٩٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جمال الطبيعة والمناخ ، والأماكن الأثرية والمقدّسة ، الّا أن أسرته لم تكن ميسورة الحال في يوم من الأيام ، بل كانت تعاني من فقر شديد ظلّ يلازمها سنين طويلة ، فلم يكن للأسرة مصدر دخل غير ما يحصل عليه والد جبرا بعرق جبينه من العمل في الزراعة حينا ، وفي القيام على خدمة حدائق بعض الأديرة حينا آخر (١) .

كان ترتيب جبرا الثالث بين اخوته ، فقد كان يكبره أخوه لأمه مراد وشقيقه يوسف (٢) وقد اشتدّت وطأة الفقر على الأسرة مما اضطر الشقيق الأكبر يوسف الى ترك المدرسة ، وهو ما زال بعد في الصف الرابع الابتدائي ، والخروج الى الحياة العمليّة ، لعله يحسّن من وضع الأسرة المالي من خلال القروش القليلة التي يحصل عليها لقاء عمله عند أحد النجّارين أو الحدّادين (٣) . الّا أن قسوة ظروف الأسرة لم تحل دون وجود المحبّة والتفاهم والانسجام بين أفرادها مما جعل الأسرة بالتالي تشعر بالرضى والاستقرار . وما ان بلغ جبرا السادسة من عمره حتى أخذته أمه الى مدرسة السريان الكاثوليك ، في بيت لحم . وفي هذه المدرسة كان جبرا يتعلّم اللغة الانجليزية واللغة السريانيّة والحساب ، وموضوعات أخرى متفرقة ، ورغم صعوبة مثل هذه المواد على الأطفال الذين هم في مثل ذلك العمر ، الا أن جبرا كان متفوّقا بين أقرانه . وفي هذه المدرسة أيضا تعلّم كثيرا من التراتيل والأناشيد الدينية في الكنيسة المجاورة للمدرسة ، فقد كان معلّم المدرسة الوحيد يأخذ الأطفال الى الكنيسة ليتعلموا التراتيل والأناشيد والعزف على بعض الآلات الموسيقيّة (٤) .

وبعد أن أنهى جبرا الصفّ الثالث الابتدائي في هذه المدرسة ، نقل الى المدرسة

---

(١) جميع المعلومات المتعلقة بحياة جبرا وظروف أسرته ذكرها لي جبرا نفسه في مقابلات عديدة معه ، وقد ذكر لي أن أباه كان يعمل بستانيا في دير راهبات المحبة في بيت لحم .

(٢) كانت والدة جبرا قد تزوّجت من رجل آخر قبل زواجها من أبيه ، وقد أنجبت من ذلك الرجل أخاه مرادا .

(٣) أنظر الشبه بين شخصية يعقوب في قصّة الفراموفون ، وشقيق جبرا هذا .

(٤) قال لي جبرا ان صلته بالموسيقى بدأت من تلك الكنيسة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوطنية . ومن حسن الحظ أنّه كان في هذه المدرسة نخبة جيّدة من المعلمين (١) . وأمضى جبرا في هذه المدرسة عامين كاملين ، وأظهر تفوّقا ملموسا بين أترابه ، لكن سوء طالع الأسرة ظلّ يلاحقها ، فما كاد جبرا ينهي الصفّ الخامس الابتدائي حتى أصيب والده بمرض " الروماتيزم " واضطر الى لزوم الفراش طيلة السنوات التي عاشها بعد اصابته بالمرض (٢) .

ومرض الوالد ، ولزوم الفراش معناه انتهاء آخر مصدر يمكن للأسرة أن تعوّل عليه في كسب قوتها . وفي تلك السنة اضطرت الأسرة الى الرحيل الى مدينة القدس ، وهناك سكنت في غرفة واحدة تقع في أحد الأحياء الشعبيّة وهو " جورة العنّاب " . وفي تلك الغرفة المتواضعة كان جبرا يحضّر واجباته المدرسيّة ، ويطالع ما يتيسر له من كتب على ذبالة مصباح الكاز وضجيج الحي الصاخب ، وأنين الوالد المقعد . وهنا أيضا تضطر والدة جبرا للعمل في البيوت لتتمكن الأسرة من الحصول على كفافها ، فالقروش التي يحصل عليها يوسف من عمله عند أحد التّجارين لا تكفي لاعالة الأسرة بعد أن لزم مصيلها الفراش . وبالرغم من قسوة ظروف الأسرة المادّيّة فقد أصرت والدة جبرا على استمراره في الدراسة ، فأخذته الى المدرسة الرشيدية في القدس . وفي هذه المدرسة أتيح لجبرا أن يتتلمذ على نخبة ممتازة من المعلمين ، الذين كان لهم أثر كبير في تنشئته الأدبية وتنمية مواهبه ، ففي تلك المدرسة تتلمذ على ابراهيم طوقان وعبد الكريم الكرمي ومحمد العدناني واسحق موسى الحسيني (٣) وياسين الخالدي ومحمود غنيم وضياء الخطيب ووصفي عنبتاوي وحسن

(١) ذكر لي جبرا من أولئك المعلمين فهيم جبّور وجبّور عبّود .

(٢) الى أن توفي عام ١٩٤٦

(٣) يقول جبرا ان الأستاذ الحسيني علّمهم في تلك المدرسة طريقة جديدة في دراسة النصوص الشعرية ، وهي طريقة تقوم على تتبع الصورة الشعرية في محمل ابيات القصيدة وليس في كل بيت على حدة . ويقول انّه ما زال متأثّرا بهذه الطريقة في تناوله للنصوص الشعرية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عرفات . وقد أمضى في هذه المدرسة ثلاث سنوات . وفي المدرسة الرشيدية كان يسمح لمن يرغب من الطلاب المسيحيين بحضور حصص القرآن الكريم والتربية الاسلاميّة ، على أن يجرى لهم في نهاية السنة امتحان في معاني مفردات القرآن . وكان جبرا أحد أولئك الطلاب الذين رغبوا في تلك الحصص وواظبوا على حضورها . ولعل هذه الحصص أن تكون أحد أسباب اسلامه فيما بعد ، وسيأتي بيان ذلك .

وبعد أن أنهى جبرا الصف الثاني الثانوي (١) في المدرسة الرشيدية في عام ١٩٣٥ نقل الى الكليّة العربيّة ، لكنه لم يطل به المقام في تلك الكلية حتى انفجر اضراب عام ١٩٣٦ فأغلقت الكلية أبوابها حتى شهر شباط من عام ١٩٣٧ حيث استؤنفت الدراسة من جديد . وفي الكلية العربية أيضا أتيح له أن يتتلمذ على عدد من المعلمين (٢) الممتازين الذين منحوه كل رعاية وتوجيه ، وجعلوه مسؤولا عن نشاطات مكتبة الكليّة ، مما أتاح له فرصة طيبة للتعرّف على كثير من الكتب والمؤلفات الجديدة بالقراءة والاهتمام . غير أن صرامة النظام الداخلي لهذه الكلية كانت تزعج الطلبة وتمنعهم من القراءة والمطالعة في بعض أوقات الليل ، فقد كانت تفرض عليهم أن يطفئوا الأنوار ويذهبوا الى أسرّتهم في الساعة التاسعة ليلا ليتمكنوا من النهوض في السادسة صباحا نشيطين ، لكن جبرا وبعض الطلبة المجتهدين كانوا يحتالون على هذه التعليمات الصارمة رغبة منهم في القراءة والمطالعة ، بطرق تدعو للضحك أحيانا (٣) .

ولحسن الحظ كانت تلك الكليّة ترسل كل عام طالبا أو طالبين من الخريجين المتفوقين في بعثات دراسيّة الى بريطانيا أو الجامعة الأمريكية في بيروت ، ولذلك

(١) الثاني ثانوي في ذلك الحين هو ما يسمى الثاني الاعدادي الآن .

(٢) يذكر جبرا منهم سلمى الخضراء الجيوسي وجورج خميس وأسحق موسى الحسيني

(٣) من تلك الطرق أنّهم كانوا يقرأون على ضوء مصباح البطاريّة تحت غطاء السرير أو في الحمّام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عندما تخرّج جبرا وكان من المتفوّقين فكّرت ادارة المعارف في فلسطين في ارساله في بعثة دراسيّة الى بريطانيا لدراسة الأدب الانجليزي هناك . غير أن جبرا رفض هذه البعثة ، وطلب أن يعين معلما ليتمكن من اعالة أسرته المعدمة . وكان أن اقترح عليه مدير المعارف في ذلك الحين أن يعود الى الكلية العربية لدراسة شيء من المسلكيات وأساليب التدريس لمدة سنة ، وبعدها يعين معلما براتب أفضل من راتبه فيما لو عيّن من غير تلك الدراسة المسلكيّة (١) وبالفعل عاد الى الكلية العربية ، وأمضى فيها سنة أخرى كانت من أفضل السنوات التي قضاها في تلك الكلية من ناحية المطالعة والاتصال بكتب قيّمة أخرى . لكن ادارة المعارف لم توافق على تعيينه بعد تخرّجه من الكليّة في صيف عام ١٩٣٨ ، بل أصرّت على ارساله الى بريطانيا لاكمال دراسته . وهنا وافق جبرا على الذهاب في تلك البعثة وكاد يسافر في ذلك العام لولا أنّ نتيجة الفحص الطبّي الذي أجري له قبل موعد السفر ، أكّدت أنّ في عينيه شيئا من مرض التراخوما وأنّه يجب أن يعالج لمدّة سنة كاملة حتى يسمح له بالسفر الى خارج البلاد ، ففرح جبرا لهذه النتيجة أيّما فرح اذ لم يعد أمام ادارة المعارف الا تعيينه معلما كما يريد . وبالفعل تمّ له ما أراده ، وعيّن معلما في المدرسة العمرية . غير أنّه لم يمكث فيها الا شهرا واحدا ومن ثمّ نقل الى مدرسة ابتدائية أخرى هي المدرسة البكريّة (٢) فأمضى فيها سنة تقريبا ، قضاها بين التدريس ، ومعالجة عينيه ، والتردد على مكتبة احدى الجمعيّات الخيرية المسيحيّة . (٣) وبهذا تحسنت ظروف أسرته الماليّة ولو بشكل بسيط ، فتمكن من شراء بعض الآلات الموسيقيّة وأخذ يعزف عليها ، واستطاع ان يحصل على بعض مؤلفات شيلي وكيتس ويعكف على قراءتها بشغف كبير ، ولعله وجد في رومانسية هذين الشاعرين صورة قريبة لآلامه وبؤسه وأحوال أسرته . وبعد أن أنهى هذه السنة كانت عيناه قد شفيتا من مرضهما ، وبهذا تقرر بشكل نهائي ايفاده الى بريطانيا ، ولكنه وجد معارضة شديدة من والدته

---

(١) كان المعلم الذي يدرس المسلكيات لمدّة سنة يعيّن براتب قدره عشرة دنانير ، بينما يعين المعلم الذي لم يدرس المسلكيات براتب قدره ثمانية دنانير .

(٢) يقول جبرا ان المدرسة كانت موئلا للطلاب المشاكسين والكسالى على عكس المدرسة العمرية .

(٣) جمعية الشّبان المسيحيين في القدس .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذلك لأن الحرب العالمية الثانية كانت قد اندلعت نيرانها هناك . الا أن جبرا بعد أن جرّب مهنة التعليم فتر حماسه لها ورغب في التخلص منها ، لذلك لم يستمع الى معارضة والدته فتوجّه الى بريطانيا في ٣١ أيلول عام ١٩٣٩ وقضى هناك أربع سنوات ، عاد بعدها الى وطنه فلسطين ، وعين على الفور مدّرسا للأدب الانجليزي في الكلّيّة الرشيدية ، التي كانت مدرسة ثانوية حين كان طالبا فيها ، وفي هذه الكلّيّة ، وبحكم طبيعة عمله ، أتيح له أن يقرأ كثيرا في الأدب والرسم والموسيقى ، وهذا ما كان يريده ويتمناه . كما أن أحوال اسرته المالية تحسنت بشكل ملحوظ . وأثناء وجوده في تلك الكلّيّة أيضا كتب روايتين باللغة الانجليزية هما " الصدى والغدير" (١) و " صراخ في ليل طويل " كما كتب عددا من القصائد باللغة الانجليزية ، ونشرها في احدى المجلات في لندن (٢) .

أما عن سبب الكتابة باللغة الانجليزية فيقول جبرا انه بعد عودته من بريطانيا كان يجد صعوبة في استعمال اللغة العربية فيما يكتب ، وأنه كان يشعر أن الأخيرة لا تطاوعه مطاوعة الأولى . (٣) الا أنّه لم يلبث أن تغلّب على تلك الصعوبة ، وكتب قصّة . " ابنة السماء" وقصّة " ملتقى الأحلام " بالعربية . (٤)

ولم تقف نشاطات جبرا الثقافية داخل حدود الكلية أثناء وجوده فيها بل امتدت الى خارجها ، فأنشأ مع مجموعة من الشباب نادي الفنون في القدس وكان هو رئيسا لذلك النادي ، وكان يلتقي بأولئك الشباب ، ويلقي عليهم محاضرات في الأدب والموسيقى والرسم .

---

(١) تقع هذه الرواية في مئة وخمسين صفحة ، ولم ينشرها جبرا حتى الآن .

(٢) مجلة poetry of londn

(٣) هذا السبب لا أظنه مقنعا ، ولعل السبب الحقيقي هو افتتان جبرا بالحضارة الغربية من جهة ، وشعوره الداخلي بأن المجتمع العربي في ذلك الحين لم يكن يتقبّل الأفكار والقيم التي ضمنها جبرا لروايتيه .

(٤) نشرهما في مجلة " الأمالي " البيروتية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والموسيقى والرسم .

وبعد مضيّ أربع سنوات تحسنت أحوال الأسرة المادية تماما وانتقلت من ذلك الحي الشعبي الى منطقة القطمون .

وكان انتقال الأسرة الى ذلك الحي في عام ١٩٤٧ أي العام الذي صدر فيه قرار التقسيم الجائر . فما كادت الأسرة تستقر في سكنها الجديد حتى بدأت المناوشات والمعارك الجانبية تشتعل بين العرب واليهود في تلك المنطقة فاضطر العرب القاطنون في منطقة القطمون الى اخلاء مساكنهم والرحيل عنها الى أماكن أخرى بعيدة عن متناول أيدي الأعداء (١) . وكانت أسرة جبرا احدى تلك الأسر التي رحلت وعادت لتسكن في بيت لحم من جديد . وبذلك كان على جبرا أن يسافر كل يوم من بيت لحم الى القدس ليقوم بعمله في الكلّية الرشيدية ، ولم تكن تلك الرحلة اليوميّة مأمونة العواقب ، فصابات العدو منتشرة في كل مكان ، ولا تتورّع عن لغم الطرق أو مهاجمة الأبرياء من المدنيين العزّل من السلاح . وفي أحد الأيام هاجمت احدى هذه العصابات السيارة التي تنقل جبرا الى القدس وأطلقت عليها النار (٢) . وبقيت العيان على ما هي عليه من توتّر وقلق ومناوشات حتى اندلاع حرب عام ١٩٤٨ وسقوط النكبة وضياع الوطن ، فعاش جبرا بذلك أحداث النكبة ، ومصائبها ، وشارك في المسيرات والمظاهرات التي قام بها الفلسطينيون احتجاجا على ضياع وطنهم . بعد النكبة أخذ جبرا يفكر بالهجرة الى احدى البلدان العربية المجاورة للبحث عن عمل ، فالحرب أتت على الأخضر واليابس ، وشبح الفقر عاد يطارد الأسرة من جديد ، فتوجّه الى بيروت لعله يجد له محلا في الجامعة الأمريكيّة ، الا أنه وصل متأخرا ، ووجد الجامعة في غير حاجة الى تعيين محاضرين . فتوجّه الى سوريا ، لكن الحظ لم يحالفه في الحصول على وظيفة هناك أيضا ، وهناك عرض عليه أحد معارفه أن يسافر الى بغداد ، لكنه لم يكن لديه أيّة رغبة

---

(١) كان العدو يقوم بلغم البيوت ونسفها في الليل ، فخشي المواطنون العرب على أطفالهم وأرواحهم فاضطروا للرحيل ، خاصة بعد أن نسب الصهاينة فندق الملك داود .

(٢) صورة هذه الحادثة واضحة في رواية جبرا " السفينة " ص ٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في السفر الى العراق لما يعرفه عن قسوة مناخها (١) . وتحت قسوة ظروف أسرته المادّية اضطر أخيرا للموافقة على السفر الى العراق ، واستطاع بمساعدة أحد الاساتذة العراقيين (٢) . أن يجد لنفسه عملا في أحد المعاهد العلميّة العالية في بغداد ، لا سيما وأنه كان في تلك الفترة قد حصل على درجة الماجستير في الأدب الانجليزي من جامعة كيمبردج .

وفي يوم ٣٠ أيلول من عام ١٩٤٨ توجّه الى بغداد ، وبهذا تنتهي المرحلة الأولى من مراحل حياته .

أما المرحلة الثانية من حياته فالمقصود بها تلك الفترة التي قضاها في بريطانيا ، والتي تبدأ من عام ١٩٣٩ وتنتهي في عام ١٩٤٣ . وبالرغم من قصر هذه الفترة نسبيا الا أنها تركت آثارا واضحة في تكوينه الثقافي .

في بريطانيا التحق بجامعة أكسفورد ، ثم بجامعة كيمبردج وحصل على درجة البكالوريوس من كيمبردج ، بتفوّق ملحوظ ، فقد كان أحد الخمسة الأوائل من بين حوالي خمسين طالبا تخرجوا معه في عام ١٩٤٣ . وخلال فترة دراسته تلك اتصل بأحدث الاتجاهات الثقافية والفنيّة والأدبيّة ، التي كانت تسود بريطانيا بشكل خاصّ ، وأوروبا بشكل عام (٣) كما أنّه تتلمذ على كبار الأساتذة والمفكّرين ، بالاضافة الى تعرّفه على طبيعة المجتمع البريطاني ، وما يسوده من علاقات وقيم .

في كيمبردج تتلمذ على عدد من الأساتذة الممتازين أمثال : ف.ر.ليفس F.R. Leavis وجورج رايلند George Rylands وجون بينيت Joan Bennett و و.م. تيليارد W.M.Tillyard

---

(١) ردّ جبرا على الذين نصحه بالذهاب الى بغداد قائلا : لو كانت مبلّطة بالذهب لما ذهبت اليها .

(٢) الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري .

(٣) قال لي جبرا " انّ أحداث الحرب العالمية الثانية وأحبوالها لم تحل دون وجود حركة ثقافية وفكرية في بريطانيا ، بل كانت الحياة الادبية والفكرية والفنيّة ، في لندن ، في أوج نشاطها وحيويتها ، رغم أوضاع الحرب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهيلين دار بيشر Helen Derbyshire. وليم تاتشر William Thatcher (١)

والحقيقة أن صلة جبرا بالمجتمع البريطاني لم تنقطع بعد عودته الى وطنه في عام ١٩٤٣ ، فقد عاد الى جامعة كيمبردج في عام ١٩٤٨ ،وتقدّم ببحث لنيل درجة الماجستير (٢) . وفي عام ١٩٥٢ ذهب الى جامعة هارفرد وأمضى هناك مدة سنة ونصف السنة كزميل بحث ، وليس كطالب . وفي هذه الجامعة درس على أيدي نخبة من الاساتذة الكبار أمثال : آن . آ . ريتشاردز I.A.Richards وآرتشيبولد مكليش Archibald Macleish ورياتو بوجّولي Ranato Poggioli وجاكسن بيتس Jackson Bates وفرانك أوكونر . Frank O'Connor (٣)

ومجمل القول أن السنوات التي قضاها جبرا في كيمبردج وفي هارفرد تركت أثرا كبيرا في تكوينه الثقافي ، وفي تنمية مواهبه ، وصقلها .

وأما المرحلة الثالثة من حياته فتبدأ بوصوله الى بغداد في أواخر عام ١٩٤٨ ، وتستمر حتى الآن .

في بغداد عيّن محاضرا في كليّة جيدة المستوى وهي الكلية التي أصبحت فيما بعد كلية الآداب في جامعة بغداد ، وهناك أعطي سكنا في مبنى الكلية ، وسكن مع الطلبة ، فأسس لهم جمعية للمناظرات ، وجمعية للموسيقى ، وفرقة للتمثيل أي أنه كان يرعى نشاطات الطلبة الثقافيّة والفنّيّة ، ويتعهّد المواهب التي يأنسها في بعضهم بالرعاية والتوجيه . وما لبث أن تعرّف على مجموعة من الكتّاب والأدباء

---

(١) ذكر لي جبرا بنفسه أنه تتلمذ على هؤلاء الأساتذة .

(٢) كان موضوع بحث جبرا ذاك : الصور الشعرية في مسرحية " الشيطان الأبيض" لجون ويستر .

(٣) ذكر لي جبرا في احدى رسائله أنه درس على هؤلاء الأساتذة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العراقيين الشباب من مثل بدر شاكر السياب، وبلند الحيدري، وحسين مردان، وغيرهم. (١) كما أنه أخذ يتمرّف الى مختلف فئات المجتمع العراقي، وأخذ يساهم في النشاطات الثقافية والفنّية هناك. فأخذت قصائده ومقالاته تملأ الصحف والمجلّات، وأخذت مؤلفاته تصدر الواحد تلو الآخر، وأخذ اسمه يلمع في الوطن العربي شاعرا وناقدا وقاصّا ومترجما ورسّاما. وفي سنة ١٩٥١ اشترك مع الفنّان جواد سليم (٢) في تأسيس جماعة بغداد للفن الحديث. (٣) وكانت هذه الجماعة تقيم في بغداد، كلّ سنة، معرضا فنيّا تقدّم فيه للناس ما أنتجته من لوحات وتماثيل. وكان جبرا يساهم في تلك المعارض السنوية، الى أن أنقطع عن الرسم في عام ١٩٦٨. وفي سنة ١٩٥١ أيضا تعرف الى زميلته في دار المعلمين السيدة لميعة عباس العسكري (٤)، ثم ما لبث أن أعلن اسلامه في السنة التالية، وتزوّج منها

---

(١) كان جبرا يلتقي مع هؤلاء الشباب في شارع الرشيد و "صيّادون في شارع ضيّق" تصوّر كثيرا من المناقشات التي كانت تدور بينهم.

(٢) من أشهر الفنّانين العراقيين، ولد في سنة ١٩١٩م، وكان استاذا للنحت في معهد الفنون، وكان أحد مؤسسي جمعية أصدقاء الفن، وهو صاحب تمثال نصب الحرية في بغداد. وقد توفي في عام ١٩٦١.

(٣) كانت هذه الجماعة تسعى الى تطوير الفنّ العراقي وتثويره عن طريق العودة الى التراث البابلي والعراقي بصفة خاصة، والتراث العربي بصفة عامّة، لاستلهام هذا التراث، والاستفادة منه في ايجاد هويّة جديدة ومتميزة للفنّ في العراق، ولذلك هوجمت هذه الجماعة، وقوبلت بالاستنكار، واتهم أصحابها بأنهم أعداء للشعب.

(٤) هي خريجة وسكونسن، وكانت تدرس الأدب الانجليزي أيضا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهنا يجب التوقف قليلا لتوضيح مسألة اسلامه هذه ، فقد يظن أحدهم ، وهذا ما حصل بالفعل ، أن جبرا تحوّل عن مسيحيته التي نشأ عليها ، وأعلن اسلامه ليتمكن من الزواج من تلك الشابة المسلمة التي وقع في غرامها . وهذا غير صحيح ، فالأمر ليس بهذه البساطة ، ولا بهذه السطحية ، وانما له أبعاد وجذور أخرى يجب أن يفسّر على ضوئها ، وبشيء من التروّي نجد أنّ حادثة الزواج هذه ما هي الا عود الثقاب الذي أشعل الفتيل .

ولعلّ السبب الحقيقي لتحوّل جبرا عن مسيحيته يعود الى تخلّي أوروبا المسيحية عن نصرة القدس حين داهمها الصهاينة الغزاة ، ولشعوره بأن المسيحيين الأوروبيين ينظرون الى مسيحيي آسيا وافريقيا نظرة احتقار وازدراء ، وبالتالي فهو يرى أن اعتناقه للمسيحية وسط عالم اسلامي ، أمر لا طائل تحته" منذ ألف وخمسمائة سنة والمسيحية دين للأوروبيين دون غيرهم . فما علاقتنا نحن العرب والآسيويين وسكان شرق البحر المتوسط بها ؟

لقد بدأت عندنا ، ولكن اليونان والرومان أخذوها منّا ، وكل ما بقي لنا منها مجموعة بالية من الطقوس لم نضف اليها شيئا طوال ألف سنة . وما هو الدور الحضاري الخلّاق الذي لعبته مسيحيتنا وسط عالم اسلامي ؟

كان يجب علينا بعد القرن الثامن أنّ نسلّم أنفسنا لقوى الاسلام الجديدة تسليما تامّا لا جزئيا كما فعلنا . . . كانت أوروبا دائما تخشى الشرق المسلم ، ولكن المسيحيين فيه ، المتطلعين دائما الى أوروبا حتى آلمتهم أعناقهم من كثرة التطلّع لم يعملوا الا على ازدرائها المتساهل " (١) .

وهذا ما يجعل الغرب ينظر الى مدينة القدس وهي تتهدّم تحت ضربات الصهاينة الغزاة ، دون أن يفعل من أجلها شيئا " لا تتصوّر ، ولو للحظة يا أبانا ، أنهم يكنّون لك أيّ قدر من الحب . أنا أقول لك انهم أخذوا مسيحنا منّا ، ورفسونا في أسناننا " (٢)

---

(١) صيادون في شارع ضيق ، ص ص ٢٦ — ٢٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واضح من تلك الكلمات التي يقولها جبرا على لسان أحد شخوص روايته أنه كان مستمدّا في أية لحظة أن يتخلى عن تلك المسيحيّة التي يزدريه أصحابها ، ويخذلونه حين يحتاج اليهم ، ويتركون مدينته المقدّسة تسقط تحت أقدام الغزاة .

ولا ننسى أن جبرا كان يحضر دروس القرآن والتربية الاسلاميّة حين كان طالبا في المدرسة الرشيدية في القدس . وليس بمستبعد أن تكون تلك الدروس التي كان يحضرها مقدّمة جيدة لمعرفته بالاسلام ، ونشوء شيء من الألفة والتواصل بينه وبين هذه العقيدة .

أما الى أي مدى استطاع جبرا أن يتخلّص من آثار تربيته المسيحيّة ، والى أي مدى استطاع أن يتعمّق الاسلام ، بحيث يصبح له عقيدة يصدر عنها في تفكيره وسلوكه فذلك ما لم يوفّق اليه ، ومالا ينبغي لنا أن نتوقعه منه ، اذ لا يعقل أن يتخلّص انسان ، بين يوم وليلة ، من عقيدة نشأ وتربّى عليها ، وأصبحت جزءا رئيسيا من بنيانه النفسي والعقلي ، بل المنطق يقتضي أن يستمر أثر هذه العقيدة ملازما لصاحبها حتى وان كان لا يريدها .

وبعد زواجه من لميعة العسكري ذهب الى جامعة هارفرد ، كما قلنا ، وأمضى هناك سنة ونصف ، ثم عاد ليعمل محاضرا في كلية الآداب في جامعة بغداد ، وفي عدد من المعاهد العالية الأخرى ، بالاضافة الى عمله في شركة نفط العراق حتى عام ١٩٦٤ حيث أمّمت تلك الشركة ، فنقل الى شركة النقل الوطنيّة ، وقضى قرابة خمس سنوات رئيسا لمكتب الاعلام والنشر في تلك الشركة .
وفي عام ١٩٧٧ نقل من عمله في تلك الشركة ليعمل خبيرا في وزارة الاعلام والنشر العراقيّة .

وطيلة هذه السنوات العديدة التي قضاها جبرا في العراق كان يكتب في العديد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من المجلات والصحف، ويساهم في تحرير بعضها (١)، بالاضافة الى عدد من الكتب والمترجمات والروايات والدواوين الشعرية التي كتبها ونشرها. وسنتوقف عند هذه الآثار العديدة في القسم الثاني من هذا الفصل.

وبعد فان الباحث في سيرة جبرا لا بد أن تسترعي انتباهه ملاحظتان هامّتان، كان لهما كبير الأثر فيما ترك لنا من آثار في شتى فنون الأدب: الأولى منهما هي تعدد البيئات التي عايشها، وتنوّعها، فمن طبيعة الحياة في القدس وما صاحبها من أحداث ابّان النكبة، الى بيئة بريطانيا بكل معطياتها المتنوعة، في سنوات الحرب العالمية الثانية، الى بيئة العراق بما زخرت به من أحداث وتيارات سياسية وفكرية في الفترة الممتدة ما بين عام ١٩٤٨ وعام ١٩٨٠.

ولعل هذا التنوّع في البيئات وفي التجربة الحياتيّة لجبرا أن يكون قد انعكس على شخصيته وتكوينه الثقافي، فكان متنوّع المواهب والاهتمامات، فهو شاعر وروائي وكاتب قصّة قصيرة وناقد ورسام وموسيقي (٢)، ومترجم، هذا بالاضافة الى كونه أكاديميا يمتهن البحث والتدريس. ومن هنا نقول اننا أمام شخصيّة خصبة متنوعة الميول والامكانيّات، ما يجعل العثور على مفتاح واحد أحد لهذه الشخصية، أمرا من الصعوبة بمكان، الّا اذا كانت كلمة التنوّع يمكن أن تكون مفتاحا

(١) من أبرز المجلّات التي دأب جبرا على الكتابة فيها مجلة "الاديب" و "الآداب" و "شعر" و "شؤون فلسطينية" و "الهلال" و "الدوحة" و "حوار" و "قضايا عربية" وقد كان عضوا في أسرة تحرير مجلة "أدب" اللبنانية.

(٢) بالاضافة الى معرفة جبرا النظرية في الموسيقى فهو يحسن العزف على كثير من الآلات الموسيقيّة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لشخصية ما .

وعلى هذا فلا بد من القول بأن شخصيّة جبرا هي كل تلك التجارب التي عاشها في تلك البيئات المختلفة ، متداخلة ، متمازجة ، لتكوّن بالتالي انسانا مثقفا ثقافة واسعة وعميقة ، ومن هذا المنطلق يمكن القول ان مفتاح شخصيّة جبرا ، يمكن أن يختصر في كلمتين اثنتين هما : موهوب ، مثقّف .

والثانية منهما هي أنّ جبرالم يلتزم في يوم من الأيام بفكر معين أو بنظرية سياسيّة محدّدة ، وانما وقف موقف المحايد من كل تلك التيارات الفكرية والسياسية التي عرفتها البلاد العربية في هذا القرن ، سواء منها ما كان وافدا على هذه البلاد ، أو ما كان منها منبثقا من طبيعة المرحلة التاريخية التي تعيشها هذه الأمة . والذي يجعل التوقّف عند هذه النقطة أمرا ضروريا هو انعكاس هذا الحياد الفكري على كل ما كتب جبرا من قصص أو روايات أو قصائد أو مقالات ، وهذا ما سيأتي تفصيلة في مكان آخر من هذا البحث . لكن لماذا آثر جبرا هذا الحياد الفكري ؟

واجابة عن هذا التساؤل يقول جبرا ما مضمونه ان التجربة العقائدية العربية بشقّيها ، السياسي والفكري ، لم تكن بالعمق والوضوح اللذين يغريان الكاتب أو المفكّر بالالتزام بأحد اتجاهاتها أو نظريّاتها . كما أنه يرى أن التجربة الحزبية هي وسيلة واحدة من عدّة وسائل يمكن للكاتب أو المفكّر أن يستعين بها لفهم معطيات عصره ، وطرح رؤية مستقبليّة واضحة لمسيرة أمته أو شعبه (١) .

وقد يكون القسم الثاني من اجابة جبرا على ذلك التساؤل صحيحا ، غير أن القسم الأول منها لم يخل من التعميم والارتجال ، فالحقيقة تشير الى أنّه

---

(١) يقول جبرا : انّ التجربة الروحية يمكن أن تكون بديلا للتجربة السياسية ، وتسدّ مسدّها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم يلتزم بذلك النوع من الحياد للأسباب التي ذكرنا في اجابته تلك ، وحسب ، وانما هناك سبب آخر لم يشأ أن يذكره ، وهو متعلق بطبيعة حياة جبرا من جهة ، وبطبيعة وضع الحزبيين وأصحاب النظريات السياسية والفكريّة في البلاد العربية من جهة أخرى . فنحن نعرف أن جبرا قضى الفترة الكبرى من حياته وهي التي يمكن أن يتخذ لنفسه فيها مذهبا سياسيا أو فكريا ، خارج وطنه الأم ، وبالتالي فشعوره بأنّه مجرد ضيف سواء في لندن أو بغداد هو الذي جعله يحجم عن الانتماء لهذه الجهة أو تلك أو لهذا الفكر أو ذاك ، وذلك لكي يضمن لنفسه السلامة ، واستمرارية البقاء في البلاد التي كانت تستضيفه ، لا سيما وأنّ مسألة الحرية الفكرية لمّا تتجسّد بالشكل المطلوب في البلاد العربية ـ كما أنّ مثل ذلك الحياد يضمن لجبرا أن يكون مقبولا مفكرا وكاتبا لدى كافة الأوساط الثقافية والمهتمّين بشؤون الأدب ، وهذا ما كان بالفعل . وعلى العكس من ذلك كان سيجد نفسه مرفوضا كاتبا ومفكرا فيما لو انحاز الى فكر معين أو مذهب بعينه . ونتيجة لذلك سنجد أن المسحة الغالبة على أدب جبرا هي المسحة الانسانيّة الجمالية ، أي أنّ القضيّة المحوريّة بالنسبة له هي قضية الانسان بغض النظر عن جنسه او زمانه أو مكانه ، وهذا ما سنجده واضحا في الفصول التالية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

آثـــــــــاره

****

لست أنوي في هذه الصفحات القليلة أن أتناول آثار جبرا ومؤلفاته كلها بالدراسة والتحليل العميقين لكل جزئيّة من جزئيّات هذه الآثار العديدة المتنوّعة ، فذلك يخرج البحث عن حدوده وغايته ، كما أنّ هذه الآثار تحتاج الى بحث مستقل تكون غايته دراستها وتحليلها . والمقصود بهذه الصفحات هو التعريف بهذه الآثار وبأهمّ القضايا والاتجاهات الفكرية التي اشتملت عليها ، ليتسنّى لنا التعرّف على الخلفيّة الثقافيّة التي صدرت عنها قصص جبرا وروايات ، وتأثرت بها على هذه الصورة أو تلك . ومن هنا تبرز أهمية اثبات هذه الصفحات جزءا أصيلا من هذا البحث ، خاصة ، وقد دعا جبرا نفسه الى ضرورة تناول أعماله الأدبية ككل متكامل متداخل ، ذلك لأن أيّ دراسة تنصبّ على جزء من آثاره دون الالتفات الى بقيّة تلك الآثار ، ستكون دراسة يعتورها النقص والقصور . (١) وعلى ذلك فنحن نتوقف قليلا عند كل شكل من الأشكال الأدبية التي اتخذتها آثار جبرا العديدة المتنوعة .

٦٧٥٧٤٥

الشعـــــــــر

قبل الحديث على شعر جبرا ، أحبّ أن أشير الى أن انتاجه الشعري أخذ يتناقص في السنوات الأخيرة وذلك لأنه يرى أنّ القصيدة لا تستطيع استيعاب كل ما يريد قوله ، وهو يرى أنّ الرواية وحدها هي التي تستطيع ذلك " الشعر مهما بلغ من روعة ، ومهما حقّق من نفاذ ، ومهما أدرك من أعماق النفس البشرية يبقى ضمن تجربتنا الحضارية الجديدة صوتا أحاديا ، وهو صوت له خطورته

---

(١) أنظر مجلة المواقف ، عدد آذار ١٩٦٨ ، ص ٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكبرى غير أنّه لا يحقق الشعور بالكلّية الشمولية ،أو الشعور بالتعدد ية التي هي صفة التجربة العربية اليوم ، وما يلازمها من رؤيا" (١) .

وقد أصدر جبرا حتى الآن ثلاث مجموعات شعرية هي " تموّز في المدينة " و " المدار المغلق " و " لوعة الشمس " (٢) .

وجميع قصائد هذه المجموعات الشعرية خلو من الموسيقى العروضيّة ، أن أنها ليست على بحور الشعر التي قرّرها الخليل بن أحمد الفراهيدي ، وانما ينتظم قصائد هذه المجموعات موسيقى أخرى ، هي الموسيقى الداخليّة .

وهنا قد يقول قائل : وكيف سميّت هذا الشكل الأدبي شعرا ؟ والجواب على ذلك أن جبرا نفسه أراد لهذا الشكل الأدبي ، أن يتناول على أنه شعر ، وهذا يعطينا دلالة واضحة على مفهوم جبرا للشعر ، فهو لا يرى ضرورة لوجود الموسيقى العروضية في القصيدة لتصبح قصيدة ، وهو لا يحفل بالقافية الا ما جاء منها عفو الخاطر ، بل هو يرى أن على الشاعر أن يتخفف من كل ما من شأنه الحدّ من قدرته على التحليق والانطلاق ، والانصراف الى ما هو أهم من ذلك بكثير : الصورة الشعرية والموسيقى الداخلية ، وهما العنصران اللذان يعطيان النص الأدبي صفة الشعر " ان الشعر الحرّ بالعربية يعتمد الصور الشعرية والموسيقى الداخلية التي

---

(١) جبرا ابراهيم جبرا ، ينابيع الرؤيا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٨٤ .

(٢) صدر " تموز في المدينة " عن دار مجلة شعر في بيروت سنة ١٩٥٩ ، وصدر " المدار المغلق " عن الدار الوطنية للطباعة والنشر في بيروت سنة ١٩٦٤ ، وصدر " لوعة الشمس " عن مؤسسة رمزي في بغداد ، عام ١٩٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تتخطّى انتظام التفاعيل ، ولا يحفل بالقافية الا اذا وردت عفوا " (٢) .

وبصرف النظر عن موقفنا من هذا القول سواء كان قبولا أو رفضا ، فاننا نرى أن الأقرب للموضوعية هو تناول الأشياء من حيث هي ، لا من حيث صورتها القائمة في نفوسنا ، وعلى ذلك فسنعرض لأهم **القضايا** التي اشتملت عليها مجموعات جبرا الشعرية .

قضيتان محوريتان شاعتا في شعر جبرا واستحوذتا على وجدانه ، وهما : أزمة الانسان العربي المعاصر في مواجهة معطيات المرحلة التاريخية الراهنة ، المتجسدة في صورة المدينة العربية الجديدة ، من حيث هي تجمّع بشري له ملامحه الخاصة وهويّته المتميّزة . وأزمة الوطن السليب بكل ما تعنيه هذه القضية للفلسطيني من دلالات .

أما فيما يتعلق **بالمدينة** ، فجبرا يعلن صراحة أنها قضيته الكبرى " عالمي هو **المدينة** " ، المدينة العربية الجديدة بكل ما فيها من تناقضات وتيارات ، وآمال ومخاوف . . . .

المدينة ما زالت تسحرني وتستحثني على الكتابة ، وتصوير الشخصيّات الناشئة المنهوشة فيها ، كما تسحر البدوي القادم اليها من الصحراء لأول مرّة " .(٢)

والمدينة موضوعا للقصيدة العربية ظاهرة أخذت تتبلور ، وتتحدد معالمها بانتشار الشعر الحرّ وهيمنته على الساحة الأدبية . ولعل سلسلة التغيرات السريعة المفاجئة التي شهدتها **المدينة** العربية في المائة سنة الماضية ، هي التي بهرت

---

(١) جبرا ابراهيم جبرا ، الرحلة الثامنة ، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ١٨ .

(٢) جبرا ابراهيم جبرا : الحرية والطوفان ، دار مجلة شعر ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ص ١٤٨ — ١٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشاعر العربي وأقلقته ، فالمدينة العربية لم تعد تلك القرية المتواضعة ، ولم تعد الطيبة والمحبّة والبساطة قواما للروابط والعلاقات التي تسود مجتمعها ، أضف الى ذلك ظهور الآلة في المدينة العربية ، وما تركته من أثر في طبيعة الحياة وأساليب هذه المعطيات الجديدة وجد الشاعر العربي نفسه في دوّامة ، يستشعر فيها الضياع والغربة والخطر الذي يهدده من حيث هو انسان بغض النظر عن مصدر هذا الخطر أو مظهره ، ولذلك فهو انسان يقتله الرعب والقلق :

لو أنني لا قدّر الله ـ سجنت ، ثم عدت جائعا يمنعني من السؤال الكبرياء .

فلن يود بعض جوعي واحد من هؤلاء (١)

وجبرا واحد من كثيرين من الشعراء العرب الذين أرّقتهم المدينة العربية الجديدة ، واستحوذت على اهتمامهم ، حتى أصبحت القضية الكبرى في نتاجهم الأدبي . غير أن معاناة جبرا من المدينة تتسم بالوضوح والعمق في الرؤية على عكس ما هي عليه عند بعض الشعراء العرب (٢) . معاناة جبرا مصدرها انسان المدينة ، برعبه ، بعقمه ، بكل صورته غير المشرقة ، في ذهن شاعرنا .

ثلاث فئات من الناس يسكنون مدينة جبرا هم : الأطفال ، والنساء ، والرجال ، ولكل منهم صورة خاصّة في وجدان الشاعر .

أما أطفال هذه المدينة ، فهم حفناة ، جياع ، اضطرهم العوز والفقر الى العمل رغم صغر سنّهم ، فانتشروا في الطرقات ، وعلى العتبات يبيعون أوراق اليانصيب طلبا لرغيف الخبز ، ولذلك يتماطف جبرا معهم ويشفق عليهم :

سألبس معطفي وأنطلق

الى الروار ، الى الدرج ، الى الرصيف

---

(١) أحمد عبد المعطي حجازي : ديوانه ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٨٢

(٢) المقصود هنا أحمد عبد المعطي حجازي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأرى الحفاة يلوّحون بأوراق
اليانصيب" خمسة آلاف دينار، خمسة آلاف دينار". (١)

وأمّا نساء تلك المدينة فهن موسمات وبغايا، لا يعرفن الحب الحقيقي، وإن عرفنه، فانه يظل حبّا عقيما لا يثمر، وهي صورة امتدّت الى فنّه القصصي أيضا، وسنفصل الحديث عن صورة المرأة في قصصه في مكان آخر من هذا البحث:

في الزقاق يبقرون نساء دعي العيون
تضمّخ الجنّة منهن شعرا وأظافر
وتسن جيب مبيّضة قد جلست
حول مائدة عليها نقود ووزن (٢)

فاذا لم تكن المرأة في تلك المدينة موسما، فهي أنانيّة، تافهة، جاهلة، لا تعنيها الا شؤونها الخاصّة، ولا تتعدى ثقافتها ما تحصّله من مطالعة الصحف والمجلات الرخيصة، من معلومات تتعلق بالملابس والأزياء. (٣)

ولعل جبرا أحسّ بأنه يتحامل على نساء المدينة تحاملا ليس له ما يبرره، فأراد أن يعطي قضية الجنس بعدا يخفّف من حدّة هجومه على أولئك النساء الموسمات، واتكأ في ذلك على أسطورة البغاء المقدّس (٤).

---

(١) جبرا ابراهيم جبرا: تموز في المدينة، دار مجلة شعر، بيروت ١٩٥٩، ط ١، ص ٥٨.

(٢) جبرا ابراهيم جبرا: المدار المقفل، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٤، ص ٤٤.

(٣) أنظر قصيدة الى شيطانة بيضاء في ديوانه لوعة الشمس، ص ص ٥٥ - ٦١.

(٤) في الأساطير البابلية أن بعض النسوة كن يكرّسن أنفسهن للخدمة في أحد معابد الآلهة وعملهن هو مضاجعة الغرباء، طلبا للحظوة من الآلهة.
للمزيد أنظر كتاب السير جيمس فريزر: الفصن الذهبي، قسم اسطورة أدونيس، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والبغايا المقدّســـــــات
في هياكل بابل وبيلـــوس
يقدّمن للغرباء أجسادهن
لتحضّر الروابي (فوق أسوار المدينة) (١)

ومن الواضح أن المقارنة بين البغايا المقدّسات في الاسطورة وبغايا مدينـــــة جبرا مقارنة في غير محلّها ، فالبغاء في تلك الأسطورة طقس ديني يؤوب الى الخصب ، والبغاء في مدينة جبرا خطيئة تنذر بالهلاك .

وأمّا رجال مدينة جبرا فهم ليسوا بأحسن حالا من نسائها . فهـــــــم رجال تعجبك مظهرهم البرّاق ، وهندامهم الحسن ، ولكنهم في الحقيقة رجال يقتلهم السأم والخواء الروحي ، والفراغ ، انهم الرجال الموت الذين تحدّث عنهـــــــم ت . س . اليوت .

أمدينة الراقصيـــــن
أم القاعدين القرفصاء
في الزوايا منهكي الأعضاء يحتضرون
مذهّبين ، معطّرين بين أحضان النساء . (٢)

وأمام هذا السأم ، وهذا الخواء الروحي المريع يهرع هؤلاء الرجال الـــى المقاهي لممارسة التدخين والثرثرة ولعب الورق والنرد ، ولكن جيوبهم خاليـــــة من النقود :

وفي المقاهي ألوف الرجال
ألوف العيون الساهمة والأيدي النائمة . (٣)

---

(١) تموز في المدينة ، ص ٣٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٧ .
(٣) المكـــان نفســه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنرد في المقهى يحابـــي
من حظّـه قد خلـص الصخـر
بيض جهار
وجيبي لله يصفر . (١) .

وهؤلاء الرجال يعانون من الانفصام والتناقض : فبينما يرتادون المواخير ، ويلتقـون بالمومسات برضى تامّ ، يثورون لقضية العرض فيما لو أخطأت احدى قريباتهـــم واستسلمت لرجل تحبّـه . (٢) وهذا التناقض في شخصياتهم لا يقف عند حـــدّ المسائل المتعلّقة بالعادات والتقاليد ، وانما يمتدّ الى صميم البنى النفسية لهم :

نصف على نصف
حتى وجهي انشـق شقّين
شـقّ يعـضّ شقّا . (٣)

وهم نتيجة لهذا التناقض والقلق ، يعيشون في حالة توتّر وتشنّج ، حتى أنهـــم يلفظون التحية وكأنها شتيمة :

أيتها المدينة تبكي .
في زواياها النساء
ويصـر الرجـال حقدا على الأرصفة
والتحية يلفظونها كالشتيمة . (٤)

وهناك صنف آخر من رجال المدينة لعلّه أكثر فئات سكان المدينة ايذاء لشاعرنـــا ،

---

(١) المدار المغلق ، ص ٣٥ .
(٢) أنظر الاقتباس رقم ٢ ، ص ٢٧ من هذا البحث .
(٣) المدار المغلق ، ص ٤١
(٤) المكان نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهو يضيق بهم ، ويلمنهم انهم الفئة التي تدّعي لنفسها الثقافة ، وتتشدّق بالبديهيات السياسية :

سئمتهم والله وعفتهم :
غلاظ القفا ،
مقتصد المقاهي ، متهجمي الدرائد ،
آكلي الشوكولا ، ماضغي الهوا ،
المتشدّقين - اذا عرّضوا أردافهم -
بكلائش الأحزاب ، والتفاهات العراض
الفاغرين أفواه البلاهة في القاعات والسينمات
قرّاء فلان وفلان في الفراش - أف . (١)

ومدينة هؤلاء رجالها وأولئك نساؤنها ، لا يمكن أن يكون للحب فيها مكان ، فرجالها ونساؤها ، على السواء ، يعانون من العنّة :

الدم لا يثمر فيّ ، والعضو مني عاقر . (٢)

أما العلاقة التي يمكن أن تقوم بين الرجل والمرأة في تلك المدينة فهي علاقة تأخذ طابع العقد والشهوة الخائبة ، ولذلك لن تكون لها ثمرة ، الا مثل نفل الفاكهة :

والليل ينفث بين طيّات النوم
أجسادا مقرّحة ، أشجارا
تنفل الفواكه منها وتعفّن على الأرض . (٣)

وأمام هذه المدينة يحس شاعرنا بالرعب الحقيقي الذي يقضّ مضجعه ، ويشعره باقتراب لحظة الانهيار .

والرعبة هنا مصدران : عقم المدينة وقربها من التلاشي والانهيار ، ومطاردة الذوى

---

(١) المدار المضلل ، ص ص ١٣١ — ١٣٢ .
(٢) تموز في المدينة ، ص ١٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السلطة له ، تمهيدا لاقتناصه وتصفيته :

اليقظة رعب .
والفراش رعب
أولم يبن شيء تقوله
في الكلمات ظمأ جارح
حيث لا ماء يرجى
الصمت رعب آخر
والصيادون يملأون الارض
شراكا وكلابا
والثعالب تصطاد البشر . (١)

ولكن كيف يكون لمدينة حميرا هذه ان تجتاز محنتها ، وأنّى يكون لها الخلاص؟ خلاص هذه المدينة هو مهمة الشاعر نفسه ، لأنه هو الفارس الوحيد القادر على قتل الوحش الذي يهدد مدينته :

جئتك يا موت جئتك
هذها بين عينيك مني
أنا فارس الفوارس . (٢)

والشاعر وحده هو القادر على تلك المهمة الصعبة ، لأنه يمتلك السلاح القادر على صرع الوحش . انّه الكلمة والكلمة وحدها هي طريق خلاص الشاعر ومدينته :

لكنني وجدت في الكلمات الطليقة منفذي
في الكلمات وجدت الى الفضاء
أخيرا منفذي . (٣)

---

(١) لوعة الشمس ، ص ٣٤
(٢) المدار المقفل ، ص ص ٩٩ — ١٠٠ .
(٣) لوعة الشمس ، ص ٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الواضح أن هذه الرؤية هي رؤية الشعراء التموزيين (١) عامّـــــة ، وليست رؤية جبرا وحده .

وأما القضية الكبرى الثانية في شعر جبرا فهي قضيّة الوطن السليب، كمـــا قلنا ، غير أنّ هذه القضيّة تأخذ عند شاعرنا طابعا رومانسيا بحتا . وقضيـــــة الوطن في شعره تأخذ ثلاثة أبعاد رئيسية :

البعد الأول : يتمثل هذا البعد في الحنين للوطن ولأيام الطفولة التـــي قضاها الشاعر فيه ، وهذا الحنين يتجسّد من خلال الشعور بالغربة في وطنه الثاني ، العراق . ومن خلال استحضار بعض المشاهد التي عاشها أيام الطفولة في بيـــت لحم أو القدس، وهي مشاهد مستمدّة من الأحياء الفقيرة التي كانت تسكنهـــــا أسـرة جبـــرا :

هناك أراهم على الأرصفة الحجر
يتناقشون ، يتصايحون ،
تحت أقواس البيوت القديمة
بين باعة الخضار والجلود
بين الحمّارين ، والحمّالين ، على
شفا الوادي .

==========

عرباتهم مرصّعة بالحديد
وخناجرهم معقوفة تلتمع
الاسكافيّ يغني للشمس
تطلّ عليه كمعبّ من بابه

(١) هؤلاء الشعراء تشكّل اسطورة تمّوز أو أدونيس محور رؤيتهم لطبيعة الحياة والمرحلة التي تعيشها الأمة العربية ، وهم يرون أن الأمة العربية تمر بمرحلة العقم المشابهة للمرحلة التي تعقب غياب تموز في الأسطورة ، لكنهم يتفاءلون بخـــلاص هذه الأمة ، عند عودة تموز ، أي حين يأخذ الشاعر على عاتقه مهمة الخـــلاص، ويسعى لها بكلماته ، ومن هؤلاء الشعراء أدونيس وبلند الحيدري ، والسيّاب في بعض انتاجه الشعري ، ويوسف الخال ، ومحمد الماغوط الدمشقي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمخرز يومض بين يديه . (١)

وكأني بالشاعر هنا يريد أن يصوّر الطيبة أو البساطة التي يتمتع بها شعبه ، والتي لم تشفع له ازاء وحشية العدو المغتصب . ومن هنا يمكن أن نفهم هذه الصورة على أنّها ادانة غير مباشرة لوحشية العدو .

البعد الثاني : ويتمثل هذا البعد في تصوير مدى الظلم والقسوة التي لحقت بشعبه ، بتشريده من وطنه من جهة ، وتصوير مدى وحشية العدو وقسوته من جهة أخرى :

في حيّنا كما أعمى
يطنطن على العود ويغنّي
وبعدما يغفو عليه في فيئنا
ساعة أو ساعتين في الظهيرة
قتلوه وفي أمعائه غنى الرصاص
أغنية أخيرة . (٢)

وهذا العدو لا يكتفي بقتل الأبرياء والمستضعفين ، بل هو يعمل في منتهى الخبث والخداع على سلب ذلك المواطن البريء ، أرضه وبيته :

في أرضي التي اقتطعتها
من مسرح الأفاعي
رحاب البوار والضياع
بنيت بيتا من عروقي وضلوعي
بيدي حرثتها
وبذرت زرعتها
مستجلبا لها الماء الشحيح
عبر القفار والبرار

---

(١) لوعة الشمس ، ص ٢٩ .
(٢) تموز في المدينة ، ص ٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكل من رحـــاب الشوك والضبـــاع
يرجمون البيت بالحجـارة
وثمار يجنونها بالمعصي
متسللين في الليل من الأفاعي . (١) .

البعـد الثالث : ويتمثّل هذا البعد في تمجيد صور البطولة التي يقوم بها رجال المقاومة الفلسطينيون ، دفاعا عن وطنهم ، وانتقاما لكرامتهم . ورؤيـــة الشاعر لهذه البطولات رؤية متفائلة ، تبشر بانتصار الحق ، وانبثاق المعرفة عـــن الطائر ـ العنقاء ـ وهو بذلك يؤكد لنا أن الطريق الوحيد لاستعادة الوطن السليب هو الكفاح المسلح الذي يقوم به رجال المقاومة الفلسطينية :

رأيتهم يشاطرون الأرض عنفها
يفجّرون في أعين الغازين صخرها
منقذين عصر الأحزان هذا ،
جاعلين من دموع الأمهات رصاصا
يهلهل في حناجر العدو

==========

من شدى هذا الحزن تنبت وردة الأمـــل
من لثـام الفدائي هذا
تقدح شرارة الحب للارض، للانسان
واذا محرقة أشعام ، فـــــي
سميرها طير عظيم يغنّـــــي
أغنيـة تملأ الأرض والشمـــس
والبحار السبعة كلّها . (٢)

---

(١) تموز في المدينة ، ص ص ١٥ ـ ١٦ .
(٢) لوعة الشمس، ص ص ٢٠ ـ ٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يعني ما تقدّم أنّ جميع شعر جبرا وقف على هاتين القضيتين الكبريـــــن ، بل انّ هناك موضوعات أخرى شغلت حيّزا لا بأس به من مساحة مجموعاته الشعريـــــة الثلاث ، فقد كان للمرأة مثلا نصيب كبير من قصائده اذ خصّص لها عدد من تلـــــك القصائد ، كقصائد متوالية حب : " اثنتان وعشرون قصيدة " التي بلغت حوالـــــي ثلاثين صفحة . (١) و " الى شيطانة بيضاء " (٣) و " هذه النمرة عيناها جمرتان " (٣) . و " أركض أركضي يا مهرتي " (٤) . وهذه القصائد جميعها تدور حول جسد المرأة ، ورغبة الشاعر في امتلاك ذلك الجسد ، حتى أنّ القصيدة الوحيدة التي كتبها ليصور تباريخ الهوى النقيّ ، لم تسلم من ذلك الشبق الذي يطارده ويفسد عليه رغبتـــــه في العفـــــة :

تعرّ ، حبيبتي ، لأكسوك
بثوب من قبلاتـــي :
سأصنع لك من القبلات سوتيانا
وقميصا يفاخران بنهديك ،
وأحوك لك من القبـــــلات
تنّورة وما تحتها من حريـــر
يحتضنان كالعشاق ردفيك . (٥)

××××××××××××××××

النقـــــــــــد :-

لقد أسهم جبرا في الحركة النقدية التي شهدتها الساحة الأدبية في النصف الثاني من هذا القرن بسهم كبير نسبيا ، وهو بحق من رواد هذه الحركة ، سواء بما

---

(١) لوعة الشمس ، ص ص ٧٠ — ١٠٠
(٢) المصدر نفسه ، ص ص ٥٥ — ٦١
(٣) تموز في المدينة ، ص ص ٤٥ — ٤٩
(٤) المدار المغلق ، ص ص ٢٧ — ٣٢
(٥) لوعة الشمس ، ص ٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وضعه من مؤلفات، أو بما قام به من ترجمات عن الآداب الغربية ، وكانت رافدا مهما من روافد الحركة النقدية والأدبية التي عرفتها الساحة العربية في الثلاثين سنة الماضية. ففي مدّة لا تتجاوز العشرين عاما ترك لنا جبرا ستة مؤلفات نقدية ، وعشرات المقالات مبعثرة في الصحف والمجلات، هذا بالاضافة الى أعماله الأدبية الأخرى ، في القصة والرواية والترجمة .

أمّا كتبه النقدية فهي " الحرية والطوفان " (١) و " الرحلة الثامنة " (٢) و " الفن العراقي المعاصر " (٣) و " جواد سليم ونصب الحرية " (٤) و " النار والجوهر" (٥) و " ينابيع الرؤيا " (٦) .

وليس موضوع هذا البحث أن نتوقف عند كل جزئية من جزئيات هذه الكتب، ولهذا سنكتفي بعرض أهم القضايا النقدية التي اشتملت عليها هذه الكتب . وهذه القضايا يمكن تقسيمها الى قسمين رئيسيين ، تسهيلا لدراستها ، مع الاعتراف المسبق بتداخلها وترابطها عضويا .

قضايا عامّة :

المقصود بالقضايا العامّة ، مجموعة القضايا التي تتصل بعملية الابداع ، بغضّ النظر عن الشكل الأدبي الذي اتخذته ، سواء أكان قصيدة أم قصّة أم رواية .

وبعبارة أخرى هي مجموعة القضايا التي تتملّق بكل الفنون الأدبية .

أولى هذه القضايا ، ولعلها أهمها وأكثرها شيوعا عنده هي قضية الحرية ، التي

---

(١) بيروت، ١٩٦٠ .
(٢) بيروت، ١٩٦٧ .
(٣) بيروت، ١٩٧٢ .
(٤) بيروت، ١٩٧٤ .
(٥) بيروت، ١٩٧٥ .
(٦) بيروت، ١٩٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تكسب الأديب صفة الثورية والتمرد ، وتعطيه دوره الريادي . وللحرية في مفهوم جبرا ثلاثة أبعاد رئيسية هي : البعد السياسي ، والبعد الاجتماعي ، والبعد الفنّي .

أما البعد الأول ، فمعناه ضرورة توفير الأمن للأديب من الوقوع تحت طائلة عقاب السلطة . وذلك لأنه بدون توفّر هذا النوع من الحرية ، سيكون مضطرا للمسالمة أو للصمت ، وكلا الأمرين شرّ . وهو يرى أن هذا النوع من الحرية قليلا ما يعطي للأديب ، خاصة في البلدان النامية ، ومن هنا يترتب على الأديب أن يتمرّد على السلطة ، ويسعى الى تأليب المجتمع عليها حتى يسقطها . ولهذا كان جبرا معجبا جدا بمحمد مهدي الجواهري (١) ، وبقصائد نزار قبّاني السياسية .

والبعد الثاني ، معناه أن يتخلّص الأديب من ضغوط العادات والتقاليد والأعراف السائدة في مجتمعه ، وهذا أيضا يتطلب من الأديب أن يكون متمردا ، ثائرا على مجتمعه ، وعليه أن يتحمل ما قد يجرّه عليه هذا التمرد من اضطهاد المجتمع له ، ومحاصرته في كل شؤون حياته ، أمّا اذا جنح الأديب للمهادنة ، وحرص على رضى الناس عنه ، فقد حكم على مهمته الريادية بالتلاشي " اذا استمر الفنان في انتاج ما يتصوّر أنه يرضي الناس فقد تخلّى عن حقّه في الريادة الذهنيّة والنفسيّة" (٢) ومن هنا أيضا وضع جبرا شعر نزار قبّاني في المرأة ، في قمّة الشعر العربي الحديث (٣) ومن هنا اهتم بشعر بايرون (٤) ، وولت وتمن (٥) . ومجمل القول أن على الأديب أن لا يأبه كثيرا لما يعتقد الآخرون بأنه صحيح ، بل عليه أن يهتمّ بما يعتقد هو أنه صحيح " انني لا أهتمّ كثيرا فيما يعتقد الآخرون أنه صحيح ، اذا لم أقتنع أنا به " (٦)

---

(١) انظر كتابه " النار والجوهر " دار القدس ، بيروت ١٩٧٥ ط ١ ، ص ص ٧ - ٣٦

(٢) جبرا ابراهيم جبرا ، الرحلة الثامنة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٩ ، ط ٢ ، ص ٩٧ .

(٣) جبرا ابراهيم جبرا : النار والجوهر ، ص ص ١١٧ — ١٥٧ .

(٤) جبرا ابراهيم جبرا : الحرية والطوفان ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ، ١٩٧٩ ، ط ٢ ، ص ص ٨٩ - ١٠٨ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ص ١٧٣ — ١٨٨ .

(٦) جبرا ابراهيم جبرا : ينابيع الرؤيا ، ص ١١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما البعد الثالث، وهو البعد الفنّي ، فمعناه أن يتخلّص الأديب من كل القيود الفنّية المتعلقة بالشكل الأدبي الذي يمارسه ، سواء اتصلت هذه القيود بالشكل أو بالمضمون . ومن هنا كان على الشاعر العربي ، كما يرى جبرا ، أن يتخلّص من مسألة الوزن والقافية في الشعر ، وكان عليه أن يتحرر من النظرة الضيّقة لمفهوم الالتزام .

والالتزام هو ثانية القضايا النقدية الكبرى التي أكبّ عليها جبرا . وهو يرى أن كثيرا من كتّابنا قد أساؤوا فهم معنى الالتزام ، فهو " ليس ضربا من الوعظ السياسي أو ترديد سطحي لما يردده كورس العامة " (١) كما فهم كثير من كتّابنا . وهو يرى أنّ هناك نظريتان تفسران معنى الالتزام ، وأنّ أصحابهما على خلاف دائم : اذ " يرى أصحاب النظرية الأولى أنّ الفنّ آلة من آلات المجتمع أو وسيلة من وسائله ، موقوفة على خدمته ، ولذلك فان مهمة الفنّان هي أن يعبر عن حاجات المجتمع وغاياته ، وينصاع لرغباته ، ويسعى في تصويرها بعيدا عن نزواته " (٢) . وجبرا يرى أن هذا الفهم لمعنى الالتزام ، فهم سطحي ، وذلك لأنه تبسيط لقضية الأدب ، واجتزاء لها ، اذ " أنّ قضية الأدب هي قضية الانسان بكل ما فيه من نوازع ورغبات وأفكار " (٣) وهو يرى أنّ هذا الفهم الخاطئ لمعنى الالتزام هو الذي قصّر عمر الالتزام ، وجعل كثيرا من الكتّاب يضيقون به ، ويخرجون عليه . (٤)

ويرى أصحاب النظرية الثانية ، ومنهم جبرا ، أن الالتزام يعني " دمج ذهن الكاتب وشعوره المعاصرين على أعمق مستواهما في انتاجه " (٥) . وهؤلاء يرون أن العمل الأدبي الملتزم يجب أن تتحقق فيه ميزة الاستكشاف أي استبطان كوامن النفس البشرية وخفاياها . وهذا الاستكشاف يحتاج الى موهبة ونفاذ بصيرة لا تتأتّى الا للكاتب الموهوب " والاستكشاف لا يجري في الخارج الواقعي فقط ، بل في الداخل أيضا

(١) جبرا ابراهيم جبرا : الحرية والطوفان ، ص ١٧
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٧
(٣) جبرا ابراهيم جبرا : الحرية والطوفان ، ص ٢٠
(٤) أنظر المصدر نفسه ، ص ١٧
(٥) المصدر نفسه ، ص ١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في مطاوي النفس والدماغ، في متاهات الوهم التي لا يتخلّص منها الانسان "(١).
ومن خلال هذا الاستكشاف لدخيلة الانسان والواقع المعاني للمجتمع، يستطيع الكاتب أن يخرج بنقد حقيقي للحياة. وحتى يكون هذا النقد صحيحا فيجب ألا ينصرف الكاتب لهذا النقد على حساب المقوّمات الفنّية للعمل الأدبي، كأن ينساق في المباشرة والسطحيّة التي ترضى البسطاء. (٢)

لكن كل ما تقدّم لا يتجاوز العناصر الأوليّة للعمل الأدبي، ولا بد لهذه العناصر من الانتظام في شكل أدبي متكامل جميل. ومن خلال كل ما تقدّم عن الالتزام خلص جبرا الى أنّ "الفن الملتزم ـ أدبا كان أو غيره ـ هو تعبير عن شخصية الفرد ـ بل شخصية الفنان نفسه وذلك لأن الفنان يرى في نفسه أنموذجا للانسان الذي من أجله وجد التنظيم الجماعي مهما كان نوعه" (٣)

واذا كان الأدب ملتزما بالمعنى الذي يفهمه جبرا، ويؤكد عليه، فان ذلك سيقودنا الى انسانيّة الأدب أو كونيّته، وهذه ثالثة قضايا جبرا النقدية، فحين ينصرف الأدب الى استبطان كوامن النفس البشرية، ويجعل من هذه النفس موضوعه الأساسي فانه يكتسب صفة الكونيّة أو الانسانية تلقائيا، وذلك لأن الانسان هو الانسان بغض النظر عن جنسه أو عصره.
ومن هنا فان جبرا يقيس جدارة الكاتب "انسانيته وغزارة ابتكاره، وكونيته معا" (٤)

وجبرا لا ينسى أهميّة قضية الترجمة من لغة الى أخرى في توسيع رقعة انتشار الأدب، فهو يعرف جيدا أنّ الأدب مهما اكتسب من مقوّمات الأدب العالمي، لا يمكن له أن يكون عالميا بالفعل الاّ اذا ترجم الى لغات واسعة الانتشار. وهنا سيجابه الأدب بمشكلتين، هما: عدم توفّر من يترجم هذا الأدب الترجمة التي تبقي على حيويته وروعته. وصعوبة ترجمة بعض الفنون الأدبية، كالشعر مثلا، أو استحالة

(١) جبرا ابراهيم جبرا ـ الحرية والطوفان، ص ٢٢
(٢) أنظر المصدر نفسه، ص ص ٢٢ — ٢٥
(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٧
(٤) جبرا ابراهيم جبرا: ينابيع الرؤيا، ص ١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ترجمتها ، دون أن تفقد الكثير من مقوّماتها الفنّية . ولذلك صادفت " ألف ليلة وليلة " رواجا واسعا عندما ترجمت الى اللغات الأخرى ، بينما لم يصادف الشعر العربي الذي ترجم الى لغات أخرى مثل ذلك الرواج ، بالرغم من احتوائه على العناصر والمقوّمات التي من شأنها أن تمهّد لانتشاره وذيوعه عالميا .(١)

وزابعة هذه القضايا الكبرى ، قضية المعاصرة ، أن جعل أدبنا العربي أدبا عصريا ، وفي مستوى آداب الأمم الأخرى . وهذه هي القضية التي تصدّت لها مجلة " شعر" وأخذت على عاتقها بلورتها فيما يكتب فيها من مقالات ، وتجسيدها فيما تنشره من شعر . وجبرا وغيره من الذين حملوا لواء هذه الدعوة يرون أنّ الأدب العربي لا يمكن أن يكون معاصرا بالمعنى الذي يريدونه الّا بالعودة الى الجذور ، الى تراثنا الذي يحمل خصوصيّاتنا ، ويمطينا هويّتنا المميزة لنا . ولكن هذه العودة الى الجذور ، لا تعني التقوقع داخل الموروثات التراثية لنا ، أو الاقتداء الأعمى بها ، وانما تعني استصفاء الجوانب المشرقة من تلك الموروثات واستلهامها في اطار فهم معطيات العصر ومعارفه الغزيرة " تكون العودة الى الجذور قضية لازمة ، على أن نتعامل معها بوعي حديث تغذّيه معارف العصر كلها "(٢) .

وعلى ذلك يكون لقضيّة المعاصرة فرعان : فرع يتمثل في العودة الى التراث ، واستصفاء المشرق منه ، واستلهامه فيما نكتب . وفرع يتمثّل في الاطلاع على معارف العصر وآداب الأمم الأخرى ، والاستنارة بها . ومن هنا دعت مجلة " شعر " الى العودة الى الرموز التموزيّة ، والأساطير التي عرفتها شعوب سوريا الطبيعية ، قديما .

وخامسة هذه القضايا ، هي قضية شكل العمل الأدبي ، فقد دعا جبرا الى أن يكون بناء العمل الأدبي بناء هرميّا ، أو ما سمّاه : الذروة

ومعنى ذلك أنّ " عناصر القطعة الفنيّة يجب أن تكون متفرّقة متباعدة أول الأمر ، ثم تتقارب ، وبعد ذلك تصطرع ، ثم تبلغ الذروة من العنف : وعندها تنحلّ الأزمة

---

(١) جبرا ابراهيم جبرا : ينابيع الرؤيا ، ص ١٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعقبها هبوط أو سلام يؤدي الى النهاية " (١) وجبرا يفضّل هذا البناء لا غيره، لأن " الذروة في اعتبار الانسان شيء مألوف، بل أمر غريزي في بعض الأحيان والأورغزم الجنسي أوضح مثال على ذلك " (٢) . وهو يرى أن هذا النوع من البناء الفنيّ يشعر المرء باللذّة والارتياح، لأن فيه محاكاة لميل متأصّل في جوهر الانسان، فاللذّة الجنسيّة فيها هذا التصاعد الى الذروة، ثم هذا التداعي والارتخاء المريح، وكذلك هو الحال بالنسبة لانفعال الغضب .

وهذا النوع من البناء الفنّي هو قوام فنّ المسرحية، في القرنين الثامن عشر والسابع عشر وما قبلهما، كما يرى جبرا، ولذلك فهو ينعى على **الشعر** العربي، خاصة، افتقاره الى هذا النمط من البناء الفنّي الممتاز، الذي حظي به الشعر الأوروبي (٣).

أما سادسة هذه القضايا، فتتعلق بمفهوم النقد كفنّ له قواعده وأصوله، فجبرا يفهم النقد على أنه " عملية استخوار وكشف " (٤) لخفايا النص الأدبي . ومهمة الناقد هي البحث عن " الصلات والوشائج والتصاميم الخفيّة في كل جزء من أجزاء العمل، وابرازها للعين " (٥) كما أنّ العملية النقدية يجب أن تتم في منأى عن أي اعتبار لكاتب النّص المراد تناوله " والناقد ـ كما أراه ـ يجب أن يتناول العمل الفنّي كشيء يحدّ ذاته، له كيانه الخاص المحدود : أي أنه يجب ألّا يخلط بينه وبين حياة صاحبه . (٦)

ومع ايمان الباحث بصحة هذه القاعدة الكبيرة، الّا أنّه يرى أنّ معرفة الناقد بحياة كاتب النص الذي يدرسه، هي معرفة مفيدة، ان لم تكن ضرورية جدا لتسهيل مهمته، اذ كيف نتناول لاميّة الشنفرى، مثلا، بالدراسة دون معرفة

(١) جبرا ابراهيم جبرا : الحرية والطوفان، ص ٥ .
(٢) المكان نفسه .
(٣) أنظر جبرا ابراهيم جبرا : الحرية والطوفان، ص ١١ .
(٤) المصدر نفسه، ص ١٣١ .
(٥) المكان نفسه
(٦) المكان نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شيء عن طبيعة حياة ذلك الشاعر ؟ وكيف يمكن للناقد أن يتذوق مراثي ذيك الحسن لزوجته بمعزل عن معرفته لقصة ذلك الشاعر مع زوجته تلك ؟
وكيف نوفّق بين قول جبرا " أنا أؤثر أن أدرس ديوان شعر مثلا دون أن أعرف شيئا عن حياة الشاعر الذي كتب هذه القصائد " (١) وقوله " انّ الفنّ تعبير عن شخصيّة الفرد بل شخصيّة الفنان نفسه "؟(٢)

وأما القضيّة السابعة والأخيرة ، فهي قضية التطابق بين ما يقوله الأديب وما يمارسه بالفعل ، بمعنى أن يكون سلوك الأديب وعمله تجسيدا لما يقوله أو ينادي به من مبادئ وأفكار" . هؤلاء القلائل الذين جمعوا بين الفعل والكلمة ، حققّوا من القول ما يبقى دائما في قمة الابداع الانساني " (٣). وبهذا التطابق بين الفعل والقول فسّر جبرا خلود شعر المتنبي (٤) ، وامرئ القيس (٥) ، وعنترة بن شداد (٦) ، وعبد الرحيم محمود (٧) .

قضايا خاصة :

المقصود بهذه القضايا ، مجموعة المقومات الفنّية التي تتعلق بفنّ أدبي معين ، دون غيره من الفنون الأدبية الأخرى . وهذه القضايا تتعلق بالشعر والرواية ، في الدرجة الأولى .

أمّا ما يتعلق منها بالشعر فنستطيع تلخيصه في كلمة : المعاصرة . وقد أشرنا الى شيء من هذا في الصفحات السابقة ، ولا بد لنا الآن من التوقّف عند

---

(١) جبرا ابراهيم جبرا : ينابيع الرؤيا ، ص ٧٣ .
(٢) جبرا ابراهيم جبرا : الحرية والطوفان ، ص ١٣٧ .
(٣) جبرا ابراهيم جبرا : ينابيع الرؤيا ، ص ٨٦ .
(٤) أنظر المصدر السابق ، ص ص ٣٠ - ٣٥
(٥) أنظر جبرا ابراهيم جبرا : الرحلة الثامنة ، ص ص ٨٦ - ٨٧ .
(٦) أنظر المكان نفسه .
(٧) أنظر المكان نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

معنى المعاصرة في الشعر، بشكل خاص .

يرى جبرا أن المعاصرة في الشعر، تقوم على ثلاث ركائز رئيسية، هي بمثابة شروط يجب أن تتوافر في القصيدة حتى تكون معاصرة . وهذه الركائز هي : المنولوج، والمونتاج، والتضمين . أما المنولوج، فمعناه : أن يتخلّى الشعر عن سمة صوت الفرد مخاطبا الجماعة، وأن يتخذ لنفسه سمة مخاطبة النفس، أو الحوار الداخلي، بين الشاعر ونفسه، فقد درج الشاعر العربي منذ العصر الجاهلي على اتخاذ موقف هو أشبه بموقف الخطيب أو الواعظ، وبالتالي فهو يدير حوارا مع الآخرين، وهو معنيّ برضى الجمهور المتلقّي، عما يقول، ولذلك فهو يسعى، ولو على حساب فنّه، لارضاء هذا الجمهور، مما يفقده في نهاية المطاف، استقلاليته نهائيا، ويجعله واحدا من ذلك الجمهور، بل لسان حالهم . ومن هنا تختفي نهائيا صيغة " الأنا " من شعره، وتحلّ محلّها صيغة " النحن " . (١) وهذا ما يرى فيه جبرا خروجا على ناموس الشعر، ورسالته، فالمهمّ في الشعر هو الفرد وليس الجماعة (٢) . أما الشاعر المعاصر فعليه أن يوجّه خطابه الى نفسه، مع الاحتفاظ بشيء من المسافة بينه وبين السامع أو المتلقّي . فاذا أراد مخاطبة هذا السامع فيجب ألّا يكون خطابه حقيقيا، بل مجرد وسيلة لتحويل الأنظار الى داخليته، وبعبارة أخرى، على الشاعر المعاصر أن يضع نفسه موضع البطل في مسرحية ليست محدّدة بعد، وعليه هو تحديدها . (٣) .

وأما المونتاج، فهو " تعاقب الصور على نحو خاص مستهدفا نتيجة عاطفية معينة " . (٤) أي أن الشاعر يجب أن يفعل ما يفعله المخرج السينمائي حين يريد أن يثير في المشاهدين عاطفة معينة، فلو فرضنا أن الشاعر يريد أن ينقل للآخرين حزنه بسبب موضوع ما، فانه لا يكفي أن يقول لهم انه حزين حتى يشاركوه حزنه، وانما يترتّب عليه أن يحشد الصور الشعرية التي تثير فيهم الحزن، من غير أن يسميه لهم . ومن هذه الركيزة ندخل الى الركيزة الثالثة، وهي : التضمين، أي ايصال

---

(١) انظر جبرا ابراهيم جبرا : الرحلة الثامنة، ص ص ٣٥ - ٣٦ .
(٢) أنظر جبرا ابراهيم جبرا : ينابيع الرؤيا، ص ١٢٩ .
(٣) أنظر جبرا ابراهيم جبرا : الرحلة الثامنة، ص ٣٦ .
(٤) المصدر نفسه، ص ٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦٢٥٧٤٥

الفكرة أو العاطفة الى الآخرين بطريقة غير مباشرة،والتضمين يعني " الدمج بين الصورة والكناية والرمز " . (١)

أمّا الكناية ، فليس المقصود بها ما تعارف عليه علماء البلاغة في شعرنا القديم ، من أنها حلقة وصل بين الصورة والرمز ، فلا هي بالصورة ولا هي بالرمز ، وانما المقصود بها : هدف الصورة . أو القصد منها ، على ألّا ننسى أنها في الوقت نفسه ، وسيلة من وسائل الصورة . (٢)

وأمّا الرمز ، فمعناه " أفضل تعبير عما هو مجهول حتى تلك اللحظة " (٣) أن لحظة التعبير عنه . وهذا الرمز لا يمكن أن يضعه المرء أو المجتمع وضعا شعوريا واعيا لكي يوازن أو يوجز فكرة معلومة مسبقة ، ولكنه شيء يحدس به المرء مجرد حدس فقط ، من غير وعي دقيق على جوانبه وأبعاده . (٤) ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا دعا جبرا وزملاؤه في مجلة " شعر " الى العودة الى الأساطير ، وتوظيفها فنيّا في الشعر ، فما دامت الأسطورة كناية ، أو شيئا أقرب ما يكون للكناية ، فانها تصبح جزءا من عملية التضمين التي هي احدى ركائز المعاصرة . فاذا بنى الشاعر قصيدته على تلك الركائز الثلاث فانه يكون قد حقق لها الوحدة العضوية ، والتوتر الدرامي ، اللذين تفتقر اليهما القصيدة العربية القديمة . (٥)

أمّا فكرة الفداء التي ركّز عليها جبرا في معظم قصائده ، وكثير من مقالاته النقدية فواضح أنها محاكاة للرؤية التي تطرحها أسطورة تموز ، وقصّة السيد المسيح ، اللتين استحوذتا على تفكير الشعراء التموزيين عامة .

وقبل أن نفرغ من الحديث عن مفهوم المعاصرة في الشعر ، عند جبرا ، يجب أن نشير الى أنه يرى أنّ بناء القصيدة على النحو الذي أشرنا اليه ، لا يتأتّى للشاعر الّا بالتخفّف من نظام التفاعيل ، والقافية . ولكننا لا نرى ضرورة لهذا التخفّف ، فقصائد بدر شاكر السياب ، مثلا ، تجسّدت في كثير منها المعاصرة التي دعا اليها

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ص ٣٩ — ٤٠ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٤ .
(٤) انظر تفصيل ذلك في المكان السابق نفسه .
(٥) انظر جبرا ابراهيم جبرا : ينابيع الرؤيا ، ص ١١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جبرا ، مع أنها احتفظت بالتفصيلة .

وأما ما يتعلق من هذه القضايا بالرواية ، فيمكن تلخيصه في خلو الرواية العربية من : الموضوع الكبير . هذا الموضوع الذي يعطي هذه الرواية شرعيّة وجودها من جهة ، وهويّتها من جهة أخرى . والمقصود بالموضوع الكبير هو " همّ الانسان المأساوي بالحياة " (١) . والمأساة المقصودة هنا هي " تصوير الفرد وهو يجابه القوى الكبرى" (٢)وجبرا يرى أن الرواية العربية ما زالت لا تؤخذ مأخذ الجدّ ، وأن الروائي ما زال يتعامل مع هذا الفن ، كما يتعامل مع لعبة مسليّة ، مع أن الأولى بالرواية أن تنصرف لتصوير تجربة الفرد داخل الجماعة من جهة ، وتصوير تجربة الجماعة داخل اطار زمني معين ، من جهة أخرى . (٣) ولذلك فهو يرى أن الرواية العربية لم تفلح ، حتى الان ، في تجسيد معطيات المرحلة التاريخية التي تعيشها هذه الأمة ، وليس أدلّ على هذا من فشل الرواية العربيّة في تجسيد قضية الانسان الفلسطيني ، كما يجب ، وفشلها في تقديم صورة حيّة لحركة سير المجتمع العربي . (٤)أمّا اذا أريد لهذه الرواية أن تنبثق عن تجربة الفرد والجماعة ، وأن تفعل فعلا ديناميا في حياة الفرد والجماعة ، فلا بد لها في رأيه ، أن تنشط كعمل فنّي على مستويين :

أولا : مستوى الواقع .

ثانيا : مستوى الأسطورة . (٥)

أما المقصود بالمستوى الأول ، فهو أن تسعى الرواية الى تصوير الواقع العربي بكل خفاياه ، ودقائقه ، وبكل مظاهره وعموميّاته ، وبعبارة موجزة ، أن تسعى الرواية الى تطبيق مقوله : الفن مرآة المجتمع . وأما المستوى الثاني ، وهو الأهم والأخطر ، في رأيه ، فالمقصود به اعادة خلق الواقع في شكل متنام متكامل اسطوريا (٦)

(١) جبرا ابراهيم جبرا : الرحلة الثامنة ، ص ٧٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧١ .

(٣) المكان نفسه .

(٤) أنظر : جبرا ابراهيم جبرا : الرحلة الثامنة ، ص ص ٧١ - ٧٥ .

(٥) أنظر : المصدر نفسه ، ص ٧٥ .

(٦) أنظر : المكان نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعبارة أوضح ، اذا كنّا في المستوى الأول قد أعدنا خلق الواقع في الظاهـــــر ، فانه يترتب علينا أن نعيد خلق ذلك الواقع بشكل يفهم ضمنيا ، لا مباشرة ، ويكـــون ذلك بتوظيف الأسطورة في العمل الروائي ، سواء باستلهام رؤيتها وجوّها أو تضمينها بكل أبعادها وجزئياتها وبذلك تتضمن الرواية" نفاذها السحري ، وقدرتها الغامضـــة على الفعل الدائم في النفس والمجتمع " (١) .

لكن النجاح في تحقيق المستوى الثاني مرهون بتحقيق النجاح في المستوى الأول ، اذ لا يعقل أن يتواجد المعنى الأسطوري في عمل لم يتكامل بناؤه الخارجي الـــى الحدّ الذي يبرر المنطويات الأسطورية التي لا ندركها ، في الغالب ، بوضوح . (٢) ويضيف جبرا الى هذه القضية التي تشكل نقطة الضعف في الرواية العربية ، قضيتيـــن فرعيتين أخريين .

الأولى : خلو الساحة الأدبية العربية من الروايات العظيمة الرائدة ، ومثل هذا الوضع الأدبي لا يمكن أن يفرز روايات عظيمة " من العبث أن يتصّور الانسان أنه يستطيع أن يكتب الرواية العظيمة في جو خال من الروايات العظيمة " (٣)

والثانية مستوى القرّاء عندنا ونوعيتهم ، فجبرا يرى أن القرّاء في بلادنا من النوع الذي لا يساعد على ايجاد الرواية العظيمة " انّ الأدب العظيم بحاجة الى قرّاء عظيمين . أي أنّ القرّاء ، هذه القوة المجهولة ، باستطاعتهم أن يخلقوا ، أو يخنقوا الفنّ العظيم" (٤).

القصـــــة القصيـــــرة :
==========

من الغريب حقا أن نجد أن هذا الفن الأدبي الرفيع لم يحظ باهتمام جبـرا ، في كتبه النقدية ، الا بمقالة أو مقالتين تتجلى فيهما السرعة والاقتضاب ، قدّم فـــــي احداهما دراسة موجزة لمجموعة قصصية لتوما الخوري (٥) .

---

(٢) أنظر : جبرا ابراهيم جبرا : الرحلة الثامنة ، ص ١٧٦ (١) المصدر نفسه .
(٣) جبرا ابراهيم جبرا : ينابيع الرؤيا ، ص ٨١ .
(٤) المكان نفسه .
(٥) المجموعة هي " المغمورون تطلع لهم شمس " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقدم في الثانية تعليقا بسيطا على مجموعة قصصية لادريس الخوري (١) . وهنا التعليق لا يتجاوز الصفحة الواحدة .

أما في دراسته لقصص توما الخوري فقد أثنى بحرارة على عنصرين تحققا في تلك القصص بشكل واضح وهما : السخرية ، والشفقة . فقد ذكر أن القاص كان مصورا بارعا لسخرية الحياة والقدر من شخوصه ، كما أنه كان يولي شخوصه كثيرا من العطف والشفقة ، لا سيما وأن اولئك الشخوص أناس بسطاء مغمورون ، يلعب بهم القدر وسوء الحال .

وأما في تعليقه على قصص ادريس الخوري فقد أثنى على قدرة القاص على تصوير اغتراب البطل في ذاته وتجربته ، كلما ازداد رفضه للآخرين " (٢)

ولعل موقف جبرا من القصّة القصيرة يزداد وضوحا اذا عرفنا أنه أقلع عن كتابتها منذ عام ١٩٥٦ . فهو يرى فيها فنّا سهلا سريعا ، لا يستطيع استيعاب تجربته كما تستطيع الرواية ذلك ، ولذلك فهو يدعو الكتّاب الى الانصراف معه الى الفنّ الأصعب : الرواية " ان القصّة القصيرة فنّ سهل اذا قورن بالعمل الأكبر ، الرواية . . فيأنا اذن أطالب كتّابنا بالفن الأصعب " (٣) .

المسرحيـــة :-
==========

وهذا الفن الرفيع ، أيضا ، لم يحظ في كتب جبرا النقدية الا بمقالتين : ناقش في واحدة منهما لغة الحوار في المسرحية العربية ، وعلّق في الثانية منهما على مسرحيات غسان كفاني . (٤) .

أما فيما يتعلق بلغة " الحوار في المسرحية العربية فقد رأى أنّ المامية أكبر طاقة من اللغة الفصيحة على حمل التأزم والتوتر ، وخاصة في الحوار ، وعلى التعبير عن العواطف على غرار فردي شخصي . أما اللغة الفصيحة فهي أكبر طاقة

(١) المجموعة هي " حزن في الرأس وفي القلب " .
(٢) جبرا ابراهيم جبرا : ينابيع الرؤيا ، ص ٩٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٥ .
(٤) المسرحيات هي " الباب " و " الشيء " و " القمّة والنبي " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من العاميّة ، على حمل التأزم والتوتر ، في حالات الوصف والسرد والتحليل المنطقي . (١) ولذلك فهو يدعو الى استعمال العاميّة ، لغة في المسرحية ، ويستشهد على صحة نظرته هذه ، بأنّ عدد المقبلين على مشاهدة المسرحيات التي تقدّم بالعاميّة ، أكبر بكثير من عدد المقبلين على مشاهدة تلك التي تقدّم باللغة الفصيحة (٢) . ولكنه لا ينسى أن استعمال العاميّة لغة في المسرحية ، سيترتب عليه مشكلة جديدة ، هي مشكلة الفهم ، اذ كيف يفهم المصري اللهجة العراقيّة ، مثلا ؟ أو كيف يفهم اللبناني اللهجة السعودية ؟ وهكذا . ومن هنا فهو يرى أن على المسرحية أن تتجاوز مسألة اللغة عن طريق " التغلغل في مطاوي الصراع بين الأشخاص والأقدار والأحداث . (٣) فاذا استطاعت المسرحية أن تقوم بعملية التغلغل هذه ، فانها عندئذ ستتجاوز مسألة اللغة التي تصبح ثانوية .

وأما فيما يتعلق بمسرحيات غسان كنفاني فقد أثنى على ظاهرتين ، كانتا واضحتين فيها :

الاولى : أن الكاتب تجنب ذكر فلسطين أو أي رسم لاحدى قراها أو أماكنها ذكرا صريحا ، مع أن المضمون يشير الى ذلك بوضوح كامل ، وهو عكس ما كان يفعله في رواياته وقصصه . (٤) وهذا ينسجم مع ما سمّاه جبرا بالمستوى الأسطوري في الرواية .

الثانية : أنّ هذه المسرحيات تجسّد همّ الكاتب الشخصي من جهة ، وتجسّد في الوقت نفسه ، همّ الفلسطينيين عامة ، من جهة أخرى ، أي أنها تطبيق للمقولة النقدية الواقعية : اندغام الهمّ الفردي في الهمّ الجماعي . فجبرا يقول عن مسرحيتي : " الباب " و " القبعة والنبي " أنهما شخصيّتان جدا . وفي الوقت نفسه ، فلسطينيتان جدا " (٥) وهذا أيضا ينسجم مع مفهوم جبرا للالتزام .

---

(١) أنظر: جبرا ابراهيم جبرا : الرحلة الثامنة ، ص ٨٦ .
(٢) أنظر : المصدر نفسه ، ص ص ٩٢ — ٩٤ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٩٥
(٤) أنظر : جبرا ابراهيم جبرا : ينابيع الرؤيا ، ص ٢٠ .
(٥) المكان نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفـــــــــن :

المقصود بهذا : الرسم ، والنحت . ولا غرابة في أن يتصدّى جبرا لنقد الأعمال الفنّية التي أفرزتها الحركة الفنّية في العراق ، وهو الرسام الموهوب ، والمثقف ثقافة فنّية رفيعة ، بل ومن أوائل رواد الحركة الفنّية في العراق . وقد وضع لنا جبرا ، في الفنّ كتيبين (١) وعددا كبيرا من المقالات في المجلات ، والتي ضمّن بعضا منها كتبه النقدية الأخرى .

أما كتيبه الأول " جواد سليم ونصب الحرية " فقد تحدث فيه عن سيرة جواد سليم الفنّية ، وتناول كثيرا من لوحاته ومنحوتاته ، بالعرض والتحليل ، وخاصة عطاءه الخالد " نصب الحرية " (٢) . وأما كتيبه الثاني " الفن المعاصر في العراق " فقد استعرض فيه خطوات تطور الحركة الفنية في العراق " منذ الأربعينات وحتى السبعينات (٣) .

كما أنه قدّم تحليلا مجملا لكثير من أعمال الفنانيين العراقيين ، أمثال جواد سليم ، وفائق حسن ، وحافظ الدروبي ، وكاظم حيدر ، وضياء الغزاوي ، وشاكر حسن ، واسماعيل الشيخلي .

أما قضيته الكبرى في الفن فهي الرسالة التي حملتها " جماعة بغداد للفن الحديث " وهي تثوير الفن في العراق . والتثوير في عرفهم هو جعل الفن العراقي في مصاف الفنون العالمية ومستواها . ولا تختلف ، وسيلتهم في التثوير عن وسيلة رواد مجلة " شعر " في تثوير الشعر العربي واعطائه صفة المعاصرة . ووسيلتهم هنا ترتكز على ركيزتين رئيسيتين :

الأولى : العودة الى الرموز والأشكال الشعبية المعروفة في العراق ، ومن

---

(١) الكتيبان هما : "جواد سليم ونصب الحرية" و " الفن المعاصر في العراق" وهما من منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية .

(٢) عن "نصب الحرية" أنظر الصفحات العشر الأخيرة من الكتيّب المذكور .

(٣) استعرض الحركات والجمعيات الفنية التي ظهرت في هذه الفترة ، مثل " جمعية أصدقاء الفن" سنة ١٩٤٩ ، و " جماعة الرواد " سنة ١٩٥٠ ، و"جماعة بغداد للفن الحديث" سنة ١٩٥١ ، وجماعة "الانطباعيين" سنة ١٩٥٢ ، و" جمعية الفنانين العراقيين" سنة ١٩٥٦ ، و " معهد الفنون الجميلة " الذي ظهر في الستينات .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم العودة بالفنون العراقية من السطح الشعبي الى الأعماق التاريخية ، وصولا الى سومر وبابل ، واستلهام هذا الموروث الضخم في أعمالهم الفنيّة ، لأن ذلك يعطي فنّهم هويّته الخاصة به .

الثانية : الاطلاع على أحدث الاتجاهات الفنيّة المعاصرة في الغرب ، ومحاولة الاستفادة منها في " تعصير " (١) الفن العراقي ، واعطائه سمة عالمية متطورة . (٢)

وقد كانت هذه القضية هي الخلفية المحورية التي يصدر عنها جبرا في تناوله لأعمال الفنانين العراقيين ، بالتحليل والنقد .

****

(١) المقصود بهذا الكلمة هو اعطاء الفن صفة العصر .

(٢) أنظر : جبرا ابراهيم جبرا : ينابيع الرؤيا ، ص ١٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التـــــرجمـــــــــة :-

****

لم تقتصر أعمال جبرا الأدبية على الكتابة في الشعر والقصّة ، والنقد لمختلف الفنون الأدبية ، وانما تعدّت ذلك الى ترجمة كثير من الأعمال الأدبية الجيّدة من اللغة الانجليزية الى اللغة العربية ، فقد قام بترجمة حوالي عشرين مؤلفا في مختلف الموضوعات وهذه أعمال تبدو كبيرة جدا ، اذا نظر اليها على أنها جزء من أعماله في التأليف والتدريس ، وشؤون حياته الأخرى . وعند الحديث عن ترجمات جبرا لابد من تقرير حقيقتين أوليتين كانتا تلازمان أي عمل يترجمه :

الحقيقة الأولى : أن جبرا لا يترجم الا الأعمال التي يحبها ويرى فيها تجسيدا لبعض أفكاره أو أحاسيسه " أنا من دأبي ألا أترجم - اذا ترجمت - الا عن حب ، وكل ما أترجمه لا أترجمه الّا اذا اشعرته أنه رئة أخرى لي أتنفّس بها ، وأنني في عالمه كأنني في عالم من صوري وهواجسي " (١) .

أو تلك الأعمال التي يرى فيها نموذجا رائعا يمكن أن يحتذيه الكتّاب العرب ، أو أن يستفيدوا مما يطرحه من أفكار وتصوّرات جديدة " عندما أجد كتابا رائعا أعتقد أنه يفيد حركتنا الأدبية المعاصرة ، فقد أقوم حينئذ بترجمته " (٢) .

والحقيقة الثانية : أن جبرا يحقّق في كل عمل يترجمه مستوى رفيعا من الترجمة الدقيقة الحيّة ، فهو يحرص على الدّقة في الفهم ، ونقل الفكرة من لغتها الأمّ الى اللغة الثانية بكل جزئياتها ودقائقها ، مع الابقاء على حيويتها ، التي لا بد أن تفقد شيئا منها حين تترجم ، وهذا ما نجده واضحا في كل الأعمال التي ترجمها ، ولعل تمكنه من اللغة الانجليزية ، والعربية على السواء هو الذي أعطاه هذه الخصيصة .

وترجمات جبرا تذهب في مسارين رئيسيين :

---

(١) جبرا ابراهيم جبرا : ينابيع الرؤيا ، ص ٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاول منهما، ترجمات لأعمال أدبيّة ابداعيّة بحتة، كالمسرحية والقصّة، بنوعيها، والشعر. والثاني منهما، ترجمات لأعمال نقدية وفكرية.

ولعل المسرحية أوفر الأعمال الادبية الابداعية حظا في مترجماته، فقد ترجم لشكسبير ست مسرحيات، هي: "هاملت" (١) و"الملك لير" (٢) و"كريولانس" (٣) و"عطيل" (٤) و"العاصفة" (٥) و"مكبث" (٦) كما أنه ترجم مسرحية "في انتظار غودو" لصموئيل بيكيت. (٧)

وليس يعنينا هنا أن نستعرض هذه المسرحيات واحدة واحدة، أو أن نتعرض لها بالمناقشة والتحليل، فذلك أمر من شأن دارس شكسبير، وليس من شأن دارس جبرا. وانما الذي يهمنا هو مستوى ترجمة جبرا لهذه المسرحيات، من جهة، والأسباب التي دعت جبرا الى القيام بترجمتها، من جهة أخرى. أمّا فيما يتعلق بمستوى الترجمة فذلك أمر مفروغ منه، ويكاد يكون هناك اجماع على أن ترجمة جبرا لهذه المسرحيات تتمتع بمستوى رفيع من الدّقّة والعبقرية، ولذلك فالحديث عن مستوى هذه الترجمة، لا بد أن يكون تكرارا لما قاله الآخرون، والبحث في غنى عن هذا التكرار. (٨).

---

(١) بيروت، ١٩٦٠

(٢) بيروت، ١٩٦٨.

(٣) الكويت، ١٩٧٤.

(٤) الكويت، ١٩٧٨.

(٥) الكويت، ١٩٧٩.

(٦) الكويت، ١٩٧٩.

(٧) ترجمها الى العاميّة العراقية ومثّلت في بغداد لأول مرة عام ١٩٦٦.

(٨) أنظر آراء الكتّاب في ترجمات جبرا، في كتابه "ينابيع الرؤيا" ص ص ٤١ - ٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما فيما يتعلق بأسباب الترجمة ، فالباحث يرى أن هذه الأسباب هي خلاصة رؤية جبرا ، ومفهومه للعمل المسرحي الممتاز ، الذي يعكس بدوره رؤية الكاتب والمترجم معا ، لطبيعة الحياة والانسان ، ومن هنا تصبح هذه الأسباب هي الجزء المعني هذا البحث بدراسته ، من تلك المسرحيات .

يقول جبرا " منذ أيام الدراسة رافقني حلم كنت أتلذذ به وأخشاه معا ، وهو أن أنقل الى العربية هذه المسرحيات الأربع (١) كما فهمتها ، كما تأملت فيها ، كما أحببتها " (٢) .

ترى لماذا أحبّ جبرا هذه المسرحيات ؟ أليس لأنها رئته الأخرى التي يتنفّس بها كما قال ؟ أوليس لأنها جزء من صوره وهواجسه ؟ يبدو لي أنّ هذه المسرحيات امتازت بمجموعة من الخصائص التي جعلتها تستولي على لبّ جبرا ، واعجابه بها . وأهم هذه الخصائص :

الأولى : احتواء هذه المسرحيات على خصائص الشعر الدرامي ، بكل ما يحتويه من عناصر فنّية مركبة ، وبكل ما يجسده من احساس الشاعر بمأساوية الحياة ، وصراع الانسان فيها . فهو يرى في "مأساة الملك لير" ، مثلا ، " أطول وأضخم قصيدة أنتجتها العبقرية المسرحية منذ آيسخيلس حتى يومنا الحاضر" (٣) وهو يرى في " هاملت " توظيفا جيدا لـ " أساليب تعبيرية عديدة ، اضافة الى الشعر المرسل الذي بلغ به شكسبير القمّة من قوّته وبراعته " (٤) وقد تردد جبرا كثيرا قبل أن يقدم على ترجمة " العاصفة " لأنه خشي أن تفقد غنائيتها الشعرية ، اذا هو نقلها الى غير لغتها الأم (٥) . وعلى ذلك فجبرا معجب بالمستوى الفنّي

---

(١) يقصد المسرحيات : هاملت ، عطيل ، مكبث ، الملك لير .

(٢) جبرا ابراهيم جبرا : ينابيع الرؤيا ، ص ٤١

(٣) وليم شكسبير : مأساة الملك لير ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٧

(٤) ينابيع الرؤيا ، ص ٤٣ .

(٥) جبرا ابراهيم جبرا : ينابيع الرؤيا ، ص ٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للشعر الذي احتوته هذه المسرحيات.

الثانية : احتواء هذه المسرحيّات على عنصر المعاصرة والحداثة ، فرغم أنها وضعت لتصوير صراع الأقوياء على السلطة في فترة تاريخية معينة ، الا أنها تصوّر صراع الأقوياء على السلطة في عصرنا الحديث أيضا . وهذا ما يجعلها مسرحيات تتخطى حدود الزمان والمكان . وهذه المسرحيات تكتسب أهمية بالغة من تكرارها لصورة معينة للتاريخ " صورة التاريخ هذه التي يردد ها شكسبير مرارا ، هي التي تفرض نفسها علينا بقوة . فالتاريخ الاقطاعي أشبه بسلّم فخم يصعد عليه موكب مستمر من الطوك . وكل درجة الى الأعلى مؤشرة بالقتل ، والغدر ، والخيانة" (١) .

الثالثة ، مأساوية هذه المسرحيات ، الهائلة ، التي تجلّت في صراع الانسان مع طبيعته ، من حيث هو انسان ، من جهة ، وفي صراع الانسان مع القوى الأخرى ، وعجلة التاريخ من جهة ثانية . فالانسان مهما بلغ من عظمة وسموّ ، الا أن هناك زاوية مظلمة في دخيلته ، هي نقطة الضعف فيه ، وهي منبع المأساة . كريولانس رغم شجاعته ، وبلائه في الحروب دفاعا عن وطنه ، ورغم حبّه وعطفه على البسطاء من شعبه الا أنه لا يطيق أن يضع نفسه في مصافّ هؤلاء البسطاء ، وبالتالي فهو يرفض مجاملة ممثليهم في السلطة ، ويحتقرهم علانية ، مما يؤدي في النهاية الى سقوطه . (٢) وهاملت مأساته تكمن في عجزه عن تنفيذ ما يفكر فيه ، انه يحس ، ويفكر في كل شيء ولكنه يشعر أنه أضعف من أن ينفذ شيئا مهما صغر . (٣)
والملك لير ، لم تقتله الا طبيعته وبساطته ، وابنتاه غونريل وريغن ، من المؤكد

(١) يان كوت : شكسبير معاصرنا ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ط ٢ ، ص ١٨ .
(٢) أنظر : مأساة كريولانس .
(٣) أنظر مأساة هملت .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنهما لا تحبّان لأبيهما الأذى ، ولكن كل واحدة منهما تريد لزوجها أن يكون الملك ، ولا سبيل لذلك الا بالتآمر على الملك العجوز الطيب وخلعه . (١) وعطيل ذلك العملاق الطيب دفعته غيرته الى هاوية الجنون والسقوط ، الى قتل زوجته دزدیمونة . وياغو لا يحب الأذى لذزدیمونة ، ولكنه يحبّ أن يكون هو القائد المبجّل ، وليس عطيلا ، ولذلك لجأ الى اثارة شكوك عطيل في زوجته ، ودفعه بهذه الطريقة الى قتلها ، مما أدّى في النهاية الى سقوطه هو (٢) . نقطة الضعف هذه التي لا ينجو منها انسان ، مهما كان عظيما ، تلتقي مع نقطة الضعف في الطبيعة ، مع المصادفة والقدر ، لتصنعا مأساة الانسان . وعلى ذلك نقول ، ان عمق الرؤية التي يطرحها شكسبير في هذه المسرحيات ، ونفاذ بصيرته في تحليل أدقّ خلجات الانسان ، هي التي دعت جبرا الى اعتبار هذه المسرحيات أعمالا خالدة . ومن هنا شعر أن عليه أن يقوم بترجمتها الى العربية ، ليستفيد منها الكتّاب العربيّة وقرّاؤها ، ويستمتعوا بها كما استمتع هو بها " كان حافزي (ولما يزل) هو أن يشاركني الآخرون في التمتع بما أتمتع به " (٣) وهذا السبر العميق لأغوار النفس الانسانيّة ، الى جانب الاحساس بمأساوية الحياة ، وتصوير واقع الانسان ، وصراعه مع هذا الواقع ، هو جزء من انسانية الادب أو عالميته ، من جهة ، وهو جزء ، في الوقت نفسه ، من مفهوم جبرا للالتزام ، من جهة ثانية .

أما الخصيصة الرابعة والأخيرة من خصائص هذه المسرحيات فهي بنية هذه المسرحيات المتميّزة ، وقد تجلّى تميّزها في ثلاثة مظاهر :

المظهر الأول : وضوح جدليّة العلاقة بين الأحداث والشخصيات ، فالشخصيات شديدة التأثر بما تواجه من أحداث ، وهي تنمو وتتطوّر تبعا لهذه الأحداث ، وهذه الأحداث منبثقة عن طبيعة هذه الشخصيات ، مما يعطي للعقدة أو الذروة طابع

---

(١) أنظر : مأساة الملك لير .

(٢) أنظر : مأساة عطيل .

(٣) جبرا ابراهيم جبرا : ينابيع الرؤيا ، ص ١٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحيوية والالتحام في البناء العام للمسرحية .

المظهر الثاني : توظيف الأسطورة في البناء العام للمسرحية، والأسطورة هنا تأخذ طابع السحر والكهانة ، كما في " مكبث" ، مثلا . كما أن هذه المسرحيات حفلت بكثير من الأساطير ، والمفهومات الغيبية ، التي شاعت في عصر شكسبير ، وجبرا من المهتمّين ، بتوظيف الأسطورة فنّيّا ، كما أسلفنا .

المظهر الثالث : البحث عن الشكل المسرحي الأمثل ، من خلال بناء هذه المسرحيات ، بمعنى أن شكسبير كان يحاول في كل مسرحية من هذه المسرحيات ، أن يغير بعض الشيء في الاطار العام للبنية ، لعله يقف على الصورة المثلى للبناء المسرحي . ونحن نجد صدى لهذه الطريقة في البحث عن الشكل الأمثل عند جبرا ، وخاصة في رواياته .

وقبل أن نفرغ من الحديث عن أسباب ترجمة جبرا لمسرحيات شكسبير ، لا بد من الاشارة الى أن صورة المرأة في تلك المسرحيات ، صورة غير مشرقة بشكل عام ، ففي " مكبث " كانت ليدي مكبث هي السبب في دفع زوجها الى ارتكاب جريمة قتل الملك . وفي " الملك لير " كانت ابنتا الملك رمزا للجحود والعقوق . وفي " هملت " كانت الملكة متهمة بالتآمر مع عشيقها على قتل شقيقه ، الذي هو زوجها (١) والقصد من اثبات هذه الملاحظة هو وجه الشبه بين صورة المرأة في مسرحيات شكسبير هذه ، من جهة ، وصورتها في روايات جبرا وقصصه القصيرة ، من جهة ثانية . أي أن جبرا وجد في هذه المسرحيات ، صدى لوجهة نظره في المرأة .

أمّا فيما يتعلّق بالقصّة بنوعيها ، الطويلة والقصيرة ، فمساهمة جبرا في هذا المجال ، أقلّ بكثير مما هي عليه في مجال المسرحية ، وذلك أنه لم يترجم في هذا المجال الا رواية " الصخب والعنف " (٢) لوليم فوكنر ، ومجموعة مختارة

---

(١) أنظر المسرحيات الثلاث المشار اليها .

(٢) بيروت ، ١٩٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من القصص الانجليزية المعاصرة . (١) أمّا " الصخب والعنف " فهي واحدة من ثلاث روايات صدرت في الثلث الأول من هذا القرن (٢) . وتركت أثرا واضحا في معظم ما كتب بعدها من روايات . (٣) ولعل اعجاب جبرا الشديد بهذه الرواية ، يرجع الى سببين رئيسيين ، الأول منهما هو التضمين الأسطوري في هذه الرواية ، بمعنى أن الروائي أقام روايته على أسطورة مفادها أن الجنوب الأمريكي ، وهو الولايات الامريكية التي انتعشت على زراعة القطن ، واستخدمت الزنوج رقيقا في هذه الزراعة ، الى أن اندلعت الحرب الأهليّة بين الشمال والجنوب ، هو رمز للشرف والكبرياء ، والمحافظة على التقاليد العريقة ، وأن الشمال الأمريكي ، رمز للرعونة ، والماديّة ، والانحلال الخلقي . وعلى ذلك ، فالحرب الأهلية بين الشمال والجنوب ، هي حرب بين القيم الرفيعة ، والماديات ، وهزيمة الجنوب في تلك الحرب ، هي هزيمة للشهامة ، والشرف ، والاباء ، والشفقة وانتصار لقوى الفساد والانحلال . وهزيمة الجنوب ما هي الا ثمرة خطيئة استرقاق الزنوج في الزراعة .

هذه هي الأسطورة التي تضمنتها الرواية ، وقد وفّق فوكنر في تجسيد مضمونها من خلال تصويره لانحلال أسرة " آل كمبسن " الجنوبية ، وتلاشيها ، ضمن اطار الانحلال العام ، الوافد من الشمال (٤). وجبرا كما قلنا في غير مكان من الصفحات السابقة مفتون بالتضمين والأسطورة ، مما . والثاني منهما ، هو اسلوب وجهات النظر الذي اعتمده فوكنر في روايته هذه . وهذا الأسلوب بالاضافة الى جدّته ، فانه من أكثر الأساليب تحليلا وكشفا عن أعماق شخصيّات الرواية ، وخاصّة ، اذا اعتمدت هذه الشخصيات على التداعي

---

(١) مجموعة من القصص اختارها جبرا ، ووضعها في كتاب تحت عنوان " قصص من الأدب الانجليزي المعاصر " وقد صدرت في بيروت عام ١٩٥٧ .

(٢) الروايتان الأخريان هما " البحث عن الزمن الضائع " لمارسيل بروست و " يوليسز " لجيمس جويس ، وقد صدرتا فيما بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ .

(٣) أنظر مقدمة جبرا لترجمته لـ " الصخب والعنف " ص ١٤ .

(٤) أنظر المصدر نفسه ، ص ص ٩ - ١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتذكّر، في كشفها عن نفسها، ومعرفتها بالحدث. وهذا ما فعلته شخصيات "الصخب والعنف".

ولهذين السببين كان التركيب الفنّي لـ "الصخب والعنف" تركيبا يصفه جبرا بأنه "معجزة من معجزات الخيال" (١). فلا غرو اذن أن تحظى هذه الرواية باهتمام جبرا.

أما الأعمال الأدبية الأخرى، التي تناولها جبرا بالترجمة، والتي لم تكن لها صفة الأعمال الابداعية، بصورة مباشرة، فكثيرة أيضا ومتنوعة، فمنها ما هو في النقد مباشرة ومنها ما هو أقرب الى السيرة منه الى النقد، ومنها ما هو أقرب الى الفكر منه الى أي شيء آخر.

أما تلك التي كانت في النقد الأدبي، فهي الأكثر عددا بين هذه المؤلفات، وهي ستة مؤلفات قيّمة، تضيق طبيعة هذا البحث عن تناولها بالعرض والتحليل ولا يتسع المقام الا لمجرد الاشارة اليها، وهي:

١ - الأديب وصناعته، وهو كتاب يضمّ عشر محاضرات لعشرة من النقاد، يتناول كل واحد منهم جزئية محدّدة من جزئيات الأدب، ويناقشها من وجهة نظره هو في الغالب.

---

(١) مقدمة ترجمة جبرا لـ "الصخب والعنف" ص ١٣.

(٢) وضع هذا الكتاب باشراف روى كاودن، وصدر عن مكتبة منيمنة في بيروت، بالتعاون مع مؤسسة فرانكلين في نيويورك سنة ١٩٦٢. أما النقّاد الذين أسهموا في تأليفه فهم: روبرت مورس لوفت، ومكس ايستمن، وهنري هازلت، وجون كرو رانسوم، ومارن. م. كولم، وسترثرز بيوث، و ج. د ونالد آدمز، و ف. أ. ماثيسن، ومارك فان دورن، وهوراس غريفورن. أما الموضوعات التي تحدّثوا عنها فهي:
الأدب والايمان بالحياة، والأدب في عصر العلم، و الأدب والرأي، والشعر كلغة بدائية، والطريقة الحديثة في الأدب، وزيف الواقعية، ومسؤولية الأديب، ومسؤولية الناقد، وأهمية الشعر الممكنة، والفن الدرامي في الشعر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢- الأسطورة والرمز، وهو كتاب لا يقلّ عن الكتاب السابق أهمّيّة وقيمة، وهو يحوي خمس عشرة مقالة نقدية لخمسة عشر ناقدا، يدور معظمها حول الأسطورة واستعمالها في الأدب، ويتناول بعضها دراسات نقدية تطبيقية لأعمال أدبية، كانت الأسطورة جزءا أصيلا في المحتوى الذي انطوت عليه. (١)

٣- الحياة في الدراما، وهو كتاب يتضمن تحليلا مفصلا ودقيقا لكل عنصر من عناصر المسرحية، والتمثيل المسرحي. وقد عمد المؤلف الى تخصيص فصل كامل منفرد، من فصول كتابه، لكل عنصر من تلك العناصر، مثل العقدة، والحوار، والشخصيّة. وهكذا. (٢)

---

(١) أسهم في تأليف هذا الكتاب خمسة عشر ناقدا هم كاتبو مقالاته الخمس عشرة، وقد صدر عن دار الحرّية للطباعة في بغداد، سنة ١٩٧٣، لأول مرّة.
أما النقاد الذين ساهموا فيه فنذكر منهم على سبيل التمثيل: روبرت. ل. هيلر، وتوماس. جي. ونر، وجون. ت. نوثنال، وهيربرت. س مغيز شمن، والكسندر. س. كيرن، وايقا. م. كشنر. وأما الموضوعات التي تحدّث عنها هؤلاء فهي على التوالي، حسب ترتيب اسمائهم: رمزية الايماء عند الكاتب بريشت، والأسطورة كوسيلة في أعمال تشيكوف، والأسطورة في الخلق الشعري عند أغريبا دوبنييه، والأسطورة والواقع، والأسطورة والرمز في نقد قصة "الدّب" لفوكنر، والطريقة النقدية عند غاستون باشيلار.

(٢) مؤلف هذا الكتاب هو اريك بنتلي، وقد صدر عن المكتبة العربية بالتعاون مع مؤسسة فرانكلين، في صيدا وبيروت ونيويورك، سنة ١٩٦٨.
ومن عناصر المسرحية التي ناقشها الكتاب أيضا: الفكر، والتمثيل، والملودراما، والمهزلة، والمأساة، والتراجيكوميدية، والكوميدية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤. قلعة آكسل (١)، وهو عبارة عن دراسة في الأدب الابداعي الذي ظهر في الفترة الممتدة ما بين عام ١٨٧٠ وعام ١٩٣٠، في الغرب، وهو يتناول هذا الأدب الابداعي من حيث هو تجسيد للاتجاهات والمدارس الأدبية والنقدية التي تمخضت عنها تلك الفترة الزمنية، فهو مثلا، يدرس الرمزية من خلال ما كتبه الأدباء الرمزيون، أمثال: وليم بطلر ييتس (٢) وبول فاليرى، و ت. س. اليوت، ومارسيل بروست(٣) وجيمس جويس (٤). وغيرهم.

٥. آفاق الفنّ. (٥) وهو عبارة عن دراسة لأبرز الاتجاهات الفنّية الحديثة في الغرب، من خلال الأعمال الفنّية التي لاقت شهرة واسعة في العالم.

٦. شكسبير معاصرنا، وهو كتاب يتناول أعمال شكسبير المسرحية بالتحليل والدراسة العميقين محاولا ابراز عنصر المعاصرة والحداثة، في تلك المسرحيات،

---

(١) مؤلف هذا الكتاب هو أدموند ولسن، وقد صدرت ترجمة جبرا له، لأول مرّة، في بغداد سنة ١٩٧٦، وصدرت للمرة الثانية، عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، في بيروت، سنة ١٩٧٩، والباحث اعتمد على طبعة بيروت.

(٢) من مواليد مدينة دبلن في ايرلندا، عام ١٨٦٥م، وهو من أشهر الشعراء الرمزيين، بعد بول فاليرى، ومالارميه، وفيرلن، واليوت.

(٣) أول روائي كبير طبّق المبادئ الرمزية في الرواية، وقد كان ذلك في روايته العظيمة "البحث عن الزمن الضائع".

(٤) صاحب الرواية الشهيرة "يوليسيز".

(٥) مؤلف الكتاب هو الكسندر اليوت، وقد صدرت ترجمة جبرا له في بيروت عام ١٩٦٤، لأول مرّة، ثم صدرت ثانية، في نفس المكان، عام ١٩٧٩. والطبعة الثانية هي المعتمدة في هذا البحث.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتخطّيها لعنصري الزمان والمكان ، بحيث تبدو لنا وكأنها كتبت في عصرنـــــا ، لتصوّر واقعنا نحن لا واقعا مضت عليه قرون من الزمان .

وأما تلك المؤلفات التي ترجمها جبرا ، والتي كانت أقرب ما تكون الـــى الفكر ، منها الى النقد ، فالمقصود بها كتاب " ماقبل الفلسفة " (١) وكتاب " أدونيس" (٢) ففي الكتاب الأول استعراض لتصوّرات الانسان في بلاد مصر والرافدين ، عـــن الخالق والكون والانسان ، والعلاقة التي تربط بين الانسان وخالقه من جهـــة ، والانسان والطبيعة من جهة أخرى ، أن أن هذا الكتاب يستعرض الأساطيـــر والمعتقدات ، والتصوّرات التي عرفها الانسان في تلك البلاد . وهو كتاب قيّـــم جدا رغم ما فيه من صعوبة . وفي الكتاب الثاني استعراض ، وتحليل دقيقيـــن لأسطورة تمّوز أو أدونيس ، التي عرفتها الأقوام التي سكنت سوريا الكبرى ، منـــذ القدم ، ومتابعة لصورة هذه الأسطورة ، وأشكالها لدى الأقوام الأخرى ، التـــي عرفتها منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط .

(١) مؤلفو الكتاب هم : هـ. فرانكفورت ، و هـ . أ . فرانكفورت ، و جون . أ . ولسون ، وتوركيلد جاكسون ، وقد راجع ترجمة جبرا له ، الدكتور محمود الأمين ، وقـــد صدرت هذه الترجمة في بغداد سنة ١٩٦٠ .

(٢) مؤلف الكتاب هو جيمس فريزر ، وقد صدرت ترجمة جبرا له ، لأول مرّة ، عـــن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، في بيروت ،عام ١٩٥٧ .
وصدرت الطبعة الثانية لهذه الترجمة ، في المكان نفسه ، عام ١٩٧٩ وهو عبارة عن جزء من كتاب كبير يقع في عدّة مجلدات ، هو " الغصن الذهبـــي " للسير جيمس فريزر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي مجال المؤلفات التي أقرب ما تكون الى السيرة ، ترجم لنا جبرا ثلاثة كتيبات صغيرة ، هي " البيركامو " (١) ، و " روبرت فروست " (٢) ، و " وليم فوكنر " (٣) . وهذه الكتيبات تستعرض سيرة حياة الأشخاص الذين تحمل إسماءهم وتلمّ ببعض أعمالهم الأدبية المشهورة المأما سريعا .

وبالاضافة الى عمل جبرا في ترجمة هذا العدد الكبير ، نسبيا ، من المؤلفات ، بنفسه ، فقد أشرف على ترجمة كتاب " ثلاثة قرون من الأدب " (٤) وهو كتاب يقع في ثلاثة أجزاء كبيرة ، ساهم في تأليف كل جزء منها عدد من كبار الكتّاب الغربيين ، وقد قام بترجمة كل جزء من هذه الأجزاء عدد من الكتّاب العرب .

---

(١) مؤلف الكتاب هو جيرمن برو ، وقد صدرت ترجمة جبرا له ، لأول مرّة في بيروت عام ١٩٦٧ .

(٢) مؤلف الكتاب هو لورنس طومبسن ، وقد صدرت ترجمة جبرا له لأول مرّة في بيروت ، عام ١٩٦١ .

(٣) مؤلف الكتاب هو وليم فان أوكونور ، وقد صدرت ترجمة جبرا له لأول مرة في بيروت ، عام ١٩٦١ .

(٤) ساهم في تأليف الجزء الأول من هذا الكتاب كل من : بنجامين فرانكلين ، وتوماس بين ، وادغر ألن بو ، وآخرون . وساهم في ترجمته كل من : يوسف الخال ، وفخري خليل ، وبدر شاكر السيّاب ، ونجيب المانع ، وفاروق محمد يوسف . وراجع ترجمته الدكتور عبد الواحد لؤلؤة . وساهم في تأليف الجزء الثاني من هذا الكتاب كل من : أمرسن ، وثورو ، وملفيل ، وويتمان ، ومارك توين ، وآخرون . وساهم في ترجمته كل من : يوسف ابراهيم جبرا ، والدكتور عبد الواحد لؤلؤة ، ونجيب المانع ، وفريد نانو ، وعبد الوهاب الوكيل ، وفاروق محمد يوسف . وراجع ترجمة عبد المطلب عبد الرحمن . وساهم في تأليف الجزء الثالث كل من : هنري جيمس ، وهنري آدمز ، وثيودور دريزر ، وآخرون . وساهم في ترجمته كلّ من : د . عبد الواحد لؤلؤة ، وفاروق محمد يوسف ، ومحمد عصفور ، ويوسف ابراهيم جبرا ، ومريم عبد الباقي . وراجع ترجمته عبد المطلب عبد الرحمن .

وقد صدرت هذه الترجمة عن دار مكتبة الحياة في بغداد بالتعاون مع مؤسسة فرانكلين في نيويورك . بدون تاريخ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن خلال كل ما تقدّم من حديث عن سيرة حبرا وآثاره الأدبية ، نخلص الى أننا أمام شخصيّة خصبة التجارب ، متنوعة الميول والمواهب ، والى أننا أمام أديب واسع الثقافة ، وثيق الصلة بالآداب الغربية ، غزير الانتاج ، متنوعه . وهذا يجعلنا نؤمّل أن تكون أعماله القصصية ، التي نحن بصدد دراستها ، في غاية الروعة ، والاتقان ، والعمق .

××××××××××××××××××××

××××××××××××××

××××××

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦٧٥٧٤٤c

الفصـــــــــل الثانـــــــــي

****

المضاميـــــــن والـــــــــرؤى

****

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

محتويـــــــات الفصـــــل

****

أولا : الرؤيـــــــة المتفائلـــــــــــة .

ثانيا : الرؤيـــــــة المتشائمـــــــــة .

ثالثا : الرؤيـــــــة الـفائمـــــــــة

××××××××××××××××

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المضامين والرؤية

****

قلنا في الفصل السابق انّ **المدينة** العربية بملامحها الجديدة هي القضية الكبرى في أدب جبرا الابداعي ، يستوي في ذلك الشعر والقصّة بنوعيها ، الطويلة والقصيرة .

وقد صوّر لنا جبرا في شعره بعض ملامح انسان هذه **المدينة** بما يعاني من قلق واغتراب وخواء روحي ، الا أنّ طبيعة الشّعر لم تكن تسمح له بتفصيل القول في هذا الموضوع المتشابك الجوانب ، المتداخل الأجزاء ، فالشّعر لغة الايماض والتكثيف كما نعرف ، ولذلك لجأ جبرا في أول الأمر الى القصّة القصيرة لعلّه يجد فيها متسعا للتفصيل في موضوعه الكبير ، الا أنّه لم يجد فيها السعة التي كان ينشدها ، فانصرف الى الرواية حيث السّعة والقدرة على استيعاب التفصيل والتحليل .

ولذلك فقد اكتفى جبرا بتضمين شعره الملامح الجديدة للمدينة العربية ، وهي ملامح يمكن للأديب أن يتبيّنها بشيء من اليسر لظهورها على السطح ، بينما خصّ القصّة القصيرة والرواية بالبحث عن الأسباب والمؤثرات الخفيّة التي تحتاج الى تبصّر وانعام نظر . وهذا ينسجم مع طبيعة الشعر من جهة ومع طبيعة القصّة القصيرة والرواية من جهة اخرى .

ما الذي يقضّ مضجع العربي في هذا القرن ؟

هذا هو السؤال الذي حاول جبرا أن يجيب عليه في فنّه القصصي . في الشعر حاول تشخيص العلّة أو تصويرها من الخارج ، وفي القصّة حاول أن يبحث عن الأسباب وأن يطرح رؤية أكثر وضوحا ودقّة من تلك التي طرحها من خلال الشعر .

ولعله كان مصيبا حين وضع أصبعه على فكرة " التحوّل " (١) من الماضي الى الحاضر والمستقبل ، من القديم الى الجديد التي يعيشها المجتمع العربي . هنا سرّ القلق والاضطراب والضياع الذي يعاني منه العربي في هذا القرن . العربي

---

(١) محمد شكري عيّاد ، مجلة عالم الفكر ١٩٧٢ ، عدد ٣ ، ص ٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في هذا القرن تتنازعه قوّتان كبيرتان : قوة الماضي بكل موروثاته من عادات وتقاليد وقيم . وقوة الحاضر بكل معطياته المنبثقة من الداخل ، والوافدة من الخارج . والمستقبل لا سبيل الى تحديده الّا بانتصار احدى هاتين القوّتين على الأخرى . وما دام هذا الصراع قائما على ما هو عليه من حدّة وقوة ، فان الاضطراب ، والقلق على المستقبل ، سيظلان يلاحقان الانسان العربي أينما وجد .

لكن أين يقف جبرا من هذا الصراع ؟ وبعبارة أخرى ما هي النتيجة التي يتنبأ جبرا ، أن يسفر عنها هذا الصراع ؟

هنا لا بد من الاعتراف بأن الرؤية التي يطرحها جبرا تبدو مضطربة ، ومتناقضة في بعض الأحيان ، فقد نجده يغلّب الماضي القديم ، على الحاضر الجديد ، في هذه القصّة أو تلك ، في حين أنه قد يفعل العكس تماما في قصّة أخرى . وقد يطرح في قصّة ثالثة رؤية تختلف تماما عن رؤيتيه السابقتين . ولذلك فاننا نستطيع أن نميّز في قصصه ثلاث رؤى مختلفة .

أولا : الرؤيـــة المتفائلـــة :-
==========

وهي الرؤية التي يبشّر جبرا من خلالها بانتصار الحاضر أو الجديد على الماضي أو القديم . وقد تجلّت هذه الرؤيـــة المشرقة بوضوح في روايتيه " صراخ في ليل طويل " ، و " صيّادون في شارع ضيّق " ، وفي عدد من قصصه القصيرة .

في " صراخ في ليل طويل " جسّد جبرا رؤيته المتفائلة تلك في ثلاثة مواقف رئيسية ، جاءت متتابعة لتؤكد عمق ايمانه بالغد المشرق ، ففي الموقف الأول تتمرّد الفتاة سميّة ، ابنة التاجر الثري سليمان شنّوب ، على ارادة أهلها في أمر زواجها فأمّها تريد لها زوجا ثريا ، ينتسب الى أسرة مرموقة ، ذات حسب ونسب ، الا أنّ الفتاة تحب أمين سمّاع ، وهو ابن لاحدى الأسر القروية المتواضعة ، لا يملك الا ما يكسبه من خلال عمله في احدى الصحف ، ومن خلال ما تعود عليه به

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعض مؤلفاته الأدبية التي ينشرها ، وتصادف قبولا لدى القرّاء . وعندما يتقدّم أمين هذا لطلب يد سميّة من أهلها ، تواجهه الأم بمنتهى الجفوة والرفض والاحتقار ، بل انها لا تتورّع عن شتمه وطرده من البيت ، وذلك لأنه لا حسب له ولا نسب . ولا تكتفي الأمّ بهذا بل تتوجّه باللوم والتقريع لابنتها التي فكّرت بالزواج من رجل على تلك الشاكلة " المثل هذه الساعة ربّيناك وأنفقنا على تعليمك وتهذيبك؟ لكي تأتي الينا بمثل هذا الرجل الذي لا يعرف أحد حسبه أو نسبه الى بيت أبيك وتصبّري على الزواج منه ؟ما الذي سيقوله الناس عنّا" (١) . وهنا تصرخ الفتاة في وجه أمها ، بكل تحدّ واصرار وايمان " ماذا يهمني ما يقوله الناس اذا تزوجت من الرجل الذي أحبّه ؟ (٢) . وبعد جدال وشجار عنيفين بين أمين وسميّة من جهة ، والأم والأب الضعيف من جهة أخرى ، تقرر سمية أن تتحدى ارادة والديها ، وأن تخرج مع أمين في تلك الساعة ، لتعيش معه في بيته ، زوجة له ، دون اقامة طقوس الزواج ومراسيمه ، وفي الحال تحزم أمتعتها وتخرج مع أمين ، تاركة والديها في سخطهما ووعيدهما .

واضح أن أمّ سميّة تمثّل القديم بما فيه من مفاهيم الحسب والنسب ، والجاه والثراء ، وأن سميّة تمثّل الجديد ، وما فيه من مفاهيم جديدة تتحدى القديم . وقد تعمّد جبرا أن يجعل سميّة تتخذ هذا الموقف ليشير الى حيوية الحاضر ، وقدرته على الفعل من جهة ، والى ضعف القديم وتداعيه من جهة أخرى : فأمّ سميّة وأبوها لم يجدا الا الاستسلام ، والسكوت على ما فعلت ابنتهما ، وهذا دليل على ضعفهما . صحيح أن موقف سميّة يبدو نادر الحدوث في المجتمع العربي

---

(١) جبرا ابراهيم جبرا : صراخ في ليل طويل ، دار الاداب ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٧ .

(٢) المكان نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في النصف الأول من هذا القرن ، ولكن القاص لا يقرر واقعا بمقدار ما يطرح رؤية مستقبلية .

وفي الموقف الثاني يتمرّد أمين على ماضيه ، ويرفضه ، رغم حبّه الشديد لذلك الماضي : فبعد أن تزوّج من سمية ، وقضى معها أياما جميلة ، فوجئ بها ذات يوم تهجره ، وتترك البيت الى مكان غير معلوم . وكل ما يذكره أمين أنه عاد الى بيته ذات ليلة ماطرة ، بعد أن كان في زيارة صديق قديم له ، ليجد أن سميّة قد تركت البيت ، وذهبت في سبيلها دون أن تترك له أي تفسير لفعلتها تلك ، ودون أن تخبره بالمكان الذي توجهت اليه . وانما تركت له وريقة زرقاء ، مكتوب عليها أن سمية تركت البيت من تلقاء نفسها (١) . وامام هذه الحادثة الكبيرة تظلم الدنيا في وجه أمين وتتحوّل حياته الى جحيم لا يطاق . وتمرّ عليه سنتان من الذهول والانتظار ، لعل سميّة تعود اليه ذات ليلة ماطرة كما فعلت عندما هجرته . سنتان وهو يحاول أن يشغل نفسه عن سميّة ، بالعمل في الجريدة بالعمل في تأليف كتاب لمنايات هانم عن أحداثها ورجالات أسرتها العريقة ، بأي شيء كان ، ولكن صورتها ظلت تلاحقه ، وتفسد عليه صفو حياته . وفي ليلة ماطرة أخرى كتلك التي هربت فيها سميّة يعود أمين الى بيته ، وما يكاد يستسلم للنوم حتى يحس بجسد سمية الى جانبه في السرير . ظن في البداية أنه في حلم ، ولكنه ما لبث أن تبيّن أنه أمام حقيقة ملموسة ، فقد احتفظت سميّة بمفتاح البيت معها ، وها هي اليوم تعود ، وكأن شيئا لم يكن . غير أنّ أمينا ، رغم حبّه الشديد لسميّة ، وتمرّقه للقائها ، يرفضها هذه المرّة ، بل انه يطردها ، وهي تتشبث به مستعملة كل وسائل الاغراء التي تلجأ اليها المرأة في مثل

---

(١) أنظر : صراخ في ليل طويل ، ص ٥٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه الحالة ، يمسكها بكل قوته محاولا القاءها خارج البيت ، لولا أنها ترتمي على الأرض وتلتف على ساقيه كالأفعى . (١)

وواضح من هذا أن القاص يرى أن سمية أصبحت جزءا من ماضي أمين ، وهذا الماضي أصبح بالنسبة له كابوسا لا يطيق مجرد التفكير فيه ، لأنه يقيده ، ويفسد عليه حاضره " لماذا عدت وأفسدت علي كل شيء " (٢) .
سمية في المرحلة الأولى كانت رمزا للحاضر الجديد بكل حيويته وقوته ، ولكنها اليوم أصبحت رمزا للماضي بكل شحوبه وذبوله ، ولذلك فهو يرفضها " أنظري الى نفسك : صفراء كالموت ، ذابلة كالموت . ولست أريد الموت بعد اليوم " (٣)

أما الموقف الثالث ، فتبدو فيه رؤية القاص أكثر وضوحا وشموليّة ، فثورة ركزان على الماضي لم تقف عند حدّ التخلي عنه أو التعامل معه بفتور ، وانما تعدّت ذلك الى حرق هذا الماضي والتخلّص نهائيا . عنايت هانم وركزان اختان جاوزتا الأربعين من العمر ، وهما تنحدران من أسرة أرستقراطيّة ، تمتد جذورها الى أيام صلاح الدين الأيوبي ، فقد كان جدّ الأسرة عز الدين ياسر أحد قوّاد صلاح الدين ، وهذه الأسرة أصابت شيئا من النفوذ في عهد العثمانيين ، ومحمد على باشا ، ونابليون بونابرت ، وكان لها ثروة كبيرة . الا أن هذه الأسرة لم يبق منها الا هاتان العانسان ، عنايت الكبرى ، وهي مهتمّة جدا بتدوين تاريخ الأسرة والمحافظة عليه ، ولذلك كلّفت أمين سمّاع هذا بكتابة تاريخ أجدادها لقاء ألفين من الجنيهات . وركزان وهي تكره كل ما يمتّ لتاريخ هذه الأسرة بصلة ، كما أنها على قدر من الجمال ، لولا أن طيشها يجعلها تتورّط في كثير من العلاقات الغراميّة . وأثناء اختفاء سمية كان أمين يتردد على قصر آل ياسر

---

(١) أنظر صراخ ٠٠ ، ص ص ٩٠ - ٩٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠١ .
(٣) المكان نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليكتب مع عنايت تاريخ أجدادها . وفي هذا الأثناء عاجل الموت عنايت، فمضت تاركة وصيتها باكمال كتابة ذلك التاريخ ، ودفع الأجرة المقررة لأمين . غير أن ركزان لم تنفذ الوصية ، بل استدعت ذلك الشاب ، وحرقت أمامه الأوراق والسجلات التي تحتوي تاريخ الأسرة ، وبعد أن شكت له من شعورها بالوحدة . والضيق من العيش في ذلك القصر الكبير ، عرضت عليه أن يتزوجها ، الا أنه تردد في ذلك (١) .

ركزان تريد أن تتخلّص من الماضي على مستويين :
المستوى الأول ، وهو المتصل بها مباشرة ، فهي تريد أن تتزوج وتستقرّ ، فتتخلّص بذلك من ظلال ماضيها الحافل بالسهرات والنزوات والعشاق . والمستوى الثاني وهو المتصل بأسرتها المتجسّد في ذلك القصر الكبير ، وفي تلك السجلات والملفّات التي تحتوي ذكريات أجدادها وسيرهم ، عن طريق حرق تلك السجلات والأوراق ، وتفجير أو نسف ذلك القصر الذي لم يعد يعني لها الا الموت والجمود " هذا القصر المتباعد الاطراف كله لي ـ ولست أريده . لي عدّة آلاف من الفدادين في القرى المجاورة ـ ولست أريدها . عندي كل هذه الأوراق والبقايا هنا وفي الغرف السفلى ـ ولست أريدها ، ليست هذه الا ملحقات الماضي وأدوات رينته ، انها سرابيل الموت . . . .
أما ما اريده الآن فهو الحاضر . أريد حاضرا حيّا طليقا " (٢)

مما تقدّم يمكن القول ان رواية " صراخ في ليل طويل " أكثر روايات جبرا تجسيدا لقضية الصراع بين القديم والجديد ، الماضي

---

(١) أنظر : صراخ . . . ، ص ص ٧٦ - ٨٦ .
(٢) صراخ . . . ، ص ص ٨٠ - ٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحاضر . (١) ولعل الرؤية المتفائلة التي تطرحها هذه الرواية ، والتي لم يكن المجتمع العربي يقبلها في النصف الأول من هذا القرن ، هي التي جعلت القاص يكتب تلك الرواية باللغة الانجليزية من جهة ، وجعلته يؤجّل نشرها تسع سنوات بعد كتابتها من جهة أخرى . (٢)

أما عن الصراع بين القديم والجديد ، والتنبؤ بانتصار الجديد في روايات جبرا الأخرى ، فأوضح صورة نجد عنا له هي تلك الصورة التي تضمّنتها روايته

---

(١) أنظر : د . أحمد عطية أبو مطر : الرواية في الأدب الفلسطيني ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ص ٥٥ - ٨٣ .

- د . ابراهيم السعافين : تطوّر الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام ، منشورات وزارة الاعلام العراقية ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ٣٢٨

- مقالة عبد الرحمن أبو عوف : غربة الفلسطيني ، مجلة الهلال / يناير / ١٩٧٧ ص ص ١٥٢ - ١٦٢ .

- مقالة حسن نافع الديلمي : صراخ في ليل طويل رواية لجبرا ابراهيم جبرا ، مجلة الآداب / ك ١ / ١٩٥٥ ، ص ٥١ .

- سلمى خضراء الجيّوسي : صراخ في ليل طويل ، مجلة الأديب / ديسمبر / ١٩٥٥ ، ص ص ٥٧ - ٦٠ .

- مقالة عبد الملك نورى : صراخ في ليل طويل ، مجلة الأديب / ديسمبر / ١٩٥٥ ، ص ص ٥٦ - ٥٧ .

- مقالة فاروق عبد القادر : صراخ في ليل طويل ، مجلة قضايا عربية / اكتوبر / ١٩٧٤ ، ص ص ٧٦ - ٨١ .

- مقالة الياس خوري : صراخ في ليل طويل ، مجلة شؤون فلسطينية ، مارس / ١٩٧٥ ، ص ص ١٧١ - ١٧٣ .

- مقالة علي الراعي : صراخ في ليل طويل ، مجلة العربي / فبراير / ١٩٨٠ ، ص ص ٥٠-٥٤

(٢) ذكر لي جبرا نفسه أنه كتب هذه الرواية باللغة الانجليزية في عام ١٩٤٦ ، ثم أنه ترجمها الى العربية في عام ١٩٥٥ . ونشرت ترجمتها العربية في ذلك العام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثانية " صيّادون في شارع ضيّق " (١).

في هذه الرواية يأخذ ذلك الصراع طابعا أكثر تحديدا ومباشرة منه في الرواية الأولى ، فهنا تنقسم الشخصيات الى فئتين : فئة تمثّل الحاضر المتطلّع نحو المستقبل ، ومن أبرز شخصيات هذه الفئة : عدنا الطالب ، وسلافة النفوس ، وحسين مردان ، وعبد القادر ياسين ، وجميل فرّان ، بطل الرواية كما يبدو في الظاهر ، (٢) وطلبة الكلية التي يدّرس فيها جميل هذا . وفئة تمثّل القديم ، وتتمسّك به ، ومن أبرز شخصيّات هذه الفئة : عماد النفوس ، وهو والد سلافة ، وسلمى الربيضي خالتها ، وأحمد الربيضي ، وهو زوج سلمى ، وتوفيق الخلف ، ورجال الشرطة والجيش ، الذين تستخدمهم السلطة لقمع طلبة الكلية المتظاهرين ، وعبد خانم سلافة ، وسجّانها في الوقت نفسه .

جميل فرّان مدرس الأدب الانجليزي في احدى الكليات في بغداد ، فلسطيني اضطرته مخلّفات النكبة الى الهجرة الى العراق ليعمل هناك ، ويدفع عن أسرته شبح الفقر . وما ان يصل الى بغداد حتى يتعرّف الى عدد من المثقفين الذين كان يلتقي بهم في شارع الرشيد ، أو في الكلية التي كان يدرّس فيها ، أو في أحد مقاهي المدينة أو مشاربها ، ولم يلبث أن تعرّف الى حسين عبد الأمير ،

---

(١) هذه الرواية أيضا كتبها حيدر باللغة الانجليزية ، ونشرت في لندن عام ١٩٦٠ ، بالانجليزية . وفي عام ١٩٧٤ ترجمها محمد عصفور الى العربية ، ونشرت ترجمتها العربية في بيروت في ذلك العام .

(٢) جميل فرّان هو الراوي الذي يسرد أحداث الرواية ، ولذلك توهّم بعض الذين كتبوا عن هذه الرواية ، بأنه هو بطلها ، والصحيح أن عدنا الطالب هو البطل . لمزيد من التفصيل انظر مقالة الدكتور محمد عصفور : صيّادون في شارع ضيّق ، في مجلة الآداب/ حزيران/ ١٩٧٤ ، ص ص ٣٨ - ٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو شاب شاعر له رؤية بوهيمية في الحياة والفن . وهذا الشاب يعرّف جميلا على صديق له على شاكلته هو عدنان الطالب . ثم يتعرّف بعد ذلك الى عدد من الشباب، أمثال : عبد القادر ياسين ، اليساري المتطرّف، وصديقه أو ظله على الأصح ، كريم ، وتوفيق الخلف، خريجي كلية الحقوق الذين يصرّ على معاداة المدينة ، ولمس الحضارة الجديدة ، والدعوة الى العودة الى حياة البادية البسيطة ، ويحالف الحظّ والتوفيق جميلا في عمله في الكلية ، مما يمهد له سبيل التعرف الى بعض الأسر المرموقة هناك ، مثل أسرة عماد النفوس ، وأسرة أحمد الربيضي ، فقد استدعي ذات يوم ، بواسطة صديقه عدنان الطالب الى بيت سلمى الربيضي ، زوجة أحمد الربيضي ، عضو مجلس الأعيان . وتفاهمت معه هذه السيدة على أن يقوم باعطاء بعض الدروس في الأدب الانجليزي ، لابنة اختها ، سلافة ، التي يرفض والدها ارسالها الى الكلية للتعلم ، خوفا من أن تختلط الشباب ، مع أنه كان وزيرا في احدى حكومات العهد السابقة ، وله بعض المؤلفات والكتب القيمة . (١)

وبالرغم من النجاح الذي يحققه جميل فرّان على صعيد العمل ، الا أنه يظل يحمل في داخله صورة النكبة الفلسطينية ، بل أهوالها ومصائبها ، وتظل تلاحقه صورة حبيبته ليلى شاهين التي نسف الصهاينة بيت أهلها في القطمون (٢) على من فيه ، لتفسد عليه أية محاولة للنسيان . يد ليلى التي رآها بأم عينه تطلّ من تحت ركام البيت المنسوف ظلّت تلاحقه في بغداد ، وتحول بينه وبين الانسجام مع المجتمع الجديد . وأثناء تدريسه لسلافة تنشأ بينه وبينها علاقة حب كبيرة . تردد جميل ، في البداية ، بالاستجابة لعواطفه ، فيد ليلى ما زالت تملأ وجدانه ، وعبد خادم الفتاة يجلس معهما في غرفة الدرس، ليرصد أية

---

(١) صيّادون في شارع ضيّق ، بيروت، ص ص ٧٠ - ٨٣ .

(٢) من أجمل أحياء مدينة القدس .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حركة أو كلمة تصدر عن أي واحد منهما . والأصعب من ذلك كله أن جميلا تورّط رغما عن نفسه في علاقة مع سلمى خالة سلافة ، وقد اختلى بها عدّة مرات ، في شقّة لزوجها كانت مؤجرة لعائلة أمريكية ، عادت الى بلادها . (١) ولكن تشجيع سلافة له جعله يتخطّى كل هذه الحواجز ، ويبادلها الحبّ نفسه . وبعد مدّة يكتشف عبد تلك العلاقة البغرامية بين سيدته وأستاذها ، ولذلك تسوّل له نفسه أن يستغلّ غياب أهل سلافة عن البيت ، ويداهم غرفتها ، محاولا اغتصابها ، الا أن القدر يحول دون ذلك ، فتعود العائلة الى البيت في اللحظة المناسبة ، وتخلّص الفتاة من قبضة عبد ، ويلوذ هو بالفرار ، وفي اليوم التالي يجدون جثته على ضفة النهر ، حيث غرق وهو يحاول عبوره سباحة ليبتعد عن متناول قبضة سيّده . (٢)

وذات يوم يفاجأ جميل بسلافة تدخل عليه شقّته ، وهناك تخبره بأنها هاربة من أهلها ، لأنهم يريدون تزويجها من توفيق الخلف ، ذلك الفظّ الذي لا يرى فرقا بين سلافة وأية سلعة من الماعز التي يقتنيها . وتخبره أن أباها يريد تزويجها من توفيق هذا لأنه لا يستطيع ردّ طلب للشيخ عبد الله الخلف والد توفيق ، فهو عضو في مجلس الأعيان ، وشيخ لقبيلة كبيرة العدد ، واسعة النفوذ ، تستطيع أن تسيطر في ساعات قلائل على أراضيه ومزارعه القريبة من مقاربها . وتخبره أيضا أنّ أحمد الربيضي وزوجته سلمى ، يسعيان جاهدين لاتمام هذا الزواج ، كسبا لودّ قبيلة الخلف التي هزمت آل الربيضي في صراع نشب بينهما على الأرض قبل ثلاث سنوات . (٣)

---

(١) صيّادون ... ، ص ١٧٢ .

(٢) صيّادون ... ، ص ص ٢١٩ - ٢٢١ .

(٣) صيّادون ... ، ص ٢١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمام هذه الحادثة فقط يأخذ جميل دور الطرف الفاعل ، المؤثر في الأحداث ، ويتخلّى عن دور المتفرّج الذي اكتفى به من بداية الرواية ، فيتصل بتوفيق ويحضره الى شقّته ، ويطلعه على ما بينه وبين سلافة من حب متبادل ، ويخبره أن سلافة تنوي أن تقتله وتنتحر ، اذا هو أصرّ على الزواج منها ، أو حاول الاقتراب منها في ليلة العرس الموعودة . وهنا يقتنع توفيق ، ويقف موقفا نبيلا ، فيعلن أنه يتراجع عن رغبته في الزواج من تلك الفتاة ، وأنّه يتمنّى لها حياة سعيدة مع من تحبّ . وبعد ذلك يتّصل جميل بسلمى لتحضر الى شقته ، وتأخذ سلافة الى بيتها . (١)

وفي هذه الأثناء كان والد سلافة يحتضر بالنوبة القلبية التي عاودته بسبب هرب ابنته واختفائها .

أما عدنان وحسين فقد كانا يقومان بمحاولة للانتحار بالقاء نفسيهما في النهر ، ولكن محاولتهما فشلت ، وأنقذا . وبعد ذلك يتوجّه عدنان الى أحد المشارب فيشرب حتى يثمل ، ثم يتوجّه الى بيت عمّه (٢) عماد النفوى ، وبعد أن يقتحم البيت على عمّه ، تدور بينهما مشادّة كلاميّة حادّة ، تنتهي بموت العمّ وكفّ ابن أخيه تطبقان على عنقه :-

---

(١) صيّادون .. ، ص ص ٢٧٧ — ٢٣١ .

(٢) عدنان هو ابن العقيد طالب النفوى ، شقيق عماد النفوى ، وقد اعتدى على الخادمة فطرده أبوه من البيت ، فتشرّد في الشوارع وقطع كل صلة له بأسرته ، بل انه كان يخفي صلته بعماد النفوى حتى على أقرب المقربين اليه بعد وفاة أبيه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"- اسمع يا عدنان ، أنا رجل مريض .
- أعرف أنك مريض . حتى حين كنت في ذروة الصحة كنت مريضا .
- هل أتيت هنا لاهانتي ؟
- كان يجب أن أفعل هذا قبل وقت طويل . لكنني لن أهينك الآن بل سأقتلك " (١) .

وهنا يخور عزم العجوز ، ويسقط في مقعده جاحظ العينين ، منهار الأعصاب ، فيتقدّم منه الفتى عدنان ، ويأخذ برقبته بين يديه ، وهو يلقنه بهذه الكلمات :-

" كنت مريضا طوال حياتك ، لكنك لم تكن ضعيفا قطّ . كنت أقوى مما يجب بالرغم من مرضك . أنت النصف الآخر من حياتي الذي صارعته دائما . أنت الشر . القوة التي تقول دائما : لا ، الطين ، القذارة ، روث الدهور المحفوظ في ثياب حريريّة خلف جدران لا تقتحم " (٢) .

وما إن يمد أعدنان بالضغط بيديه على عنق ذلك العجوز ، حتى يجد أنه قد مات بيسر وتلقائية .

وواضح من خلال هذا الملخّص الشديد الإيجاز لأحداث الرواية ، أنّ صورة الصراع بين الماضي والحاضر هي الصورة المهيمنة على الرواية ، فسلافة رمز للحاضر ، وهي تصطرع مع لبيبها الذي هو أحد رموز الماضي الكبيرة . وتوفيق رمز من رموز الماضي ، وهو على خلاف دائم مع مجموعة الشباب :
عدنان وحسين وعبد القادر وكريم ، الذين هم من رموز الحاضر . وسلمى رمز من رموز الماضي ، وهي تنافس سلافة في الفوز بقلب جميل وحبّه . وهكذا .

---

(١) صيّادون ... ، ص ٢٥٣ .
(٢) المكان نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكن النتيجة التي يسفر عنها ذلك الصراع هي انتصار الحاضر الجديد على الماضي القديم، الذي يتداعى ويتهاوى تلقائيا أحيانا، وتحت ضربات الحديد أحيانا أخرى.

سلمى تنافس سلافة على جميل، وتكون النتيجة لصالح سلافة، اذ ينهي جميل علاقته بسلمى، وينصرف كليا الى حبّ سلافة، وفي هذا مؤشر الى انتصار الجديد المتمثّل في سلافة على القديم المتمثل في سلمى. وسلمى متداعية من الداخل، ويكفي دليلا على ذلك خيانتها لزوجها. وأحمد الربيضي يكفيه تداعيا وضعفا خيانة زوجته له، وهو بعد ذلك يسقط في اول مواجهة له مع أحد رموز الحاضر، فحين يستدعى جميلا الى بيته ليأمره بالابتعاد عن سلافة بعد موت أبيها، لا يجد من وسائل الاقناع الا تهديده باستخدام نفوذه لطرده من عمله، وتحميله جريرة التسبب في قتل فتاة، قتلها أخوها لأنها حملت من عشيق لها، وكان جميل بالصدفة ينزل في الفندق الذي يملكه والد تلك الفتاة. (١) وحين يحتدم النقاش بينه وبين جميل يزرقّ لونه، وينهض بعصبية، فتسقط الكأس التي أمامه على الأرض متناثرة أشلاء. وفي هذا اشارة خفيّة الى نهايته المحتومة. بل ان جميلا يصرّح بذلك على لسان جميل، اذ يقول "كان الربيضي قد بدأ يسقط. نظام كامل من الأشياء أخذ يسقط" (٢).

أما عبد وهو رمز من رموز الماضي الغنيّة بالايحاءات، فقد أثبت ضعفه وتداعيه في ثلاث مرات: في المرّة الأولى فشل في الحيلولة دون قيام علاقة بين سيدته وأستاذها، عدا علاقة التلميذة بالأستاذ.

وفي المرة الثانية فشل في محاولة اغتصاب سلافة في غياب أهلها عن البيت. وفي المرّة الثالثة فشل في محاولة عبور النهر سباحة، لينجو من مطاردة سيده له،

---

(١) صيّادون ...، ص ص ٢٥٨ — ٢٦١.

(٢) صيّادون ...، ص ٢٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليعاقبه على جريمته ، وكانت هذه المحاولة الثالثة هي نهاية حياته ، فمات غريقا .

وأما عماد النفوس ، وهو أبرز رموز الماضي وأقواها فقد فشل في محاولة ابعاد ابنته سلافة عن الاحتكاك والاختلاط بالشباب ، عن طريق حبسها في البيت ، وهاهي تقيم علاقة حب مع أستاذها ، كما أنه فشل في محاولة ارغامها على الزواج من توفيق الخلف ، وهاهو أخيرا يموت بنوبة قلبية ، وكأنه ينتهي من تلقاء نفسه .

وأخيرا توفيق الخلف ، ذلك الشاب المثقف المتعلم ، الذي يصرّ على التعلق بحياة البادية ، هو أيضا رمز من رموز الماضي وسدنته ، وها هو يفشل في محاولة الزواج من سلافة ، رغم نفوذ والده ، وسطوة عشيرته .

وفي اللحظة التي يتهاوى فيها الماضي ، وتنهار رموزه يتوهّج الحاضر ، وتثبت رموزه قدرتها على الفعل والنجاح . سلافة نجحت في التمرّد على حبس أبيها لها وأحبّت جميلا ، ونجحت في التخلص من قبضة عبد حين داهمها محاولا اغتصابها ، ونجحت في التخلص من الزواج من توفيق ، وأخيرا نجحت في اتمام زواجها من جميل .

وجميل استطاع أن يتخلّص من صور ماضيه في فلسطين ، التي ظلت تلاحقه أينما توجّه ، فهو يتخلّى في النهاية عن الانغلاق على ذكرياته الموجعة ، ويقتلع صورة يد ليلى من ذاكرته ، لتحل محلّها صورة وجه سلافة . وعدنان وحسين لم يفلحا في محاولة الانتحار التي قاما بها ، وفي فشلهما في هذا العمل السلبي مؤشر على القوة الكامنة فيهما ، التي تحول دون اتمام رغبتهما في الانتحار ، وذلك لأنهما ضروريان للحياة ، وقادران على الاستمرار الايجابي فيها . وطلبة الكلية المتظاهرون استطاعوا أن يثبتوا قدرتهم على مواجهة رجال الشرطة والجيش أداة السلطة المستبدة التي يمكن اعتبارها أحد رموز الماضي الكبيرة . والشرطي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القنّاص الذي كان يكمن بين فروع احدى الأشجار في ساحة الكلية ، ويصب الرصاص من رشاشه على الطلبة المتظاهرين ، وصلت اليه من أحد البيوت المجاورة أربع رصاصات أو خمس ، واستقرّت في جسده ، فسقط كالثمرة الناضجة على الأرض . (١) وسقوط هذا الشرطي هو رمز لانتصار الطلبة ، عدّة الحاضر الجديد ، على قوى الماضي وسدنته .

ومما تقدّم يمكن القول ان " صيّادون في شارع ضيّق " رواية تجسد الصراع بين القديم والجديد ، بين الماضي والحاضر ، وتطرح رؤية متفائلة تبشّر بميلاد مستقبل مشرق . (٢)

---

(١) صيادون ... ، ص ١٥٦ .

(٢) أنظر : د . ابراهيم السعافين : تطوّر الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام ، ص ٣٣١ .

- د . عبد الواحد لؤلؤة : البحث عن معنى ، منشورات وزارة الاعلام العراقية دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٣ ، ص ص ٧ - ١٥ .
- د . أحمد ابو مطر : الرواية في الأدب الفلسطيني ، ص ص ٤٠٠ - ٤٢٣ .
- محمد المبارك : دراسات نقدية في النظرية والتطبيق ، منشورات وزارة الاعلام العراقية ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٦ ، ص ص ٢٢٥ - ٢٣٧
- د . محمد عصفور : صيّادون في شارع ضيّق ، مجلة الآداب / حزيران / ١٩٧٤ ، ص ص ٣٨ - ٤١ .
- فاروق وادي : ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ١٥١ .
- عبد الرحمن أبو عوف : غربة الفلسطيني ، مجلة الهلال / يناير / ١٩٧٧ ، ص ص ١٥٣ - ١٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه هي الرؤية التي تطرحها هذه الرواية ، وفي رأيي أن القاصّ لم يحالفه التوفيق حين جعل جميل فرّان ينسى ليلى لتحلّ محلّها صورة سلافة ، صحيح أن القاصّ أراد لجميل أن ينعتق من قيود الماضي ، ليصبح عنصرا فاعلا في الحاضر ، وفي بناء المستقبل المنشود ، ولكن ليلى كانت منذ بداية الرواية رمزا للوطن السليب ، رمزا لفلسطين ، والماضي بالنسبة لجميل يعني الوطن الذي فقده على حين غرّة ، فهل يحق لجميل الفلسطيني المهاجر أن ينسى ماضيه؟ هل يحق له أن يمسح صورة فلسطين من ذاكرته؟ لا يصحّ ذلك بأي حال من الأحوال . ولكن يبدو لي أن جبرا أراد أن يصوّر واقعه هو من خلال جميل فرّان ، فهو نفسه استقرّ في بغداد وأصاب شيئا من المكانة الأدبية والاجتماعية المرموقة ، ولعل بغداد حلّت في قلبه محل القدس ، كما حلّت سلافة محل ليلى في قلب جميل فرّان .

أما عن الرؤية المتفائلة في قصص جبرا القصيرة ، فلم تظهر بشكل واضح الا في قصتين ، هما " نوافذ مغلقة " (١) و " أصوات الليل " (٢) ففي القصة الأولى تثور أميرة عائش على واقع اسرتها الفقيرة ، وعلى المفهوم الرومانسي الحالم للحب ، وهي لا تقنعها نظرة أهلها القديمة للحبّ ، على أنه أمر قبيح محرّم ، بل انها تتجاوز كل ذلك الى حد القبول بالممارسة الجنسية مع الشاب الذي تحبّه ، ولا تجد في ذلك غضاضة . ولذلك فهي تبادر بالتعرّف الى جارهم الشاب الذي أنهى دراسته الجامعية ولما يجد له عملا بعد . وتتوطّد بينهما أواصر العلاقة الى أن صارا يلتقيان في الليل في أحد الشوارع الضيّقة المظلمة

---

(١) جبرا ابراهيم جبرا ، عرس وقصص أخرى ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٧٤ ، ص ص ١٦١ - ٢٠٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ص ٢٦٩ — ٢٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهناك يتبادلان القبلات خلسة . لكنّ الشاب المثقل لا يتسنى لأكثر من لقاء عابر ، وقبلات سريعة ، وأميره تريد أشياء أكثر من هذا ، ولذلك فهي تقترح على الشاب أن يأخذها الى مكان بعيد ، تأمن فيه عيون الناس . ويلبّي الشاب رغبتها ، ويأخذها الى أحد الجبال خارج المدينة ، وهناك يمارس معها الجنس ، ولكنّ بدويا غليظا يداهمهما في تلك اللحظة ، ويبعد الشاب عن الفتاة ، ويهمّ بالاعتداء عليها ، فيحمل الشاب حجرا كبيرا ، ويلقي به على رأس ذلك البدوي ، ويأخذ أميرة ويعود بها الى المدينة . بعد ذلك يفكر الشاب بأن يجد لنفسه عملا جانبيا ريثما يجد الوظيفة التي يسعى اليها ، فيضم كرما خارج المدينة . وتستمر اللقاءات بينه وبين أميرة ، في كرمه في ذلك الكرم . وذات يوم يعرض عليها الزواج منه ، ولكنها ترفض ذلك .

وما ان تمرّ أيام قليلة حتى تزفّ أميرة الى العجوز نصر سلامة ، صاحب الدكان الثري ، الذي توهّم الشاب أنه رأى أميرة تخرج من دكانه ليلا ، مرة أو مرتين .

وبعد مضي فترة على زواج أميرة من ذلك العجوز ، تقوم بدعوة عشيقها الشاب ، لزيارتها في بيتها وتعريفه على زوجها ، وتحدد له موعدا للزيارة . وحين يذهب الشاب الى بيتها في الموعد المحدد ، يجد أن زوجها قد ذهب في سفر ، وأنها دعته لتختلي به في غياب زوجها . ويستجيب الشاب لرغبتها تلك ، الا أنه فجأة يتراءى له شبح البدوي الذي داهمهما في ذلك الجبل خارج المدينة ، وهنا تبدو له أميره امرأة أخرى غير التي يعرفها ، فيطبق بأصابعه على عنقها ويصرخ في وجهها " يا غاجرة ، يا فاجرة ، كلّنا مثل ذلك البدوي " (١) . ويستمر في الضغط على عنقها حتى يسيل لعابها وتجحظ عيناها ، وتغيب عن الوعي ، فيتركها ويخرج .

---

(١) عرب وقصص أخرى ، ص ٢٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واضح أن أميرة أحد رموز الحاضر الجديد ، ولذلك فهي تثور على أسرتها وعلى تقاليد الأسرة ومفاهيمها القديمة ، وتنصر سلامة أحد رموز الماضي ولذلك وضعه القاص في وضع الزوج المخدوع ، والبدوي الذي داهم العاشقين في الجبل هو أيضا رمز من رموز الماضي ، ولذلك جعل القاص الشاب يتغلب عليه في معركتهما على الفتاة ، وجعله يضربه بحجر كبير على رأسه ، فيتناثر دمه في كل الاتجاهات ، لكن لماذا خنق الشاب أميرة ؟

العبارة التي يقولها ذلك الشاب ، وهو يخنق أميرة ، تشير بوضوح الى السبب ، فهو يقول " كلنا مثل ذلك البدوي " أن كل واحد منّا يحمل في داخله شيئا كبيرا من الماضي ، ولذلك فهو يريد أن يخنق الماضي في أميرة . ويجب ألا ننسى أن أميرة رفضت الزواج منه من أنها تحبّه ، وتزوجت من العجوز لأنه ثري ، والبحث عن الزوج الثري دون اعتبار لعامل الحب أو التفاهم هو جزء من مخلفات الماضي ، وهذا يعني أن أميرة ما زالت تمثل الماضي ، وتحرس مخلفاته ، ولذلك فهي جديرة بالخنق ، في نظر القاص. لقد أحبها الشاب ، وعرض عليها الزواج على اعتبار أنها أحد رموز الحاضر ، وقد تصرّفت معه على هذا الأساس ، ولكن زواجها من العجوز الثري ، مع أنها ما زالت تحب الشاب ، أثبت أنها ما زالت تحمل الماضي في اهابها ، ولذلك لا بد من خنقها للتخلّص من ذلك الماضي .

وفي القصة الثانية حاول القاص من خلال المناقشات التي تدور بين شخصيات قصته ، أن يضع الماضي في موقف الضعيف ، الذي لا يحسن حتى الدفاع عن نفسه ، فمن خلال المناقشة التي تدور بين توفيق الخلف الذي يدافع عن الصحراء والحياة البدائية البسيطة فيها ، من جهة ، وحسين عبد الأمير وعدنان الطالب ، وعبد القادر ياسين ، وكريم ، الذين يمثّلون المدينة ، ويدافعون عنها ، من جهة أخرى ، يظهر لنا تحمّس القاص ، وانتصاره للجديد أو الحاضر . الصحراء والحياة البدائية التي يدافع عنها توفيق ، رمز للماضي ، والمدينة ، والحياة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المتطوّرة الجديدة ، التي يمثلها أولئك الشباب ، رمز للحاضر ، ويكفي للدلالة على موقف الفاسّ من قطبي الصراع ، أنه جعل توفيقا وحده هو المدافع عن الماضي في حين جعل كل أولئك الشباب مدافعين عن الحاضر أو الجديد . كما أن الفاسّ جعل طريقة توفيق في الدفاع عن وجهة نظره طريقة مضحكة ، يظهر فيها التناقض والاعتسات أكثر مما يظهر فيها المنطق والاقناع ، فتوفيق ذلك الذي يدعو الناس الى العودة الى الصحراء ، والحياة البدائية البسيطة لا يستطيع الابتعاد عن المدينة ، وملاهيها ، ومومساتها ، على وجه التحديد ، مدّة شهر مما يجعل هجومه على المدينة ودفاعه عن الصحراء مجرد ثرثرة ، ولونا من ألوان المراهقة الفكرية اذا صحّ التعبير. اذ كيف يوفّق بين دعوته الى الحياة البدائية وادمانه على معطيات الحياة في المدينة ، لو كان يعني ما يقول ؟!

ومن هنا نرى أن رؤية توفيق تتسم بالفردية ، وعدم الاقناع ، في حين أن رؤية أولئك الشباب الذين ينافشونه ، تتسم بالجماعية والاقناع ، وبذلك تكون نتيجة النقاش لصالح تلك المجموعة ، أي أنّ نتيجة الصراع بين المدينة التي هي رمز للحاضر الجديد ، وبين الصحراء التي هي رمز للماضي القديم ، ستكون لصالح المدينة .

هذه الرؤية المتفائلة تأخذ مسارا مختلفا في روايتي جبرا الأخريين " السفينة" (١) و " البحث عن وليد مسعود " (٢) .

في هاتين الروايتين يتمحور الصراع بين الماضي والحاضر حول قضية الوطن التي تعبر في وجدان الشخصية الفلسطينية . فالانسان الفلسطيني الذي فقد

---

(١) دار الآداب، بيروت، ١٩٧٩ .

(٢) دار الآداب، بيروت، ١٩٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وطنه ، وجد نفسه أمام واقع جديد من الصعب عليه احتماله ، فهو امّا أن يقيم في وطنه المحتّل ، ان أتيح له ذلك ، تحت رحمة المحتل واضطهاده ، وامّا أن يرحل عن هذا الوطن العزيز عليه ، ويعيش لاجئا في المخيمات ، بكل ما يعنيه المخيم للفلسطيني من دلالات البؤس والفقر والاذلال . أمام هذا الواقع المرّ الجديد الذي أفرزته النكبة ، والنكسة فيما بعد ، اضطر الفلسطيني الى الهجرة الى الاقطار العربية المجاورة ، ليعمل في شتى المجالات ، ويتخلّص من لعنة المخيم في المخيم ، فكان أن انتشر الفلسطينيون في معظم الأقطار العربية وخاصة تلك الأقطار الغنية بالبترول ، وأصابوا شيئا من الثراء ، أو الثقافة ، أو النفوذ ، أي أن واقعهم في تلك الأقطار أصبح واقعا مقبولا ، ان لم يكن في كثير من الأحيان ، أفضل من واقعهم ، ومستوى حياتهم الاقتصادي أو الاجتماعي ، في وطنهم قبل الهجرة . ومن هنا ينشأ الصراع داخل الانسان الفلسطيني ، هل يستسلم لحياة الرغد والرفاهية التي أصبح ينعم بها خارج وطنه المحتل ، وينسى ذلك الوطن ، أم أنّ عليه أن يحمي ثروته ، أولا يحملها ، ويرجع الى ذلك الوطن الذي ما برح يعيش في وجدانه ؟

هذا الوطن هو كل ماضي الانسان الفلسطيني المهاجر ، وواقع الفلسطيني في الأقطار العربية المجاورة لفلسطين ، هو الحاضر الذي من خلاله ينبثق المستقبل . قطبا الصراع ما زالا قائمين : الماضي والحاضر معا ، ولكن نتيجة الصراع في المتغيرة .

في " السفينة " تصادف ذلك الفلسطيني الذي هاجر الى الكويت ، وعمل في التجارة ، فكسب ثروة جيدة . انه وديع عسّاف ، صاحب مكتب للاستيراد كبير ، تنتشر فروعه في كثير من أقطار الوطن العربي ، الا أنه رغم الثراء المادّي الذي حققه ، ورغم الحياة المترفة الناعمة التي يعيشها ، لا يفتأ يحن لوطنه حنينا موجعا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" لعنة واحدة هي أوجع اللعنات : لعنة الغربة عن أرضك " (١) . وفي ساعات الليل حيث يتخلص من صخب الحياة ، وأعمال التجارة ، ويخلد الى نفسه ، تطارده صورة الوطن المحتل ، وذكرياته الأليمة " في الليل تنتابني ذكريات أليمه ، أليمة جدا " (٢) .

و " ولذا فان الليالي قد تأتيني بذكريات من القدس ، فأحزن ، وأغضب ، وأبكي " (٣) وقد يكون الأمر أهون عليه لو أنه يسلم من ألسنة الناس التي لا ترحم ، فهم يعيبون عليه أنه ترك وطنه ، وضرب في شتّى الأقطار بحثا عن المال والثروة ، حتى لكأن وطنه لم يعد يعني له شيئا .

" يقولون عني انحطاطي ماكر ، يناقش نفسه ، يعيد الفرن ، ما عادت أرضه تعني له شيئا ، كأنهم يريدونني أن أحمل حفنة من ترابها في كيس من ورق في جيبي دليلا على ألمي ، وأنا أحمل صخورها البركانية الزرقاء كلها في دمي " (٤)

ان ود بن عيسى يعاني من الصراع بين ماضيه في القدس وبين حاضره في الكويت . هل ينتصر هذا الماضي ويعود ود بن الى القدس . أم ينتصر حاضره ، ويبقى في الكويت ليضاعف ثروته ؟

الرؤية المستقبلية التي يطرحها جبرا رؤية تشير الى أن ماضي ود بن سينتصر على حاضره ، أي أنه سيعود الى وطنه فقد اشترى ود بن هذا قطعة من الأرض في مرتفعات خلحول ، وهو يعتزم أن يعود اليها ، ويزرعها بالكروم والصنوبر والتفاح ، وينوي أن يحفر فيها آبارا ارتوازية . وقد أغنى خطيبته الدكتورة سهى

---

(١) السفينة ، ص ٢٣ .

(٢) = ، ص ١٧

(٣) السفينة ، ص ١٨ .

(٤) السفينة ، ص ٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحنين بأن تسكن معه في تلك الأرض بعد الزوال ، لينجبوا عشرة أولاد . (١)

هنا يحس لجبرا أن يحسم الصراع لصالح الماضي ، بل كان يجب عليه ذلك ، لكي تكون رؤيته مشرقة ومتفائلة . فانتصار الماضي بالنسبة للفلسطيني معناه العودة الى الوطن المحتل ، وانتصار الحاضر ، معناه الركون الى حياة الدعة والثراء في الأقطار العربية الأخرى .

لكن الى أي مدى يصل اشراق هذه الرؤية وتفاؤلها ؟

لم يقل لنا جبرا بأية وسيلة سيعود وديع . هل سيعود مناضلا منتصرا على أعدائه ، أم أنه سيعود خلسة ، مستجديا السماح له بالعودة الى أرضه ؟ والعدو المحتل لهذه الأرض ماذا بشأنه ؟ هل يبقى في الأرض ؟ وان بقي هذا العدو فكيف يتمكن وديع من تحقيق حلمه ؟

كل هذه الأسئلة لم يجب عليها جبرا ، ولذلك يمكن القول ان رؤيته هذه ، يعتورها القصور ، وعدم الوضوح ، بل لعلها لا تتعدى كونها مجرد حلم رومانسي جميل ، رغم محاولته المخلصة التي قام بها لاعطاء عودة وديع بعدا نضاليا ، بأن جعله يضع في حسابه اقتناء بعض الأسلحة للدفاع عن النفس ، في ذلك البيت الذي يفكر في اقامته في جلجوليا ، فجبرا لم يقل لنا ضد من سيوجه هذا السلاح ، ولا أن أعداء هم الذين يريد وديع أن يدافع عن نفسه ضدهم . ولهذا يصبح اقتناء وديع للسلاح مجرد تقليد أو تسلية ، كما يفعل المهتمون باقتناء الأشياء الأثرية والجميلة ، وليس مؤشرا على بعد نضالي أو وطني

---

(١) السفينة ، ص ٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وطني (١١).

وفي " البحث عن وليد مسعود " يكرر جبرا هذا اللون من الرؤية المتفائلة مضيفا اليها شيئا من الوضوح والتحديد . وليد في هذه الرواية هو المحور الذي تدور حوله كل الشخصيات، وهو مثال للفلسطيني المثقف الذي وصل الى مستوى من الثراء والشهرة خارج وطنه المحتل ، فبعد النكبة هاجر وليد كغيره من الفلسطينيين ، واستقر في بغداد ، وعمل موظفا في أحد البنوك مدّة خمس عشرة سنة ، جمع خلالها شيئا من المال ، ثم تحوّل الى أعمال التجارة الحرّة ، فتمكن بذلك من مضاعفة ثروته أضعافا ، وأصبح في عداد الأغنياء ، فهو يملك بيتا فخما ، وسيارة فارهة ، ويقضي كثيرا من أيامه متنقلا بين أقطار المعمورة ، متابعة لأعماله ، أو بحثا عن المتعة والاستجمام. وهو فوق كل ذلك مفكّر له عدّة مؤلفات قيمة ، نشر بعضها فلاقت رواجا واستحسانا بين القراء والمثقفين . ولذلك تسابق الناس الى التقرّب منه والتودد اليه ، وتعلّقت به مجموعة من الجميلات، مثل: جنان التاجر ومريم الصفّار وروضان رؤوف، بالاضافة الى زوجته ريمة التي تعاني من اضطراب عصبي ، وتكاد تجن غيره عليه .

---

(١) أنظر : د . واصف أبو الشباب : صورة الفلسطيني في القصّة الفلسطينية المعاصرة ، دار الطليعة ، بيروت، ١٩٧٧ ، ص ص ١٣٤ - ١٤٠ .

- غالب هلسا : قراءات في أعمال يوسف الصايغ، يوسف ادريس، جبرا ابراهيم جبرا، حنا مينه ، دار ابن رشد للطباعة والنشر ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ص ٨٤-٨٥ .
- فاروق وادي : ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية ، ص ص ١٥٥ - ١٦١ .
- جون سالم: المغامرة الروائية ، منشورات اتحاد الكتّاب العرب ، دمشق، ١٩٧٣ ، ص ص ١٨٥ - ١٩٢ .
- صالح أبو أصبع : فلسطين في الرواية العربية ، منشورات منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت، ١٩٧٥ ، ص ص ٢٣٨ - ٢٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا هو واقع وليد ، وحاضره ، وهو واقع جميل مثمر يغري بالاستقرار والخلود للمتعة ، الا أن وليدا لا يستطيع أن ينسى ماضيه ، فصورة هي صورة النساس، الذي قضى فيه رد حا من طفولته ، في القدس، ما زالت تلاحقه ، وصورة والده العملاق الذي عاش من عمر النساء الى أن توفي . (١) . ما زالت تعيش في ذاكرته ، وذكرى قربه من مجموعة من أترابه الصبيان من الدير الذي كان يؤويهم ، ويجدون فيه فرصة للتعلّم (٢) . ما زالت تعاوده ، وتشدّه الى تلك الأيام الجميلة ، وهو قبل كل ذلك لا يستطيع أن ينسى تلك العملية الجريئة التي قام بها مع مجموعة من المناضلين حيث أقدموا في احدى الليالي الماطرة على نسف شارع بسن سوميل ، في عام ١٩٤٨ ، ولا كيف ألقي القبض عليه بعد عشرين سنة من هذه الحادثة بينما كان ذاهبا لزيارة الأهل في القدس، فأودع ظلام الزنزانة ليستقبل الجلّادين وسدنة التعذيب في سجون العدو ، عدّة مرات في اليوم (٣) . وصورة أخيه الياس الذي قتله الصهاينة ، لا تفارقه أبدا . انه يتذكر كل ذلك ، ولعل أشد ما يذكره مرارة ، هو استشهاد والده مروان ، الذي ترك المدرسة والتحق بمعسكرات منظمة فتح ، وقواعدها ، واستمر يناضل الى أن استشهد في احدى العمليات الجريئة . (٤)

هذا هو ماضي وليد ، وهو ماض مليء بالذكريات الموجعة ، ولكنه عزيز عليه ، حبيب الى قلبه . وهنا يبدو الصراع في نفس هذا الفلسطيني ، بين الماضي

---

(١) لاحظ الشبه بين عمر والد جبرا ، وعمر والد وليد .

(٢) أنظر تفصيل الحكاية في الرواية ، ص ص ١١٣ - ١٣٢

(٣) أنظر تفصيل الحكاية في الرواية ، ص ص ٢٤١ - ٢٤٩ .

(٤) أنظر تفصيل الحكاية في الرواية ، ص ص ٢٦٥ - ٣٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

[redacted] أن يستسلم لهذا الحاضر المهين الرّغد ، وبين أن يعود الى [redacted] ك ماضيه . وهنا أيضا يحسم جبرا الصراع لصالح الماضي ، وما [redacted] ذلك . فالماضي هنا يعني أن يعود وليد الى وطنه مقاتلا ، مناضلا [redacted] ل في السابق ، والحاضر يعني أن يستمر في نعم الثروة ، والتمتع بحياة [redacted] الاستقرار والدعة في بغداد .

في " السفينة " عاد الفلسطيني ود نح عسّاف الى وطنه حاملا معه ثروته ، وهي جزء من حاضره ، وهذا يعني أنه ما زال متعلقا بهذا الحاضر ، وهو يعود الى الوطن ليستمتع بالاستقرار فيه ، أمّا في " البحث عن وليد مسعود " فالامر مختلف ، والرؤية أعمق وأوضح . اذ يترك وليد كل ثروته وممتلكاته في بغداد ، ويترك سيارته على الحدود الاردنية العراقية ، ويذهب لينضم الى فصائل المقاومة الفلسطينية ، ليعود مناضلا كما كان . أي ليعود الى ماضيه . (١) وترك هذا الفلسطيني لكل ممتلكاته في بغداد دليل قاطع على الانسلاخ عن الحاضر . كما أن التحاقه بفصائل المقاومة ، داخل الوطن المحتل ، لهو الدليل على وضوح الرؤية المستقبلية في ذهن القاص ، فهو يقرر هنا حقيقة كبيرة وهي أن العودة الى الوطن المحتل ، لا تكون الا بالنضال المنظّم ، المسنود بقوّة السلاح . ولهذا قلنا أن رؤية القاص في هذه الرواية أكثر وضوحا وتحديدا ، منها في " السفينة " .

وصار رؤوف ، الفتاة العراقية الجميلة ، وآخر النساء اللواتي أحببن

---

(١) البحث عن وليد مسعود ، ص ٣٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of The

وليدا ، رمز من رموز المستقبل . (١) اننا نجد هنا تقرر اللحاق بوليد ، والانضمام الى فصائل المقاومة . وفي هذا كثير من الدلالات ، واحدا منها أن الحاضر الرغيد والمستقبل المشرق سيتبعان الفلسطيني طائعين ، اذا هو عاد الى وطنه مناضلا ، وعاد الى ماضيه المتّسم بالكفاح ، والالتحام بالأرض . كما أنّ وصال لم تنضمّ الى فصائل المقاومة الّا بعد أن رأت وليدا يفعل ذلك . ترى هل قصد جبرا من هذا أن يقول لنا ان مهمة النضال لاستعادة الوطن المحتل يجب أن ينهض بها الفلسطيني قبل أي عربي آخر ؟ ربما .

ثانيا : الرؤية المتشائمة :-

وهي الرؤية التي يقف جبرا فيها الى جانب الماضي ، أي يجعل الماضي أو القديم ينتصر على الحاضر أو الجديد ، وذلك عندما يكون الأمر متعلقا بتغيير الانسان الفلسطيني . أما اذا كان الأمر متعلقا بالفلسطيني فالتفاؤل يعني العكس ، أي انتصار الماضي على الحاضر ، وهذه خصوصية تلازم الفلسطيني وحده بسبب وضعه المتميّز وتجربته في التشرد والهجرة التي لم يعرفها غيره من العرب .

---

(١) وعلى هذه هي صغرى النساء اللواتي تحلق بوليد ، في بغداد . وهي الوحيدة من بينهن التي ما زالت بكرا ، وفي هذا ما يوحي بأنها رمزا للمستقبل أكثر من كونها رمزا للحاضر . أمّا النساء الأخريات فمعظمهن متزوجات ، أو سبق لهن أن تزوجن ، كما أنهن جاوزن مرحلة الشباب الواعد ، ولذلك فهن ألصق بالحاضر منهن بالمستقبل .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في هذا النمط من الرؤية نجد الماضي ينتصر على الحاضر، مع أن الأمر لا يمت للفلسطيني بصله . في " السفينة " نجد الدكتور فالح عبد الجبيب، ذلك الطبيب العراقي الشاب الذكي ، المثقف، الذي ينتمي الى أسرة غنية ، والمتزوّج من امرأة يحسده عليها كل من يراها ، لا يستطيع أن يتواءم مع واقعه ، أو أن يجد في ذلك الواقع ما يبرر الاستمرار في الحياة ، ولذلك فهو ينتحر بكامل ارادته ، ليتخلص من هذا الواقع السيء ، أيّ واقع هذا الذي يهرب منه ذلك الطبيب؟ انه حاضره وليس ماضيه كما توهّم بعض الباحثين . (١) فهو لا يذكر لنا شيئا عن ماضيه ، يبرر انتحاره ، وماضيه يتمثّل في أنه ابن أسرة غنية ، وأنه كان طالبا متفوقا في كلية الطبّ ، وله نشاطات طلابية أكسبته محبة الجميع واحترامهم ، فهل في هذا الماضي ما يدعو الى القلق ، والهروب منه ؟ مشكلة هذا الطبيب انه لا يستطيع الانسجام مع حاضره ، ذلك الحاضر الذي لا يرى فيه الا العفن وجرثومه التلاشي " اننا في عصر الدودة . دود ، دود ، دود . الدودة في كل شيء ، يتهالكون ويتكالبون ويتهافتون ، بعضنا على بعض كالدود . يتآكلون كالدود " (٢) انه يتحدث عن واقع يراه ويعيشه ، وليس عن ما سيتذكره أو يسمع عنه . قد يكون انتحار هذا الطبيب بسبب مرض السوداويه الذي يعاني منه ، وقد يكون تعبيرا عن خيبة الأمل التي تمخضت عنها ثورة ١٩٥٨ في العراق ، كما

---

(١) أنظر : د . أحمد أبو مطر : الرواية في الأدب الفلسطيني ، ص ٢٤٦ ، حيث يقول "في رواية السفينة يشكل الماضي عبئا ثقيلا على كل الشخصيّات الرئيسية " . والصحيح هو أن الحاضر هو الذي يشكل العبء الثقيل في حياة تلك الشخصيّات .

(٢) السفينة ، ص ٢١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رأى بعض الباحثين (١)، الا أن الدلالة الكبرى لهذا الانتحار تظل اليأس من الحاضر والمستقبل على السواء، والهروب الى حالة السكون، الموت، وهي حالة أكثر قربا من الماضي، وليس الحاضر.

وعصام السلمان، ذلك الشاب المهندس الميسور الحال، خريج احدى الجامعات البريطانية، ما الذي يدفعه الى الهرب على ظهر تلك السفينة، ليتنقل بين البلدان الأوروبية؟ ماضيه أم حاضره؟

صحيح أن عصاما تعرّف الى لمى حين كان يدرس في انجلترا وكانت هي تدرس في اكسفورد، وأحبّها وأحبّته، وصحيح أنه اكتشف أن بين عائلتيهما عداء وثأرا، اذ قتل أبوه عمها في خلاف نشب بينهما على الأرض قبل عشرين سنة، مما يجعل زواجه منها أمرا مستحيلا، وخاصّة بعد أن قضي الأمر، وتزوجت من الطبيب فالح. ولكن ذلك لا يعني بالضرورة أن هذا المهندس هارب من ماضيه. مشكلته واضحة، وهو يعبّر عنها بلسانه "أنا هنا للهرب. أنا هنا لأسباب كثيرة، أهمّها أنني لم أستطع أن أجعل من لمى بحرها وزورقي ومغامرتي" (٢) متى عجز عصام عن أن يجعل لمى بحره وزورقه، في الحاضر أم في الماضي؟ الماضي بالنسبة له هو ماضيه من تلك الفتاة، والحاضر بالنسبة له هو حاضره معها أيضا، فأيهما الذي يدعو للهرب، ماضيه أم حاضره؟ ماضيه من لمى ما من سعيد، ملئ بالذكريات الجميلة والرحلات والمغامرات "لقد قضينا أربعة أيام ونحن نتنقّل بين اكستر وطوركي رد وليس وبرود عمبرت، بين فنادقها وحقول قمحها وشطآنها. حقول قمحها... هناك استلقت لمى على ظهرها بين السنابل الخضراء، على مقربة من التلّ - أتى تلّ في أرض خضراء كان ذلك المرتفع، في أي فجر

---

(١) أنظر: غالب هلسا: قراءات في أعمال يوسف الصايغ، يوسف ادريس...، ص٨٢

(٢) السفينة، ص٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أشهب دافي" (١) . أمثل هذا الماضي الحالم يهرب منه ، ولكنه الواقع المرّ ، الحاضر الذي واجهه عصام بعد عودته من بريطانيا ، اذ وجد أن لمى قد تزوّجت من دلت الطبيب ، ولم يعد بامكانه أن يراها ، أو أن يتعلق بخيط من أمل في الوصول اليها . وهذا واقع يراه عصام جديرا بالرفض ، والهروب منه ، فقد يرى أحدهم أن حادثة قتل والد عصام عمّ لمى تلك هي السبب في ضياع فرصة الزواج التي كانا يؤمّلانها ، وهذا صحيح . ولكنهما كانا يعلمان بهذه الحادثة منذ أن كانا في بريطانيا ، ولكنهما لم تكن تحول دون لقائهما ، وبالتالي لم يفكر عصام بالهرب من الماضي الذي يحمل في طياته حادثة القتل تلك . بمعنى أن حادثة القتل تلك وما يترتب عليها من ثأر وعداء بين العائلتين ، لم تكن تشكل عبئا في حياتيهما ، ما داما يستطيعان أن يلتقيا ، فما الذي يجعل حادثة القتل تلك تصبح عبئا في حياتيهما ، أو حياة عصام على وجه التحديد ؟ انها استحالة التواصل واستمرار العلاقة ، وهذه منبثقة من ظروف الحاضر المتمثّلة في زواج لمى من الطبيب ، واستحالة اللقاء بينها وبين عصام . ومن هنا يمكن القول ان عصاما هارب من حاضره ، وليس من ماضيه .

أما محمود الراشد ، الأستاذ الجامعي ، الذي يبدو أنه عضو في احدى المنظمات السّريّة للفكر اليساري ، فليس أقل معاناة من فالح وعصام ، بسبب معطيات ذلك الحاضر ، الذي يعيشه الوطن العربي ، والذي لا يرى فيه سوى الظلم والقهر والوشاية ، والمطاردة وزجّ المثقفين في السجون . ولذلك فهو يهرب من هذا الحاضر الكريه ، ليعمل محاضرا في احدى الجامعات الأوروبية . غير أن

---

(١) السفينة ، ص ص ١٨٦ - ١٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تشاؤمية هذا الأستاذ تحمس في طيّاتها بصيصا من أمل ، فهو لم يعلن استسلامه لهذا الواقع ، أو يأسه من اصلاحه كما فعل الطبيب والمهندس ، وانما هو معنيّ بايجاد وسيلة لتغيير ذلك الواقع ، وبالتالي فان هروبه بيدو وكأنه مرحلة اعداد لمرحلة لاحقة ينوي القيام بها ، لكن جبرا حاول اطفاء ذلك البصيص من الأمل بما ألصقه بهذا الأستاذ من احباطات وتشنيعات جعلته بيدو لنا رجلا محاطا بالشبهات والشكوك . (١)

وأما لمى فهي تعترف بأنها قامت بترتيب سفرها هي وزوجها على ظهر تلك السفينة ، وفي تلك الدرجة التي ينزل فيها عصام ، لكي تلتقي به ، وتنعم بقربه . وعصام بالنسبة لها هو رمز لماضيها في بريطانيا ، وهي تهرب من حاضرها المتمثّل في حياتها الزوجية الى ماضيها المتمثّل في عصام . فهل يصحّ بعد ذلك أن نقول ان شخصيّات هذه الرواية هاربة من ماضيها ؟ كما قال بعض الباحثين (٢) ؟ لا أرى ذلك .

وهذه الرؤيه المتشائمة تظهر جليّا في ثلاث من قصص جبرا القصيرة ، وهي " النهر العميق " (٣) و " الرجل الذي كان يعشق الموسيقى " (٤)

---

(١) لا يأتي جبرا على ذكر محمود الراشد الا ويسخر من أفكاره اليسارية ، أو من خلقته ، أو يشكّك في سلامة نواياه أو عقله .

(٢) أنظر : صالح أبو أصبع : فلسطين في الرواية العربية ، ص ص ٢٣٠ - ٢٣٥

(٣) عرس وقصص أخرى ، ص ص ٢٦٣ - ٣٢٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ص ١٦١ - ٢٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

و " ابنه السماء " (١) .

في " النهر العميق " نجد الماضي ينتصر انتصارا كاملا ومباشرا على الحاضر ، رغم قوة الحاضر وحيويته ، فعائدة ابنة المقدّم سالم الجبلي ، تضطر للانتحار بسبب معاملة والدها القاسية لها ، وبسبب رفضه الحازم لزواجها من كامل الصوفي ، الشاب الذي تحبّه . والد هذه الفتاة رمز واضح من رموز الماضي ، وعقليته مليئة بمفاهيم الماضي ، فهو لا يطيق أن يكون لابنته علاقة بأي شاب ، وحين يكتشف أن لها مثل هذه العلاقة ، لا يتورّع عن ضربها ، وايذائها ، والمعاملة دون زواجها من ذلك الشاب الذي تحب ، خاصة وأنّ لذلك الشاب أختا تحترف الغناء في الملاهي والأندية الليلية . أما والد كامل ، فهو موظف متقاعد ، أدمن الشراب بعد أن احترفت ابنته ساجدة الغناء ، وأخذ يصب جام غضبه على بقية أولاده . وحين يشكوه المقدّم سالم الجبلي من ولده كامل ، يجنّ جنونه ، ويطرد كامل من البيت .

من الواضح أن والد كامل ووالد عائدة يمثلان الماضي بكل قيمه ومفاهيمه ، وأن كاملا وعائدة يمثلان الحاضر ، ولكن الصراع بين هذين القطبين الكبيرين يسفر عن انتصار القطب الأول على القطب الثاني : فعائدة وكامل عجزا عن التمرّد على مشيئتي أبويهما ، ولم يتمكنا من الزواج ، وليت عجزهما يقف عند هذا الحد ، بل يتعدّى ذلك الى انتحار عائدة وطرد كامل من البيت ، بل ان كامل كاد أن يقضي نحبه هو الآخر عندما هاجمه سائق سيارة سالم الجبلي ، وضربه بجسم صلب ، على رأسه . (٢)

---

(١) مجلة الآداب ، العددان ٤٤و ٤٥ لسنة ١٩٦٦ . ص ص ١٨ - ٢٤ و ص ص ٢٠ - ٢٥ .

(٢) عرس وقصص أخرى ، ص ٢٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سمي فنهايته ليست بأحسن حالا من نهايتها ، فقد " ضن بعد أيام الـــــس التدن التي في ظاهر المدينة ، وراح يتخبط بين أشجارهـا ، وصخورهـا " . (١) وهذا يعني الهروب من الحاضر ، والعودة الى الماضي المتمثّل في الغابـــات والصخور . (٢) . انها العودة الى الحياة البدائية البسيطة .

وربما تكون الصوره التي يقدّمها جبرا للمدينة في معظم قصصه الطويلـــة والقصيره على السواء ، أكثر الصور دلالة على موقفه السلبي من الحاضر ، ورغبتـــه الملحّه في الخلاص منه بأية وسيله كانت . فالمدينة لا تعني له الا المرض والعفـــن والفساد ، وهو لا يرى في سكانها الا الاشواء والعجز ونوازع الرذيلة الشرّ ، فهـــم يقضون حياتهم موزعين في المقاهي " قاعدين على مؤخراتهم ، يلغون طيلـــة النهار ، يتطلطون ويسألون ، يصيبهم الامساك ، ثم تصيبهم العنّة ـ والعنّـــة غدت متفشية فيهم حتى غدت أكثر نساء المدن امّا مساحقات أو متهتكـــات لأن أزواجهن عاجزون عن تمتيعهن " . (٣)

ومن خلال هذه الكلمات التي يقولها جبرا على لسان توفيق الخلـــف نتبين رؤيته لانسان المدينة ، فان كان ذلك الانسان رجلا فهو ضعيف عاجز ، وان كان امرأه فهو شرّير فاجر ، وأيّ شيء أكثر دلالة على السير نحو الهاوية من مدينة قوامها العجز والشرّ ؟ ولم يكتف جبرا بطرح هذه الرؤية المغرقة في التشـــاؤم من خلال كلمات تتفوّه بها احدى شخصيات قصصه ، بل راح يؤكد هذه الرؤيـــة

---

(١) مجلة الأمالي / عدد ٤٥ / ١٩٦٦ ، ص ٢٥ .

(٢) هذه القصّة من بواكير انتاج جبرا القصصي المنشور ، فتاريخ كتابتها هو ١٩٦٦/٦/١١ .

(٣) عرس وقصص أخرى ، ص ٢٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يها في كلّ قصّة وفي كل رواية ، ففي " صراخ في ليل طويل " نجد
يانة متمثّله في سميّه ، ونجد الأم والغظاظة متمثّلة في أمّها ، ونجد
لسذاجة متمثلة في والدها ، وفي رشيد زوج دانية الذي لا يفتأ
حبّه وثقته في أنها " لا تضيع فرصة من فرص الهوى " (١) . وفي
ون في شارع ضيّق " نجد سلمى تلك التي تخون زوجها في رابعة النهار ،
ونجد سميحه تلك البغي التي يحبّها حسين مروان ، ويتزوجها ، الا أنها تهرب
من بيت الزوجية ، وتعود سيرتها الأولى . (٢)
وفي السفينة نجد لمى تمارس الجنس مع عشيقها عصام في اللحظة نفسها التي
يكون زوجها يعاني سكرات الموت ، في الغرفة المجاورة لغرفة عشيقها . (٣) ونجد
أميليا وجاكلين تتنقّلان بين أحضان المسافرين على ظهر تلك السفينة . وفي
" البحث عن وليد مسعود " نجد سرسق عبد الهادي ومريم الصفّار اللتين
تنقّلت كل واحده منهما بين أحضان عدد من الرجال . وحيثما نجد المرأة الخائنة
أو المومس نجد بالمقابل الرجل الضعيف ، أعني الرجل المسؤول عن هذه المرأة .
وفي قصص جبرا القصيرة نجد الأنماط نفسها من الرجال والنساء ، ففي قصّة
الفراموفون نجد صبحية التي تمارس البغاء في شيء من التستّر ، تضطر
المسكين يوسف الذي يعمل عند أحد الحدّادين الى بيع جهاز الفراموفون
الذي بقي له من كل ما يملك في هذه الدنيا ، وبعض ملابسه ، ليقضي منها وطرا ،
ولكنها لا تمكّنه الا من قبلة يبعلته بها مجالا لسخرية زملائه في العمل (٤) . وفي

---

(١) صراخ في ليل طويل ، ص ٣٦ .
(٢) صيّادون في شارع ضيّق ، ص ص ٣٤ ، ١٥٠ .
(٣) السفينة ، ص ص ٢٠٥ - ٢٠٨ .
(٤) عرس وقصص أخرى ، ص ص ٧٩ - ١٠٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center

أميمة ، تلك التي أحبها مصطفى وأخلص لها الود ، تتنكر لـــــه ، خليل طمعا في ثروته . (١)

في الأحلام " نجد رباب تتنكر لخطيبها سليم الجابي الشاب المثقـــف المخلص ، وتتعلّق بعد يقه الرسام أنور الذي عرّفها به خطيبها أثنـــاء زيارتهما له في بيته المنعزل خارج المدينة ، بل انها لا تتورع عن الذهاب الـى بيت أنور ، والطلب منه أن يسمح لها بالبقاء في بيته مدّة اسبوع أو أسبوعيـــن ، بعد أن زعمت لأهلها وخطيبها أنها ستسافر الى بيروت . (٢) وهكذا فـــي بقية القصص الأخرى .

أما العلاقة التي تربط بين الرجل والمرأة في المدينة ، فهي علاقـــة طرفاها : الاحتقار والحقد . فالرجل يحتقر المرأة " لقد اتخذت لنفســـي ازاء المرأة موقف المحتقر ، الى أن أصبحت أحتقرها بالفعل " (٣) . والمـــرأة تحقد على الرجل ، فهي تتقرّب اليه ، وتغريه بشتّى الوسائل ، حتى يقع فـــي حبائلها ، فتنقلب عليه بضراوة ووحشية .

" النساء يحظمنك رمزا لشهوتهن ،لكي يصلبنك يوما على نخله ، ثم يأكلن عينيـــك ، ويندبن شفتيك لأن ليس من يقبلهما ، ثم يرقصن حول أوصالك وهن يقطّعنـــك عضوا عضوا ، ويسكبن الخمر من جديد . ثم يفرغن متاناتهن ، فينمو الشوك كثيفـــا حول بقاياك " (٤) .

---

(١) عرس وقصص أخرى ، ص ص ٣٧ - ٦٢ .

(٢) عرس وقصص أخرى ، ص ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٣) صراع في ليل طويل ، ص ص ٧- ٨ .

(٤) عرس وقصص أخرى ، ص ٢٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of

لكن ما الذي يجعل جبرا يلخص كل هذه التهم والتشنيعات بالمدينة العربية الشاذة ؟ انها رغبته الملحّة في العودة الى الماضي ، الى الحياة البدائية البسيطة ، ولذلك فهو يسعى الى اقناع نفسه وغيره من الناس بأن الحاضر المتجسّد في هذه المدينة ، حاضر سيء رغيم ، وأن الخلاص منه لا يكون الا بالعودة الى الماضي حيث الحياة البدائية .

" أما أنا فأؤثر الحياة البدائية " (١) . وهذه رؤيه ما كان أحراه بالابتعاد عنها ، وهو المثقف الداعي الى مواكبة التقدّم الحضاري ، روى القصر .

ثالثا : الرؤية الغائمة :-

وهي الرؤية التي تعطينا صورة واضحة للصراع بين الماضي والحاضر ، ولكنها تحجم عن التنبؤ بنتيجة هذا الصراع ، بمعنى أن القاصّ يصوّر لنا جوانب هذا الصراع بين رموز القطبين ، ولكنه لا يطرح لنا رؤية مستقبلية . ولذلك قلنا انها رؤية غائمة .

في قصة " عرس " نجد البطل مصطفى حائرا بين مجموعتين من القيم : مجموعة تمثل قيم الماضي الداعية الى التمسك بالأخلاق الحميدة ، والقيم المعنوية الرفيعة ، التي تظهر من خلال تعلّق مصطفى بالكتب الجادّة والثقافة ، ومن خلال حبّه الرومانسي الحزين لأميمة . ومجموعة تمثّل قيم الحاضر المادّية كالثراء والوجاهة والنفوذ ، حتى ولو صاحب هذه الأشياء الغباء والجهل والحقارة كما هي الحال بالنسبة لخليل الصفافيري ، صديق مصطفى ، ومنافسه في حب أميمة .

---

(١) السفينة ، ص ١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أميمة رمز من رموز الحاضر ، ولذلك تنكّرت لمصطفى ونسيت قصّتها وأصبحت خطيبة لخليل . وعبّاس أيضا أحد رموز الحاضر ، ولذلك يسخر من حب مصطفى المثالي لأميمة ، ولا يفتأ يقول له " يلتفّ خيالك حول ساقي أميمة ، ولكنك تكتب عن عينيها ، تتمنّى لو تجرّأت من شعرها الى ضفة دجلة وتتمرّغ معها عارية في الطين ، ولكنك تكتب عن لوعة نظيفة نقية ، كأنها لم تصدر عن شبق لا يرحم وخيبة لا تلين " (١) .

ثم يبادر الى دعوته الى التخلّي عن كتبه العتيقة تلك ، وحبّه لأميمة ، والذهاب معه الى أحد الملاهي لقضاء ساعات من البغي فضيلة . وهنا يصل الصراع في نفس مصطفى ذروته : هل يتمسّك بمبادئه ومثالياته الممتدّة بجذورها الى الماضي ، أم ينسان وراء ما يدعوه اليه عبّاس ، وما يؤكده له واقعه المرّ ؟ في البداية يستسلم مصطفى لالحاح عباس عليه بدعوته الى شرب الخمر في الملهى ، ومن ثمّ التوجّه الى بيت فضيلة . وفي هذا اشارة الى أنه يفكر في الخلاص من الماضي ، والاستجابة لنداء الحاضر ،لكنه ما ان يجلس في الملهى ، ويأخذ بشرب الخمر مع صديقه عباس، حتى يبدأ يضيق ذرعا بمواعظ ذلك الصديق ، وتهكّمه على أميمة . وفي هذا اشارة الى تعلّقه بالماضي . وحين يمدّ عبّاس يده الى كتب مصطفى على طرف المائدة ، ليقذف بها أرض، ينتفض مصطفى ويهجم على عباس موسعا اياه ضربا وركلا في حالة من الجنون والانفعال . وفي هذا اشارة كبيرة الى تعلقه الشديد برموز الماضي : الكتب العتيقة .

وفي النهاية لا يسفر ذلك الصراع القائم في نفس مصطفى ، أو القائم بين مصطفى من جهة ، وخليل وعبّاس من جهة أخرى ، عن نتيجة واضحة ، فخليل فاز بأميمة وهذا مؤشر على انتصار الحاضر على الماضي ، لكن عبّاس فشل في اقناع مصطفى بالتخلّي عن مثالياته القديمة ، وفي هذا مؤشر على انتصار الماضي على الحاضر .

---

(١) عرس وقصص أخرى ، ص ٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Th

ومن هنا يبدو الاضطراب في رؤية الفتى، وتتبلبل الازدواجية فيها . وفي نهاية القصة يخبرنا الفتى بأن مصطفى بعد أن فرغ من عراكه مع عباس، حمل كتبه ، وخرج من الطهى الى "الليل والشارع الطويل" (١) . ترى ماذا تعني هذه العبارة غير التأكيد على عدم وضوح الهدف أو المصير ؟ .

وفي قصة " الأختان وفاكهة من الشوك " نجد النماذج ذاته من الرؤية ، فالدكتور رافد أحد رموز الحاضر لا يرى بأسا في أن يحبّ عدنان ممدوح معلمة الأطفال ، وابنة الميكانيكي البسيط ، ويتزوجها ، لأنه لا تعنيه مثل هذه الفوارق الطبقية ، أما أمّ الشاب ،وهي رمز من رموز الماضي الكبيرة فهي لا تستطيع أن تتصوّر أن ابنها الطبيب يفكر في الزواج من معلمة أطفال ، وابنة ميكانيكي " من هي عدنان ممدوح حتى يقرنوها باسمك ؟ معلمة أطفال ! لقد تقطّعت يدا أبيها في تصليح سيارة أبيك " (٢) لكن الصراع بين هذين القطبين بما يمثله كل واحد منهما ، لا يسفر عن نتيجه واضحة ، فبعد أن تناقش الأم ابنها في أمر هذا الزواج ، وتحاول أن تثنيه عنه بشتى الوسائل ، يتوجّه كل منهما الى غرفة نومه ، دون أن يتفقا على قرار معين " ويعركة من أصبعه أطفأ النور في غرفة الاستقبال . ثم أطفأه في الرواق . ثم أطفأه في غرفته ، وتلمّس طريقه الى الفراش في الظلام " (٣) . الفراش هنا هو الهدف الذي يسعى اليه البطل ، ولكن الطريق اليه مظلمة ، وفي هذا اشارة واضحة الى تخبّط البطل وعدم وضوح الرؤية لديه ، مما يجعل عملية الوصول الى الهدف ، الفراش، عملية

---

(١) عرس وقصص أخرى ، ص ٦٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٤٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تلك هي رؤى جبرا الثلاث لمستقبل الصراع بين القديم والجديد ، الذي يعاني منه الانسان العربي ، في هذه المرحلة التاريخية ، وهي رؤى متناقضة حينا ، كما يتضح من مقابلة رؤيته الأولى بالثانية ، وحائرة مضطربة ، حينا آخر ، كما هو واضح في رؤيته الثالثة . فكيف نفسّر ذلك الاضطراب ، والتناقض؟

لم يجد بعض الباحثين تفسيرا لذلك الا القول بازدواجيّة القاصّ وروحانسيته (١) وهو قول فيه شيء من التسرّع والتحامل ، مما يجعل البحث عن تفسير آخر أمرا ضروريا . ولذلك فان الباحث يرى أن جبرا انما أراد أن يصوّر مصطلحات مرحلة التحوّل من القديم الى الجديد ، تصويرا موضوعيا محايدا . بمعنى أنه أراد أن يؤرخ لهذه المرحلة من تاريخ الأمة العربية ، من خلال فنه القصصي ، وقد تنبّه الى ذلك جزئيا ، بعض الباحثين . (٢) كما أن جبرا نفسه تمنّى على الدارسين لفنّه القصصي أن يدرسوه في ظل ذلك الاعتبار. (٣) فاذا نظرنا الى قصص جبرا القصيرة وروايات على أنها محاولة للتاريخ لمرحلة من مراحل حركة المجتمع العربي ، بلغة الفنّ القصصي ، لا بلغة التاريخ ، فاننا سنجد أن رؤية القاصّ منسجمة مع نفسها ، ومع الواقع ، فالقديم والجديد مازالا في صراع مستمر ، قد ينتصر القديم هنا ، وقد ينتصر الجديد هناك ، وقد تكون المعركة سجالا في مكان آخر ، وبالتالي فجبرا ينقل الينا ما يجري في الواقع حقيقة ، وليس ما يتمنّى أن يكون عليه الواقع .

---

(١) أنظر: د . هاشم ياغي : القصّة القصيرة في فلسطين والاردن ، معهد البحوث والدراسات العربية ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٣٢٨ .

(٢) أنظر: د . عبد الواحد لؤلؤة : البحث عن معنى ، دراسات نقدية ، ص ١٣

- محمد المبارك : دراسات نقدية في النظرية والتطبيق ، ص ٢٣١ .

(٣) ذلك ما تمنّاه عليّ جبرا حين قابلته في بغداد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولمن نظرة عجلى الى مضامين روايات جبرا ، وربط هذه المضامين بالسنوات التي كتبت فيها كل رواية من هذه الروايات ، تؤكد ما ذهبنا اليه من تفسير ، و " صيّادون في شارع ضيّق " تعطي صورة حقيقية لطبيعة الحياة التي عرفتها بغداد بعد نكبة ١٩٤٨ ، بكل ما فيها من اضطرابات وأحداث ، كما أنها تصوّر تجربة التشرّد والهجرة بحثا عن الرزق التي عاشها الفلسطيني في ذلك الحين ، و " السفينة " جاءت لتصوّر ما تمخّضت عنه أحداث ١٩٥٨ في العراق ، وما خلّفته من خيبة أمل في نفوس المثقفين ، كما هي الحال بالنسبة للدكتور فالح ، وعصام السلمان من جهة ، ولتكس الحديث عن تجربة الفلسطيني في الهجرة ، من جهة أخرى ، ولكن هذا الفلسطيني أصبح الآن ثريا كما هي الحال بالنسبة لوديع عسّاف. وأما " البحث عن وليد مسعود " فجاءت لتصوّر الفلسطيني في المرحلة الثالثة من تجربته بعد النكبة ، وهي مرحلة المقاومة والتصدّي للمحتل ، من خلال منظمات التحرير ، كما هي الحال بالنسبة لوليد مسعود ، وابنه مروان . (١)

وبناء على ما تقدّم فيمكن القول بأن رؤية جبرا الواقع حركة سير المجتمع العربي رؤية واضحة وشموليّة في حين أن رؤيته المستقبل تلك الحركة رؤية قاصرة ، ان لم تكن غير واضحة ولا محدّدة الأبعاد صحيح أنه يحاول أن يتنبأ لنا بمستقبل عربي مشرق بوجه عام ، ولكنه لا يبرر لنا تفاؤله هذا ، بل انه صوّر لنا الواقع على صورة توحي باليأس والخيبة ، وتنذر بمستقبل سيء . ولهذا يصبح تفاؤله مجرد حلم جميل .

وحين تكون الرؤية المستقبلية منفصلة عن معطيات الواقع ، بمعنى أنها

---

(١)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غير منبثقة من تلك المعطيات ،فانها ستكون مجرد رجم بالغيب . ولعل احساس جبرا بعدم وضوح رؤيته المستقبلية هو الذي يجعله يقول " عملية التغيير في العالم العربي غير متكاملة ، وما تزال غالبا أكثر منها شيئا مصنوعا بعقلانية مدروسة" (١) الحاضر الذي يتحدث عنه جبرا حاضر سيء كما هو واضح في صورة المدينة التي يرسمها على طريقته وهواه ، والمستقبل الذي ينشده مستقبل مشرق كما يبدو ، لكن من الذي سيصنع هذا المستقبل المنشود ؟ وكيف ؟

يعتقد جبرا أن المثقفين رغم عدم قدرة القادرين على تغيير المجتمع وقيادته نحو مستقبل أفضل ، لكنه يصرّ على عدم تحديد أية يولوجيّة واضحة يرتكز اليها هؤلاء المثقفون ، ويستلهمونها في تحديد خطة سيرهم . (٢)

ولعل اصراره على عدم التزام مثقفيه الذين ينيط بهم مهمة التغيير ، بأية يولوجية محدّدة ،الى جانب عدم التزامه هو نفسه بمثل تلك الايديولوجية كما ظننا ، هو الذي جعل صورة المستقبل في نفسه ، صورة ضبابية غائمة .

والمثقفون الذين يؤمّل جبرا فيهم القدرة على التغيير وتخليص المجتمع من أزمة الحاضر ، ينقسمون الى فئتين :
الفئة الأولى فئة المثقفين الموهوبين ، أدباء أو رسّامون ،وهؤلاء يسعون الى تغيير الواقع عن طريق الخلق والابداع الفنّي . ففي " صراخ في ليل طويل" نجد الرسّام فارس الطيبي يحاول الخروج من معاناته وأزماته عن طريق رسم لوحة لامرأة معها طفلها . (١) ونجد أمين سمّاع يحاول الخلاص من تجربته

---

(١) مجلة الحوادث / آذار/ ١٩٨١ ، ص ٥٥ .
(٢) أنظر : فارون وادي : ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، ص ١٦٤.
(٣) صراخ في ليل طويل ، ص ص ٣٤ - ٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مع زوجته ، عن طريق تأليف كتاب . وفي " البحث عن وليد مسعود " نجد . جواد حسني يسعى الى تخليص شخوص الرواية الآخرين من هواجسهم على مصير وليد ، عن طريق تأليف كتاب عنه . وفي " السيول والعنقاء " نجد الشاب جميل يحاول الخلاص من عذاباته وقلقه على مصير البشرية ، ونهضة الشرق ، عن طريق تأليف كتاب عن حكمة العقل وثورة الحس . (١) والفئة الثانية هي فئة المثقفين غير الموهوبين ، وهؤلاء معشر سايروا معطيات المدينة والحضارة ،واستمتعوا بها الى درجة التخمه ، ثم ما لبثوا أن ملّوا هذه الحياة الصاخبة البرّاقة المعقّدة ، وفقدوا القدرة على الانسجام معها ، ولذلك لم يجدوا لأنفسهم خلاصا الا بادارة ظهورهم لتلك الحياة ، والتوجّه الكامل نحو الحياة البدائية البسيطة ،وهذه الفئة يمثّلها توفيق الخلف في " صيّادون في شارع ضيّق " وجون بيترز في " السيول والعنقاء " (٢) وبطل قصة " الرجل الذي كان يعشق الموسيقى " ،ووديع عسّاف في " السفينة " .

ولا بد هنا من الاشارة الى الصلة الموجودة بين الفئة الأولى والرؤية المتفائلة ، من جهة ، والصلة الموجودة بين الفئة الثانية والرؤية المتشائمة من جهة أخرى . وهذا يشير من طرف خفي الى أن جبرا ينيط مهمة الريادة ، والخلاص الايجابي بالمثقفين الموهوبين بالدرجة الأولى . وهذا أيضا رؤية مثاليّة لا يسعفها واقع عصرنا ، ومعطياته ، بالتطبيق العملي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis

الفصل الثالث

****

الشخصيات

****

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

محتويـــــــات الفصـــــــــل

****

فـــي الروايـــــــــة :

xxxxxxxxxxxxxxxxx

أولا : شخصيّـــــات الفئـــــــة الأولـــــى

أ. الشخصيّـــــــــة الفلسطينيـــــــة

ب. شخصية المثقّف غير الملتزم بأيد يولوجيـــــة معينـــــة .

جـ .شخصيّـة المتمرّد أو الثائر المثالي أو مـــــا يمكن وصفه بالولد الشقـــي .

ثانيا : شخصيّـــــات الفئـــة الثانيـــــــــة

أ. المثقـــف الملتـــــزم بايد يولوجية معينـــة

ب. البيروقراطيّون والمتزمتـــــــــــون

جـ. شخصيـــــــــة المـــــــرأة

فـــــي القصّـــــــة القصيـــرة :

****

أولا : الشخصيـــــــة الفلسطينيـــــــة

ثانيا : الشخصيـــــة المثاليّـة المحبطـــــة

ثالثا : شخصيّـــــــــة المـــــــرأة .

خـــــــلاصـــــــة :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشخصيـــــــــــــات

****

فـــــي الروايـــــــة :
××××××××××××××××

لعل قدرة القاص على خلق شخصيّات قصّتـــه ، وعلى اقامة العلاقـــات المتنامية بين تلك الشخصيّات ، بمعنى أن تكون هذه العلاقات منسجمة مـــــع التكوين النفسي الذي منحه القاص لتلك الشخصيّات ، أن تكون المؤشـــــــر الحقيقي على موهبته ، وتمكّنه من فنّه . فالفن القصصي هو " فنّ السبر أو كشـــف الأسرار" (١) . ومهمة الكاتب القصصي هي " أن يخلق الشخصيّات ، لا أن ينتقد أوضاعا معيّنة " (٢) .

ومن هنا تبرز أهميّة تخصيص هذا الفصل من الدراسة ، لدراسة " شخصيـــــات قصص جبرا خاصة أنّ ثلاثا من روايات جبرا الأربع هي روايات شخصيّات وافكار . (٣)

يقول جبرا " عندما أكتب رواية لا أوجد بطلا واحدا ، بل أخلق أبطـــالا ، فالبطل الواحد هو موضوعة رومانسية . . أبطالي كلّهم مهمّون ، والعلاقات فيمـــا بينهم هي الرواية " . (٤) وهذا القول معناه أن يتعامل القاص مع شخصيّاتـــــه بمنطق موضوعي . وللموضوعيّة هنا جانبان يصعب الفصل بينهما ، الجانـــــب الأول يعني ألّا يتعاطف القاص مع شخصيّة دون أخرى ، وألّا يفضّل هذه علـــى تلك ، فيمنح تلك الشخصيّة كلّ عنايته واهتمامه ، في حين يهمل شخصيّة أخرى .

---

(١) ر . م . البيريس ، تاريخ الرواية الحديثة ، ترجمة جورج سالم . منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٧ .

(٢) العبارة لأبيرتومورافيا من كتاب " أدباء معاصرون من الغرب " للدكتـــور محمود السمرة ، ص ٩ .

(٣) أنظر : عبد الواحد لؤلؤة ، البحث عن معنى ، ص ٨٥ .

(٤) ينابيع الرؤيا ، ص ١٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والجانب الثاني يعني أن لا يحمّل القاصّ شخصيّة فوق ما تحتمل ،فيجعلها تفعل أو تقول مالا يتفق مع التكوين الذي منحها اياه . ترى الى أي مدى التزم جبرا بمقولته تلك ؟

يبدو أنّ الاجابة على هذا التساؤل تستوجب المعرفة بكيفيّة خلق الشخصيّات أولا . ولذلك نقول انّ القاصّ يخلق شخصيّاته باحدى الطريقتين التاليتين ، أو بهما معا . والطريقتان هما : أن يخلق القاصّ شخصيّاته نتيجة ملاحظاته الدقيقة لنفسيّات ، وأنماط سلوك الشخصيّات الحيّة التي يراها ويتعامل معها في حياته العاديّة ، وهذه هي الطريقة الأولى . أو أن يسقط ذاته على الشخصيّات التي ينوي خلقها ، بمعنى أن يوزّع جزئيّات بنيانه النفسي أو صفاته على شخصيّاته ، كأن يعطي مثلا موهبته القصصيّة لاحدى شخصيّاته ، ويعطي ملامح طفولته لشخصيّة ثانية ، وصفاته الجسديّة لشخصيّة ثالثة ، وهكذا ، وهذه هي الطريقة الثانية . (١)

وجبرا كان يأخذ بالطريقتين ، كل على حدة أحيانا وبالطريقتين معا أحيانا أخرى ، الاّ أنّه كان يفضّل الأخذ بالطريقة الثانية ، أي اسقاط ذاته على شخصيّاته ، والأخذ بهذه الطريقة أمر محفوف بالمنزلقات، لأنّ القاصّ سيجد نفسه في كثير من الأحيان بعيدا عن الموضوعيّة والحياد في التعامل مع هذه الشخصيّات . وهذا ما حصل مع جبرا في خلقه لكثير من شخصيات قصصه ، فلم يستطع أن يكون عادلا أو موضوعيّا في تعامله مع تلك الشخصيّات بل ان التعاطف الشديد مع بعض الشخصيّات ، الى جانب التعامل الشديد على بعض الشخصيّات

---

(١) أنظر رينيه ويليك و أوستن وارين ، نظرية الأدب ، ترجمة محي الدين صبحي ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم ، مطبعة خالد الطرابيشي ، دمشق ، ١٩٧٢ ، ص ١١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأخرى ، كان الطابع المميّز للعلاقة بين جبرا وشخصيّات قصصه .
ومن هذا المنطلق يمكن أن نصنّف شخصيّات جبرا في فئتين كبيرتين ، فئة يتعاطف معها ، ويحبها ، وفئة يتحامل عليها ، ويحاول ايذاءها ، والتشنيع عليها .

أولا : شخصيات الفئة الأولى :-

أبرز ما يميز شخصيات هذه الفئة هو الشبه الواضح بينها وبين القاص نفسه وهذا يدل على أن هذه الشخصيات خلقت بالطريقة الثانية ، أي اسقاط الذات وتوزيعها على شخصيّات القصّة . ولهذا نجد جبرا معجبا بهذه الشخصيات ، محبّا لها ، مما يجعله يعطيها طابع التميّز ، والتفوّق على باقي شخصيّات قصته ، وهذا يجعلها بالتالي الشخصيّات التي تمارس الفعل والتأثير في أحداث القصّة من جهة ، وفي الشخصيّات الأخرى من جهة ثانية . وشخصيّات هذه الفئة تنقسم الى ثلاث مجموعات رئيسية :

أ . الشخصيّة الفلسطينية :

أقرب شخصيات قصص جبرا الى نفسه ، وأوفرها حظا من عنايته هي الشخصيّة الفلسطينية التي تمارس حضورها في روايات جبرا ، بطريقتين ، فئة تمارس حضورا مباشرا في الرواية . وفئة تمارس حضورا غير مباشر . أما الفئة التي تمارس الحضور المباشر فهم : جميل فرّان في " صيّادون في شارع ضيّق " و ودي عسّاف في " السفينة " و وليد مسعود في " البحث عن وليد مسعود " .

جميل فرّان شاب فلسطيني يعيش مع أسرته الفقيرة في القدس ، وهو خريج احدى الجامعات البريطانية ، اضطرته نكبة ١٩٤٨ الى الهجرة الى

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بغداد ليعمل مدرّسا للأدب الانجليزي في احدى كلياتها .
وهذه الصفات تنطبق جميعها على جبرا نفسه ، فهو من أبناء مدينة القدس ، ومن أسرة فقيرة ، وهو خريج جامعة كيمبردج ، وقد ذهب الى بغداد ليعمل مدرّسا للأدب الانجليزي في احدى الكليات . وجميل فرّان تعرّف من خلال عطيه الى فتاة مسلمة هي سلافة النفوس ، اذ كان يعطيها بعض الدروس الخصوصيّة في بيتها ، ونشأت بينهما قصّة حب ، وأخيرا تزوجها رغم كونه مسيحيا ، وجبرا أيضا تعرّف من خلال عطيه الى احدى زميلاته المسلمات ، وتزوجها بعد أن أعلن اسلامه .
أضف الى ذلك الأفكار والذكريات التي كانت تلازم جميل فرّان أو التي لم تكن الّا أفكار جبرا وذكرياته . (١) وهذا يشير بوضوح الى الشبه الشديد بين جبرا وجميل فرّان الذي سيترتب عليه تعاطف جبرا معه ، وعنايته به .

ما ان ينزل جميل فرّان في بغداد حتى يبدأ الحظ بمخالفته والسير في ركابه ، حتى أن سائق السيارة التي استقلّها جميل ليحمل له عن فندق يقيم فيه لم يجد بدّا من احترام هذا الشاب والامتثال لأوامره ، فنراه يأخذه الى عدد من الفنادق ، وجميل يرفض النزول في أيّ منها لأنها غير نظيفة . وحين يقرر جميل النزول في أحد تلك الفنادق ، لم تعجبه أغطية السرير فيأمر بتغييرها ، فيغيرونها له في الحال . وفي ذلك الفندق يرى فتاة جميلة فيحسبها موسا ، ولمجرد هذا الظن يقرر مغادرة الفندق لا لجوه بمقّته وكبريائه . (٢) وبعد يوم أو يومين من وصوله الى بغداد ، يخرج من الفندق الذي استقرّ فيه أخيرا

---

(١) أنظر سيادون ... ، ص ص ١١٥ - ١٢٥ .
(٢) انظر : المصدر نفسه ، ص ص ٩ - ١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ص المدينة ، وهناك تفوده قدماه الى زقاق مظلم وسخ ، وما ان يمضي فيه حتى يتبيّن له أنّ هذا الزقاق وكر للومسات ، فيقفل راجعا رغم تشبّث ولئك النسوة به وحرص كل واحدة منهن على أن تفوز به دون غيرها ، وعلى مدخل ذلك الزقاق ، يصادف شابا ، فيظنّه قوّادا ، غير أنّ منظر الشاب يدلّ على غير ذلك " أنّ . لعله قوّاد - ولكنه أصغر من أن يكون كذلك - وشكله لا بأس به " (١) .

ترى لماذا يصرّ جبرا على أن يعطي لشخصية جميل هذه الصفات التي تبدو من تصرّفاته ، فهو قوّي الشخصيّة لم يحل فقره الى جانب غربته دون أن يبقى متمسكا باحساسه بتفوّقه على الآخرين ، ولذلك فهو لا يرضى بما يرضون به ، وهو يعطي لنفسه حق اصدار الأوامر للآخرين ، وليس للآخرين الاّ تنفيذ أوامره ، والاستسلام لشخصيته المهيمنة وهو بعد كل ذلك عفيف يحرص كل الحرص على نقائه وعلى سمعته . أليس معنى ذلك أنّ جبرا يتماطف مع هذه الشخصيّة ويريد لها أن تكون مثاليّة متفوّقة على الآخرين ؟

وبعد أن يستقر جميل في بغداد ويبدأ بمزاولة عمله في الكليّة . يلفت اليه أنظار الجميع ، فتبدأ كثير من الأسر المرموقة بالتمرّف عليه ، ودعوته الى بيوتها ، حتى أن احدى محاضرات جميل طبعت منها ثلاثة آلاف نسخة فنفذت في يوم واحد (٢) . وبسبب هذه الشهرة والنجاح الذي صادفه جميل في عمله ، تستدعيه سلمى الربيضي وتتمرّف عليه ، وترجوه أن يتفضل باعطاء بعض الدروس الخاصّة لابنة أختها سلافة ابنة عماد النفوس الوزير المتقاعد . الا أن هذه الدعوة تكون مقدّمة لأشياء أخرى ، فتتململ سلمى هذه بجميل ، وتبدأ هي بمصارحته بهواها له ، وتأخذ ترتب له مواعيد اللقاء بها في شقّة

---

(١) أنظر صيادون .. ، ص ٣٤ .

(٢) صيّادون في شارع ضيّق ، ص ص ١٢٢ - ١٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thes

لزوجها غير مسكونة (١) الا أنّ جميلا يظل يترفق بنفسه عن هذه السيّدة ، ويعتبر علاقته بها مجرد علاقة جسديّة عابرة ، وسلمى تعرف بحقيقة شعوره نحوها ، وبأنّه يحب ابنة أختها سلافة ، الا أنها تظل راضية بالتطفّل عليه ، وسلافة ابنة الوزير المتقاعد لم تجد فارس أحلامها الا في شخص جميل هذا فتبادر هي الى حبّه ، والى الكشف له عن مشاعرها نحوه ، فتتصل به تلفونيا ، بعد أن أعطاها الدرس، وعاد الى شقّته ، وكأن جبرا يريد أن يقول لنا أن جميل فرّان لم يكن يأبه أو يهتم بسلافة أو سلمى ، ولكنّه كان يتكرّم بالاستجابة لتهالكهما وتهافتهما عليه . وحين يعزم توفيق الخلف على الزواج من سلافة ، يؤيده في ذلك رغبة أبيه ، ونفوذه ،وقبول والد سلافة ، واغتباط أحمد الربيضي وزوجته سلمى ، تهرب سلافة ، وتلجأ الى جميل ليخلّصها من ذلك الزواج الذي لا تريده ، فيتدخل جميل ، ويستدعي توفيقا الى شقّته ويخبره عن الحب المتبادل بينه وبين تلك الفتاة ، وعن عدم رغبتها في الزواج منه ، ويقنعه بالعدول عن هذا الزواج .
أيّة قوّة سحريّة يملكها جميل هذا حتى يقنع توفيقا بهذه البساطة ، بمسألة يعتبرها توفيق جزءا من كرامته وكبريائه . وفي نهاية القصّة ، يستدعي أحمد الربيضي جميلا ليأمره بالابتعاد عن سلافة بعد وفاة والدها ، ويهدده باستخدام نفوذه بطرده من عمله ، فلا يكون من جميل الا أن يواجه أحمد الربيضي بكل تحدّ وقوّة ، وبالتالي تحسم الأمور لصالحه ، ويتزوّج من سلافة ،أن حظّ هذا الذي يعالف جميلا هذا أينما توجّه .

ولود بن عسّاف صورة قريبة جدا من صورة جميل فرّان فهو فلسطيني هاجر بعد النكبة الى الكويت، وعمل في التجارة الى أن أصبح ثريا ، وهو مثقّف مثل جميل تماما ، فهو يحمل شهادة جامعيّة ، وهو شديد التعلّق بوطنه

---

(١) صيادون في شارع ضيّق ، ص ص ١٧٢ - ١٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السليب وبذكريات الطفولة في ذلك الوطن ، تماما هو الحال بالنسبة لجميل أيضا ، غير أن وديعا هذا يبدو أكثر حيويّة وتفاعلا مع الآخرين من جميل فرّان . فجميل كان يبدو متحفظا حذرا في تعامله مع الآخرين ، مما جعله في كثير من الأحيان يبدو وكأنه مجرد مراقب للأحداث ، لا صانعا لها ، أما وديع فيكاد يكون عنصر الحركة والحيويّة بين مجموعة المسافرين على ظهر تلك السفينة " لا أذكره الا وهو يتكلم ... كان وديع يتكلم بحرارة ، ويضحك بحرارة . (١)

وهذه الصفة تنسجم مع طبيعة تجربة الفلسطيني بعد النكبة ، فجميل كان خارجا للتوّ من نكبة ١٩٤٨ ، وكان أسير الذهول والخوف الذي خلّفته تلك النكبة ، فمن الطبيعي اذن أن يتعامل مع الآخرين بشيء من التحفّظ ، أما وديع فقد ساعدته السنوات العديدة بعد النكبة ، وتجربته في الحياة في الكويت على التخلّص من هول صدمة النكبة ، وبالتالي فهو أكثر شعورا بالطمأنينة من جميل ، ولذلك فهو لا يتحفّظ في تعامله مع الآخرين . وديع أيضا يتمتّع بتلك الشخصيّة الجذابة المحبوبة ، المهيمنة فهو " طويل ، تنحني كتفاه انحناءة المتحمس لما هو أمامه ، وشعره الأسود الكثّ مصفّف بعناية المتأنق المهتمّ بمظهره وهو كما يقول عن نفسه رومانسي في قضايا الحب والجنس ، وهو يؤمن بأن الجسد هو الحقيقة الوحيدة التي لا يستطيع أحد دحضها . وهو يؤثر الحياة البدائية ، وينظر الى التقدّم نظرته الى تفاقم حالة مرضية . (٢) وهو رجل ليس من السهل خداعه أو استغفاله فقد علّمته تجربته كفلسطيني أنه في عصر الكذب والخداع " السفينة على كندرتك . قلنا الصدق حتى بحّت حناجرنا ، وأصبحنا

---

(١) السفينة ، ص ١٥ .

(٢) أنظر السفينة ، ص ١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا جئين في خيام ، توهمنا الصدق في أم العالم ، وإذا نحن ضحيّة سذاجتنا" (١). وهو بعد ذلك كله رسّام وله ولع شديد بالنساء " أحبّ النساء من كل نوع ، من كل لون " (٢) . الاّ أنّ العاطفة الحقيقيّة التي يحسّها هي عاطفة دينيّة" أنا ان كان لدي عاطفة حقيقية ، فهي عاطفة دينيّة ، صوفيّة ان شئت . تتحرك عواطفي بموسيقى الكنيسة " (٣) . أما وطنه السليب فهو مشكلته الأولى والأخيرة كما يزعم ، فما زالت تنتابه في الليل ذكريات طفولته وشبابه في مدينة القدس، فيبكي بمرارة ، وهو يخطّط للعودة الى ذلك الوطن ليبني له بيتا في أرضه في حلحول ، فيزرع تلك الأرض ، ويتزوج من خطيبته الدكتورة مها وينجب منها عشرة أولاد . (٤)

وبهذه الشخصيّة الفنيّة استطاع وديع أن يأسر قلوب المسافرين على تلك السفينة ، النساء والرجال على السواء . فجاكلين الفرنسيّة تتعلق به ، ويختلي بها عدة مرات ، ولم ترَ فيه رجلا مؤنسا مثقفا ، وبعض الطالبات المصريّات اللواتي كن على ظهر السفينة يعجبن به ، وخطيبته الدكتور مها الحال لا تصبر على غيابه عنها في رحلة فتترك أعمالها وتلحق به ، وفرناندو الاسباني يكاد يعبده من شدّة حبّه له ، وعصام السلماني يقول " لو خيّر لودين أن يقول لي اقفز في البحر لفعلت " (٥) ،ويقول عن جاذبيته وصيغة شخصيته " لم يدهشني أن تتعلق به جاكلين تعلّق الكلب بصاحبه . حتى اميليا كانت قد بدأت تسرقف حوله كطير يلذّ له الوقوع في الفخ ، ويوسف حداد ومحمود الراشد ، وفرنندو ،

---

(١) أنظر السفينة ، ص ١٦ .

(٢) السفينة ، ص ١٨ .

(٣) السفينة ، ص ١٦ .

(٤) أنظر السفينة ، ص ٤١ .

(٥) السفينة ، ص ١٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حتى الخدم والملاحين لم يكونوا في منجى من شخصيّته " (١)

أما وليد مسعود فلا يختلف كثيرا عن جميل فرّان ، أو عن وديع عسّاف بل هو أكثر شبها بوديع منه بجميل . من ناحية توكينه النفسي ، وليد هذا ، عاش طفولته في حارة حورة النسناس في القدس ، وقد كان أبوه يعمل بوابا لأحد الأديرة الى أن توفي بحمى النساء ، فكفلت وليدا هذا أمّه (٢) . وأرسلته الى أحد الأديرة ليتعلم هناك ، لكنه فرّ مع اثنين من صبيان الدّير الى أحد الأديرة للانقطاع للتعبد والزهد . غير أن الدير لاحقهم وأعادهم الى حظيرته . ثم انّ وليدا هذا أرسل في بعثة الى ايطاليا لدراسة اللاهوت ، فرغب عنه ودرس الموسيقى ، وأخيرا عاد الى وطنه . وهو كجميل فرّان ووديع عسّاف ألجأته النكبة الى الهجرة ، فهاجر الى بغداد وعمل في البنك العربي ، ثم تحوّل الى التجارة الحرّة ، فحقق ثراء طائلا . ووليد هذا من مواليد برج الجدي ولذلك اتصف بصفات مواليد هذا البرج ، كخفّة الحركة ، والطاقة الجنسية الهائلة والمظهر الخدّاع ، حيث يبدو عليهم الوقار والرصانة ، في حين يخفون الخلاعة والحسّيّة في أعماقهم . (٣) ووليد هذا يحب الكلام ويتلذذ بالألفاظ تماما مثل وديع عسّاف . تقول عنه احدى عشيقاته ، مريم الصفّار : " وليد يميل الى طلاقة اللسان ، يتلذّذ بالألفاظ ، عربيّة كانت أم انجليزية تلذذا واضحا " (٤) .

---

(١) السفينة ، ص ١٠١ .

(٢) لاحظ الشبه بين وليد مسعود وجبرا نفسه ، جبرا عاش في حورة النسناس وكان أبوه يعمل في دير الى أن توفي بحمى النساء .

(٣) أنظر : البحث عن وليد مسعود ، ص ١٣٨ .

(٤) ، ص ١٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو مفكر وكاتب له عدّة مؤلفات منشورة كالانسان والحضارة "، و" المفرد ز "، و" المتمدد المطلق "، و" البئر " . وهذه المؤلفات صادفت رواجا كبيرا حتى أصبح وليد علما بارزا في مجال الفكر والأدب . أما مسألة الوطن فهي أكثر بروزا في حياة وليد منها في حياة ودي ، فوليد عضو بارز في منظمات المقاومة الفلسطينية ، وقد قام ببعض العمليات الفدائية في فلسطين ، وصادف من ألوان التعذيب في زنزانات المخابرات ألوانا كثيرة (١) ، كما أن ابنه مروان ، ابن الرابعة عشرة ، عضو أيضا في تلك المنظمات وقد استشهد في احدى عملياته الجريئة في فلسطين . (٢)

زوجة وليد ، ريمة ، تعاني شيئا من الجنون ، وهذا يحزن وليدا ويحزّ في نفسه . وبسبب هذه المكانة الاجتماعيّة والأدبيّة التي يحظى بها وليد ، الى جانب طيبته وسخائه ومساعداته الكثيرة للآخرين ، حظي باحترام الجميع ومحبّتهم ، يستوي في ذلك الرجال والنساء ، فالدكتور جواد حسني ، والدكتور طارق رؤوف ، وابراهيم الحلاق نوفل ، وكاظم اسماعيل ، كلّهم يجلّون وليدا ويعتبرونه مثالهم الذي يقتدون به أو يتمنّون أن يكونوا مثله ، خاصة صنيعته عامر عبد الحميد . أما النساء فمعظمهن متيّمات به ، رغم انه جاوز الخمسين من العمر ، ولم يكن هو يتردد في أن يقيم لنفسه علاقات غراميّة مع كل أولئك النسوة ، فقد كان على علاقة حب بجنان الشامي ، ووصال رؤوف ، ومريم الصفّار ، وسوسن عبد الهادي .

وفجأة يترك وليد كلّ هذا النعيم ، وكلّ ثروته في بغداد ويختفي ، وحين يبحث عنه لا يكشف البحث الأمني سيارته التي تركها على الحدود الاردنيّة العراقيّة ، وفيما بعد يتضح أنّه عاد الى فلسطين ليمارس عمله في صفوف المقاومة .

---

(١) البحث عن وليد مسعود ، ص ص ٢٤١ - ٢٤٣ .

(٢) ص ص ٢٠٧ - ٣٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعد أن تعرفنا الى هذه الشخصيات الفلسطينية الثلاث يمكن أن نستخلص مجموعة من الصفات المشتركة فيما بينها ، بحيث تبدو لنا وكأنها شخصيّة واحـــدة ، وهذه الصفـــات هي :-

١ . جميع هذه الشخصيّات تحمل شيئا من ملامح جبرا نفسه ، فكـــل واحدة من هذه الشخصيات ، تنحدر من أسرة فقيرة من أسر مدينة القدس ، وكمثل واحدة منها لها علاقة بالفنّ أو الفكر أو الأدب ، فبميل فرّان أستاذ أو محاضـــر في كليّة ، وجبرا عمل محاضرا في احدى كليّات جامعة بغداد ، وود يـــــح رسام ، وجبرا رسام أيضا ، ووليد مسعود مفكر وكاتب ، وجبرا كذلك . وجميع هذه الشخصيات تدين بالدين المسيحي ، وجبرا يدين بهذا الدّين ، كما أننـــا لا نجد بين هذه الشخصيات شخصيّة واحدة تلتزم بفكر معين أو عقيدة واضحـــة ، وجبرا كذلك ، والشبه القائم بين كل من هذه الشخصيات من جهة ، وجبـــرا من جهة أخرى ، يجعلها تتشابه فيما بينها الى الحد الذى يكاد يجعلهـــا نموذجا للشخصيّة الفلسطينيّة ، التي يحاول جبرا رسمها وتحديد ملامحها .

٢ . الشخصيات الثلاث السابقة شخصيّات مدوّرة ، والشخصية المدوّرة لهـــا صفتان أساسيتان ، الأولى أنها " قادرة على اثارة الدهشة فينا بطريقة مقنعة" (١) بمعنى أنها تتأثر بما يجرى لها من أحداث ، ويتغير سلوكها ، وردود الفعـــل عندما تبعا لما تمرّ به من أحداث وتجارب خلال القصّة . والثانية أنها تستطيـــع " أن توقظ فينا أية مشاعر فيما عدا الهزل " (٢) بمعنى أنها تناسبها المواقـــف

---

(١) أ.م. فورستر : أركان القصّة ، ترجمة كمال عياد جاد ، دار الكرنك للنشـــر والتوزيع ، مطبعة الوحدة ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٩٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٩٥ .

- أنظر اريك بنتلي : الحياة في الدراما ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا مؤسسة فرانكلين ، بيروت - نيويورك ، ١٩٦٨ ، ص ص ٥٠ - ٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التراجيدية .

جميل فرّان تأثر بتجربة العميش في بغداد ، وبما شاهد من أحداث ، ولذلك تخلى عن دور المتقن المراقب للأحداث الذي التزم به في البداية ، وتحوّل الى دور الفاعل المؤثر في الأحداث . ولذلك يتخلى عن تردده في حب سلافة ، ويتحمّس له ، ويتدخل فيحول دون زواجها من توفين الخلف ، ثم يتقدّم لخطبتها رغم تهديدات أحمد الربيضي .لم يعد ذلك الخائف المتردد ، أما الجانب التراجيدي في شخصيّته ، فيكفي أن نعرف أنه فلسطيني تشرّد بحثا عن لقمة العيش . أما وديع عسّاف فلم تكن الفترة الزمنية للرواية وهي مدة أسبوع تقريبا كافية لاجراء تغييرات واضحة في شخصيته ، الا أن استعادته لشريط ذكرياته وسنوات حياته السابقة يشير الى أنه يتأثر بوضوح بما يجري له من أحداث ، فقد كان ككل الفلسطينيين طيبا صادقا بريئا الى أن اغتصب وطنه وطرد منه ، فتأثر بهذه التجربة القاسية وأصبح كما يقول عن نفسه " أنا مقامر عريق لا يأخذني " البلف" بسهولة " (١) .

وأمّا وليد مسعود ، فحسبنا دليلا على تأثره بما يجري له من أحداث ،أنه قرر في نهاية الأمر ترك كل ثروته وعلاقاته الاجتماعيّة والغراميّة في بغداد ، والالتحاق بفصائل المقاومة ، وهذا مدهش حقا ولكنه كان مقنعا بما مهد له القاصّ من اخبارنا من البداية بأنه عضو بارز في منظمات المقاومة . وحسبنا دليلا على الجانب التراجيدي في تلك الشخصيّة جنون زوجته ، واستشهاد ابنه في ريعان الشباب ، وحسد بعض الأصدقاء وتنكرهم له ، كما فعل معه كاظم اسماعيل (٢) .

---

(١) السفينة ، ص ٤٥ .

(٢) البحث عن وليد مسعود ، ص ص ٥٦ - ٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣ . الشخصيّات الثلاث السابقة شديدة التعلق بالوطن السليب ، وكل واحدة منها تحتفظ بموقف بطولي قامت به نحو الوطن ، جميل فرّان ، شارك في المظاهرات التي أعقبت نكبة ١٩٤٨ ، وحاول أن ينظّم من لفيف غيره من الشباب عرائض احتجاج الى الأمم المتحدة ، وأن يطالبوا الدول العربية المجاورة بتزويدهم بالسلاح ، وهذا كل ما كان يمكنه أن يفعله في ذلك الحين ، وود بن عسّاف ، اشتبك مع جنود العدو في معركة حامية ذهب ضحيتها صديقه فايز عطا الله ، واضطر هو الى حمل جثة صديقه والعبور بها عبر متاريس العدو ، تحت ستار الظلمة ، حتى أوصلها الى أهل ذلك الصديق الحميم ، بعد أن انتقم لصديقه بتدمير احدى سيارات العدو بما فيها من جنود . (١) ووليد مسعود يحتفظ بذكرى نسفه لشارع سوميخ عام ١٩٤٨ ، وبذكرى تعذيبه في سجون العدو (٢) ، وهو لما يزل عضوا بارزا في المقاومة .

٤ . الشخصيّات الثلاث السابقة متعلّقة بالجسد ، وهي شخصيّات تحظى باهتمام النساء واعجابهن :

فجميل فرّان تعلّقت به سلافة النفوس ، وخالتها سلمى الربيضي ، رغم فارق السن بينهما ، ورغم كونها زوجة لشخصية مرموقة ، وقبل مجيئه الى بغداد تعلّقت به ليلى شاهين . وود بن عسّاف ، حظي باحترام لمى وهب جاكلين ، وخطيبته منها ، وأميليا الايطاليّة التي لم تمكنها الظروف من الفوز به . ووليد مسعود ، ولعله أوفرهم حظا من هذه الناحية ، تعلقت به مجموعة من النساء ، أمثال جنان التاجر وسوسن عبد الهادي ، ومريم الصفّار ، ووصال رؤوف ، التي كانت تصغره بثلاثين سنة . ولدى الحديث عن وليد مسعود لا بد من الاشارة الى الشبه بينه

---

(١) أنظر السفينة ، ص ص ٦٠ - ٧١ .

(٢) أنظر البحث عن وليد مسعود ، ص ص ٢٤٢ - ٢٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis

مصطفى سعيد في روايه (موسم الهجرة الى الشمال " للطيّب صالـــــح ، هذه الناحية بالذات، ناحية شهوانيّة واقبال النساء عليه . (١) لكن لماذا صرّ جبرا على الصاق هذه الصفة ، الخصوبة الجنسيّة ، بالشخصيّة الفلسطينيـــة ؟ يبدو أن جبرا متأثرا من هذه الناحية بألبيرتومورافيا كما قلنا في مكان سابـــق من هذا البحث،أو أنه اعتمد على بعض معطيات علم النفس التي ترى أن الغريزة الجنسية تنشط عند الانسان أو الحيوان اذا أحسّ أنه مهدد بالفناء . والانسان الفلسطيني مهدد بشتّى الأخطار، فلا غرو اذن أن تنشط لديه الغريزة الجنسيّة ، باعتبارها عنصر المحافظة على البقاء .

أما الفئة الثانية من الشخصيّات الفلسطينية في روايات جبرا ، وهـــي الفئة التي تمارس حضورها بطريقة غير مباشرة ، فيمكن تسميتها بشخصيّات الضحيّـة الوطنية (٢) وكلّ شخصيّة من هذه الشخصيّات متعلقة باحدى الشخصيّات الثلاث الأولى التي تمارس حضورها بطريقة مباشرة . ليلى شاهين متعلّقة بجميـــل فرّان ، وفايز عطا الله متعلّق بوديع عساف ، ومروان متعلّق بأبيه وليد مسعود . ليلى شاهين نسف العدو بيت أهلها في القدس وذهبت ضحيّة تحـــت الردم ، وفايز عطا الله قتله جنود العدو في تلك المعركة التي يذكرها لنـــا وديع ، وفايز هذا يشبه جبرا شبها كبيرا فهو أيضا ابن أسرة فقيرة تعيـــش في حيرة النسناس في القدس ، وهو أيضا رسام ، حتى ملامح وجهه تشبه ملامـح وجه جبرا ، فهو " نحيف الوجه ، كبير الأنف ، واسع العينين " (٣)

---

(١) أنظر عبد الجبّار عبّاس : في النقد القصصي ، وزارة الثقافة والاعلام العراقية ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ١٢٨ .

(٢) أنظر فاروق وادي : ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية ، ص ١٥٨ .

(٣) السفينة ، ص ٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thes

ومرواد التحق بفصائل المقاومة واستشهد في احدى العمليات داخل الوطن المحتلّ . ومن هنا أخذت هذه الشخصيّات تسميتها .

لكن أين نضع أميس سمّاع بطل رواية " صراع في ليل طويل " ؟ تلك الرواية لا ترتبط بزمان محدّد ولا بمكان يمكن تحديده على خارطة الوطن العربي ، فما هي هويّة أميس ؟

أميس شاب قرويّ ، فقير ، يعمل صحفيا ، وله بعض الكتب أو الروايات المنشورة الجيّدة . تعرّف الى سميّة ابنة أحد التجار الأثرياء بطريق الصدفة ، حيث وجدها على دراجتها النارية في احدى الغابات تحت سياط المطر فدعاها الى بيته ، فلبّت الدعوة دون تردد ، ثم نشأت بينهما قصّة حبّ ، وأخيرا تزوجته رغم معارضة أهلها ورفضهم لأميس ، ثم ما لبثت أن هربت من بيت الزوجية بعد عامين من ذلك الزواج . وأميس على علاقة جيدة بعنايت هانم وأختها ركزان ، سليلتي احدى الأسر التركيّة العريقة ، وقد كلّفته عنايت بكتابة تاريخ أجدادها العظام ، من السجلّات والأضابير التي تحتفظ بها في القصر الذي ورثته عنهم . وحين تموت عنايت ، تتمثّل ركزان بأميس هذا وتعرض عليه الزواج منها الا أنّه يتردد في ذلك ، وأميس أيضا كان على علاقة جسديّة مع دانية زوجة رشيد .

وحين تعود سميّة الى أميس بعد اختفائها تلك المدة الطويلة يرفضها رغم توسّلاتها وتهافتها عليه . هذا هو أميس ، ابن أسرة فقيرة ، مثقّف ، أديب ، صحافي ، له حظوة عند النساء ، وله علاقات جيدة بالأسر المرموقة ، وبالمثقفين ، الا أن مسألة هروب زوجته تفسد عليه حياته . أليست هذه صفات الشخصية الفلسطينيّة ؟ لو جرّدنا شخصيّة جميل فرّان وودي عسّاف ورشيد مسعود من تبعات النكبة وما تركته في نفوسهم وفي مسار حياتهم ، لوجدنا أنهم يشبهون أمينا هذا تماما ، فحين نستثني مسألة الوطن السليب ، ومسألة الهجرة بحثا عن الرزق وما صاحبها من أحداث ، في حياة كل من أولئك الفلسطينيين الثلاثة ، سنجد أنهم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مجموعة من المثقفين ، أو الموهوبين ، الذين لهم حظوة عند النساء ، ولهم علاقات جيدة مع أسر المجتمع الراقي .

وحين نعرف أن " صراع في ليل طويل " كتبت عام ١٩٤٦ أي قبل النكبة ، سنجد أنّه من الممكن جدا أن يكون أمين سمّاع شخصيّة فلسطينية ، أضف الى ذلك الشبه الواضح بينه وبين جبرا نفسه ، فكلاهما ابن لأسرة فقيرة ، وكلاهما مثقّف ، وروائي .

وشخصية أمين شخصيّة مدوّرة أيضا ، كشخصيّات جميل وودين ووليد ، حتى اسم أمين على الوزن نفسه الذي كانت عليه أسماء اولئك الفلسطينيين ، " فعيل " .

ب . شخصيّة المثقّف غير الملتزم بايديولوجية معيّنة

هذا المثقف غالبا ما يكون غنيا ، أو ينحدر من أسرة غنية ، أو تنطبق عليه مقولة ـ الولد الشقي ـ . وهذه الشخصيات تحظى باهتمام أقل من الاهتمام الذي تحظى به الشخصيّة الفلسطينية التي تمارس حضورا مباشرا في الرواية . ولذلك تكون الأدوار المسندة اليها في الرواية أقل تأثيرا من تلك المسندة الشخصية الفلسطينية التي تمارس حضورا غير مباشر في الرواية ، أو الشخصية الفلسطينية الضحية .

وكما هو التشابه واضح بين الشخصيات الفلسطينية ، فانه يظهر هنا أيضا بين عدد من هذه الشخصيات . ولعل أبرز هذه الشخصيات على الاطلاق ، عصام السلمان ، ذلك المهندس العراقي الشاب ، الذي حال دون زواجه من حبيبته لمى قتل أبيه عمّها ، في خلاف كان بينهما على الأرض . وحين تزوجت لمى من الدكتور فالح ويئس عصام من امكانية اللقاء معها ، المؤقت أو الدائم ، رحل على ظهر تلك السفينة ، ليطوّف في الأقطار الأوروبية ، ويسرّي عن نفسه ، لكنه فوجئ بلمى وزوجها على ظهر السفينة نفسها . عصام هذا " يشبه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جليزيا متنكرا في زي أعرابي . أتصوّره يقارب الثلاثين ، كثير الأسئلـــــة ، ة أيضا حسن الاصغاء ، ويسخر من نفسه ببراعة لا بدّ جاءته من ممارسة فكريـــة ترفض الغرور في الذات كما في الآخرين " (١) . وهو خريج احدى الجامعات البريطانية ، ولا بد أنه ميسور الحال ، ولكنه غير ملتزم بايديولوجية محدّدة . كان له آمال عراض في ثورة سنة ١٩٥٨ ، ولكنها خابت بعد الثورة ، وتخلّى عـــــن تلك الافكار التي تربطه بتلك الثورة . فكيف تعاطف جبرا مع عصام ؟

أول مظاهر تعاطف جبرا مع عصام أنّه جعله يقاسم رديع عسّاف رواية أحداث الرواية ، وفي هذا ما يدلّ على أهميّة الدور الذي ينيطه جبرا به ، وحيـــــن نفرغ من قراءة الرواية نجد أنه هو بطل الرواية لا منازع ، بمعنى أنّه الشخصيّـــة المحوريّة الفاعلة في الأحداث . فلولا عصام لما حجزت لمى لها ولزوجهـــا على ظهر تلك السفينة وفي الدرجة التي ينزلها ، ولولاه لما رقصت لمى علـــى أنغام أغنية لأم كلثوم يبثها الراديو الذي يحمله فرنندو ، وبالتالي لما تشاجرت مع زوجها أمام الجميع ، ولولاه لما تخلّفت عن الرحلة التي نظمها القائمون علـــى السفينة الى احدى المناطق الايطاليّة الجميلة لتلتقي به ، ولولاه لما وجـــدت لمى من يساعدها وينظم أمر عودتها الى أهلها بعد انتحار زوجها . وثانـــي مظاهر تعاطف جبرا مع عصام أنه حقق له عددا من اللقاءات والخلوات مـــع حبيبته داخل السفينة ، وزاد على ذلك أن جعلها تتخلف عن تلك الرحلـــة بحجة المرض لتقضي يوما بكامله معه ، متنقلين بين فنادق المدينة ومطاعمهـــا وشوارعها ، بل انه شفى غليل عصام من غريمه الدكتور فالي ، زين لمى بأن جعـــل فالحا هذا ينتحر ، وفي اللحظة التي كان فالي يعاني فيها سكرات الموت ، كان عصام مع لمى في غرفته المجاورة لغرفه الطبيب المنتحر ، وبذلك يكون قـــــد حقق لعصام مجموعة من المفاجآت السارة الآنيّة ، وفتح أمامه بابا لمستقبـــــل

---

(١) السفينة ، ص ٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis

علاقته بلمى . بل زاد على ذلك أن جعل له نصيبا من أمليا الايطاليّة ، عشيقه الدكتور فالى ، وجعل التاجر شوكت أبو سمرة ، شريكه في الثمرة على ظهر السفينة يتعلل به أيضا ، ويترك له هديّة من الحلوى عند مغادرته للسفينة . (١)

ومن تلك الشخصيات عامر عبد الحميد ، ذلك المقاول العراقي الكهل الثري . عامر هذا درس الاقتصاد في أحد الجامعات البريطانية ، وكان ذا ميول شيوعيّة في بواكير شبابه ، ثم ارتدّ عن تلك المبادئ ، وأصبح لا يؤمن الا بالتكنولوجيا وهو قبل كل ذلك سليل أسرة عريقة معروفة بالوطنيّة ، فقد كان جدّه يناهض العثمانيين ، وكان أبوه يقاوم الانجليز ، غير أنّ عامرا هذا يختلف عن أبيه وجدّه ، فهو لا يكاد يقرأ شيئا بالعربيّة ، وكلّ ما يعنيه في هذه الحياة هو كيف يحقق عن طريق ثروته الكبيرة أقصى قدر من المتعة الذهنيّة والجسديّة ، ولذلك فهو شديد العناية والحرص على مطبخه الخاص ، وعلى عطوره وخموره الأجنبيّة الثمينة . (٢) وحريص على اقامة أكبر عدد من الحفلات والمآدب التي تحفل بأشهى الأطعمة ، والتي يدعى اليها الأدباء والأثرياء والجميلات وقد ساعده على أن يعيش هذا النمط من الحياة الى جانب ثروته ، زوجته الانجليزية التي تحرص على رضاه ، واسعاده ، ولو على حساب عيشها في الظلّ من حياته .

لم يكن لعامر هذا دور فعّال في أحداث الرواية ولكن جبرا أصرّ على التعاطف مع هذه الشخصية ، فأحاطها بهالة من الاحترام ، والاعجاب ، فجعل بيت عامر هذا منتدى شخصيّات الرواية وموئلهم الذي يفيئون اليه ، وينعمون بما يقدّم لهم فيه من ألوان الطعام والشراب .

وفي بيت عامر هذا تنشأ كثير من قصص الحب بين المدعوّين والمدعوات فوليد

---

(١) أنظر : السفينة ، ص ١٦٦ .

(٢) أنظر : البحث عن وليد مسعود ، ص ١٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مسعود تمرّ الى وصال رؤوف في حفلة أخرى في المكان نفسه .

ومن هنا كانت شخصيّات الرواية كلّها تحب عامرا وتحترمه ، حتى وليد مسعود أحب فيه ذكاءه وشخصيّته البرّاقة الجذّابة . وزاد جبرا على ذلك أن جعل عامرا هذا منافسا قويا لوليد مسعود في قضايا الحب والنساء فقد كان على علاقة بسوسن عبد الهادي ، ومريم الصفّار ، قبل أن تعرف وليد مسعود . ومن أن جبرا أراد لهذه الشخصيّة أن تكون مؤثرة في الأحداث . الا أنه لم يوفّق في ذلك ، فعامر عبد الحميد بالنسبة لنا لا يعدو كونه رجلا يمتلك بيتا جميلا وثروة كبيرة ، تمكنه من استضافة لفيف من الشباب ، من الفينة والأخرى . وبعبارة أخرى ، لا تساوي هذه الشخصيّة الا بيتها وثروتها ، لا أكثر . وبالتالي فهي شخصيّة سلبيّة نمطيّة ، لا تؤثر في الأحداث ولا في الشخصيّات الأخرى ، من جهة ، ولا تتأثر هي بالأحداث أو بالشخصيّات الأخرى ، من جهة ثانية .

وكذلك هي الحال بالنسبة للدكتور جواد حسني ، الذي جعل بيته موئلا لشخصيات الرواية ، وكلف نفسه عناء اعداد كتاب عن حياة وليد مسعود ، فهو شخصيّة نمطيّة ، وصورته لا تختلف كثيرا عن صورة أي أستاذ جامعي معني بالبحث عن الحقيقة مهما صغر شأنها .

جـ . شخصيّة المتمرّد أو التأثر المثالي :

من بين تلك الشخصيات التي يولها جبرا كثيرا من عنايته وحبّه ، نجد ثلاث شخصيّات محوريّة تجمع بينها عوامل نفسيه كثيرة ، ولذلك فالتشابه بينها واضح . ويمكن أن نطلق على كل شخصيّة من تلك الشخصيات وصف - الولد الشقي - هؤلاء الثلاثة هم : عدنان الطالب ، وحسين عبد الأمير ، وابراهيم الحاج نوفل .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عدنان الطالب ذلك الشاب البوهيمي الذي اعتدى على الخادمة فطرده أبوه من البيت، ذهب يتسكع في الشوارع، ويلقي خطبه السياسية على أصدقائه، ويسمعهم قصائده، التي تنذر بالويل والثبور. عدنان هذا ترك ثروة والده العقيد المتقاعد، وترك أمه بعد وفاة أبيه، وذهب ليعيش في أحد الأكواخ القذرة عيشة بؤس وعوز، وصبره في ذلك أنه شاعر وثائر على السلطة، ويسعى لتغيير ذلك النظام القائم، وهو يريد أن يحل بالبشرية الدمار والخراب ليبدأ هو ببنائها على طريقته الخاصة، ومن كل ذلك فهو لا يفتأ يتنقل بين حانات المدينة ومواخيرها ومقاهيها.

وصديقه حسين عبد الأمير أيضا شاعر، يعيش اللون نفسه من الحياة التي يعيشها عدنان، ويحمل الأفكار نفسها، والطموحات التي يحملها صديقه. ولكنه يستعين على حياته التعيسة تلك بالعمل في احدى الصحف ليكسب ثمن لقمة الخبز. وهو متعلق باحدى الموسمات، ويزورها بين الحين والآخر ليلقي على مسامعها ما نظم فيها من قصائد، بل انه قرر الزواج منها وأخذها الى بيته، لكنها خيبت أمله وهربت من بيت الزوجية.

عدنان وحسين متمردان شابان، ولهما أفكار غريبة في تغيير المجتمع، هي تدمير كل ما هو موجود، والعودة الى نقطة الصفر والبداية من جديد، لكن ليس لأي منهما أي تصور محدد لما يريده بالضبط، ولا كيف يحققه بدقة، والسبب واضح، وهو عدم التزامهما بايديولوجية واضحة المعالم. عدنان يمكن ان نعتبره بطل رواية " صيادون في شارع ضيق " (١). فقد كان هو العنصر المسير للأحداث، الموجه لها، وهو أيضا يتأثر بتلك الأحداث تأثرا بلغ به حد التفكير في الانتحار هو وصديقه حسين احتجاجا على مطاردة الشرطة لهما، لكنهما فشلا في تلك المحاولة (٢)، وبعد أن أنقذا من محاولة

(١) أنظر: د. محمد عصفور: صيادون في شارع ضيق، مجلة الآداب حزيران ١٩٧٤، ص ٤٠. حيث يقول " من السهل، أو من الواجب فنيا، أن نعد عدنان طالب بطل الرواية ".

(٢) أنظر: صيادون ... ص ص ٢٤٣ - ٢٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الانتحار يتوجه الى بيت عمه عماد النفوس ويقتحم البيت عليه ويهينه ، ويحاول خنقه لولا أنّ الأخير مات تلقائيا . واضح أن هاتين الشخصيتين من أكثر شخصيّات الرواية قدرة على الادهاش المقنع ، فلم نكن نتوقّع من عدنان أن يحاول خنق عمّه أو أن يحاول الانتحار ، ولم نكن نتوقّع من حسين أن يتزوج عشيقته المومس ، أو أن يشارك صديقه محاولة الانتحار .

أمّا ابراهيم الحاج نوفل ، فهو خريج احدى كليّات الاقتصاد في لندن ، وكان ذا ميول يساريّة في بداية شبابه ، الا أنّه ارتد عن هذه الميول تماما كما كان عامر عبد الحميد . عمل فترة معلما للأبجدية الانجليزيّة ، وعمل خبيرا تجاريّا في الدائرة التي كان يرأسها زوج مريم الصفار ، الا أنه لم يكن ينسجم مع أية وظيفة ، فهو ينظر للوظيفة على أنها عبوديّة جديدة ، لذلك ترك أمر الوظيفة وانخرط مع مجموعة من الرسامين ، وأخذ يكتب مقالات صحفيّة في نقد الأعمال الفنيّة ، بعد أن أقلع عن كتابة المقالات في الاقتصاد والتجارة . ولم تكن كتاباته هذه تعود عليه بما يكفيه ، لذلك كان يعوّل في نفقات حياته على ثروة أبيه الذي كان يدلله باعتباره الولد الوحيد له بين أربع من البنات .
لم يكن ابراهيم هذا يثق بانسان ، فهو لا يرى في الناس الا الشر والذلّ والخسّة ، ولذلك كانت عبارة " كلهم خونة " (١) دائما على لسانه ، وهو لا يتردد في أن يشارك في مظاهرة لا يعلم من أمرها شيئا " كم مرّة في لندن مشيت مع المتظاهرين وأنا لا يهمني بالضبط ما الذي يتظاهرون بشأنه ، انهم ضد شيء ما قائم . وأنا ضدّ كلّ شيء قائم " (٢) . وهو مهووس بالنساء اللواتي فيهن مسّ من الجنون ولذلك كان مفتونا بريمة زوجة وليد ، وبمريم الصفّار تلك التي تعاني من هوس جنسي

---

(١) البحث عن وليد مسعود ، ص ٢٠٤

(٢) المكان نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يكاد يصل بها حدّ الجنون .

من الصعب أن نتنبأ بتصرّفات هذه الشخصيّة ولذلك فهي قادرة على أن تأتي بكل ما هو مقنع، بمعنى أنها شخصيّة مدوّرة . والشبه بين هذه الشخصية وعدنان وحسين واضح جدا .

ومن بين هذه الشخصيّات ، شخصيّات المثقفين غير الملتزمين بايديولوجية محددة شخصيّة توفيق الحلت، هذه الشخصيّة المتميّزة ، المدهشة ، النادرة الوجود بكل صفاتها في الواقع. فتوفيق شاب دون الثلاثين ، خريج كليّة الحقوق ، وابن للشيخ عبد الله الحلت أحد كبار شيوخ القبائل . ولكنه مع كل ذلك يصرّ على العيش في مضارب العشيرة ، ويتصرف بعقلية شيخ قبيلة ، فالفنّ عنده هو الغاز الشامّ الذي يفرزه مستنقع المدينة (١) ، والمدينة أو التطوّر في نظره هو أكبر مصيبة حلّت على البشريّة ، ولذلك فهو لا يجد خلاصا للبشرية الاّ بترك المدينة ، والعودة الى الصحراء ، الى الحياة البدائية البسيطة ، وبهذه الطريقة تعود للنساء عفّتهن بعد أن حولتهم المدينه الى موسسات أو مساحقات، وتعود للرجال فحولتهم أو رجولتهم ، التي فقدوها في مقاهي المدينة . (٢) وبالرغم من عداء توفيق للمدينة وكلّ معطيات الحياة فيها ، الا أنّه لا يستطيع الاستغناء عن حاناتها ومواخيرها ، فهو لا يفتأ يتردد على هذه الأماكن . وفي الوقت الذي نجده فيه يدعو للعودة للصحراء ، نجده معنيا جدا بقضيّة فلسطين ، فما ان يصادفه أن فلسطيني حتى يشمر توفيق بالخجل ، خاصة من السدس والحزمة المتاد التي يصرّ على حملها تحت عباءته ، اذ الأولى به أن يقاتل بهذا السلاح في فلسطين لا أن يحمله في حانات بغداد ومواخيرها .

---

(١) أنظر : صيادون .. ص ٩٦ .

(٢) أنظر : صيادون .. ص ٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الصعب أن نجد شبيها لتوفيق في حياتنا العادية ، كما أنه من الصعب أن نحدّد موقف جبرا من هذه الشخصيّة ، فهو يحب هذه الشخصيّة ولكنه غير مقتنع بما تمارسه من فعل ، أو ما تنادي به من أفكار .

يبدو لي أن هذه الشخصيّة ، هي أقرب الشخصيّات الى نفس جبرا ، واكثرها شبها به من ناحية موقفه من الحضارة ، هذه الشخصيّة هي محصلة امتزاج فكرتين متناقضتين ، فكرة تدعو الى مواكبة روح العصر ، والسير مع معطياته حتى آخر الشوط ، وفكرة تدعو الى ادارة الظهر لكل معطيات هذه الحضارة الجديدة ، والتوجّه الى الحياة البدائية البسيطة . وهاتان الفكرتان تلحّان على ذهن جبرا الحاحا شديدا ، وقد عبّر عنهما في معظم أعماله القصصيّة ، على شكل صراع بين الماضي والحاضر ، بين القديم والجديد ، في المجتمع . وها هو يجسّد الصراع بين هاتين الفكرتين في شخصيّة توفيق هذا ، وبعبارة أخرى نستطيع القول انّ شخصيّة توفيق هي التجسيد الحقيقي لمشكلة جبرا أو أزمته في تحديد موقفه من الحضارة أو المدنيّة ، ولذلك وصف جبرا هذه الشخصيّة على لسان عبد القادر ياسين بقوله :-

توفيق الخلف مشكلة ، مشكلة كبيرة . (١)

ومن هذا يتضح لنا أنه لا يمكن اعتبار شخصيّة توفيق شخصيّة نمطيّة كما توهم بعض الباحثين . (٢) . اذ من الصعب التنبؤ بتصرفاتها ، لأن تصرفاتها

---

(١) صيادون ... ، ص ١٠٠ .

(٢) أنظر : د . واصف ابو الشباب ، صورة الفلسطيني في القصّة الفلسطينية المعاصرة ، ص ١٢٦ ، حيث اعتبر توفيقا وعدنان شخصيتين هشتين جوفاوين .
- محمد المبارك ، دراسات نقدية في النظرية والتطبيق ص ٢١٦ ، حيث يقول عن شخصية توفيق " هي مجرد فرية ذهنيّة أراد بها الكاتب أن يوشي موقفا معينا من الصحراء " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما هي الا تعبير عن صراع بين قطبين كبيرين يحتدمان في داخلها ، ومن الصعب جدا التنبؤ بنتيجة ذلك الصراع .

وبالرغم من تماطل ببدرا من كلّ من شخصيّات الفئة الأولى ، الا أنه كثيرا ما كان يتدخّل في شؤون بعض الشخصيّات ، فيجعلها تقول مالا ينسجم مع طبيعتها أو مالا يتفق مع واقع اللحظة التي تعيشها ، مما كان يفقد تلك الشخصيّات الكثير من واقعيتها أو قدرتها على الاقناع ، ومثال ذلك تدخله في شخصيّة فايز عطا الله ، حين جعله يقول وهو يستحم من ودي عسّاف في احدى عيون الماء ، وهما ما زالا صبيين " هنا الجذر . هنا الرحم "(١) . لا نستطيع أن نصدّق أن هذا الكلام يصدر عن صبي في عمر فايز ، وتدخله في شخصيّة ودي عساف الذي جعله يتذكّر مقتل صديقه فايز ، وهو بين ذراعي عشيقته جاكلين . (٢)

وتدخله في شخصيّة وليد مسعود عندما جعله يصف وصال رؤوف ، صارخا في وجهها اخرسي . اخرسي .

ان كان يحق لي أن أحبّك وأنا أقارب الخمسين ، واقاتل الدنيا من أجلك وأنا أقارب الخمسين ، ألا يحق لي أن أحبّ بلدي ، وأقاتل الدنيا من أجله حتى لو قاربت التسعين ؟" (٣) ، لمجرد أنها تماثله على ذهابه للاشتراك في أحداث أيلول في الأردن ، وهي لم تفعل ذلك الّا خوفا

---

(١) السفينة ، ص ٥٩ .

(٢) أنظر : واصف ابو الشباب ، ص ١٣٦ .

(٣) البحث عن وليد مسعود ، ص ٢٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليه ، وحرصا على بقائه بجانبها . فهل نصدق أن وليدا بحكمة الكهل وخبرته الطويلة من المرأة ، يرد على وصال بهذه الطريقة ؟ وكيف نصدق أن وليدا هذا ترك سيارته على الحدود العراقية الأردنية لماذا لم يستخدمها حتى يصل الى عمّان على الأقل ؟ كلّ هذه تصرفات أقحمها جبرا على شخصيّاته ، رغما عنها .

ثانيا : شخصيّات الفئة الثانية :-

بقدر ما كان جبرا يتماطف مع شخصيات الفئة الأولى ، ويحبها ، ويظهرها لنا بمظهر رموز النجاح والخير والفضيلة ، كان يتحامل على شخصيّات هذه الفئة ويكرهها ويظهرها لنا بمظهر رموز الاحباط والفشل والرذيلة .

وشخصيات هذه الفئة تنقسم الى ثلاث مجموعات كبيرة ، هي : المثقفون الملتزمون بايديولوجية محددة ، والبيروقراطيون والمتزمتون ، والمرأة بشكل عام .

أ . المثقفون الملتزمون بايديولوجية محدّدة :

لم يتحامل جبرا على أيّ من الشخصيات ، بمقدار ما تحامل على هذه المجموعة من الشخصيات ، وهي الشخصيات التي تدين بالاشتراكية ، أو تتحيّز لليسار بشكل عام . وأعلام هذه المجموعة هم : عبد القادر ياسين ، وكريم ، ومحمود الراشد ، وكاظم اسماعيل .

لم يترك جبرا فرصة للنيل من عبد القادر ياسين الا واغتنمها ، فهو يصفه لنا من الخارج وصفا لو تخيّلناه لما ارتحنا لصورة ذلك الانسان " شاب طويل الشعر ، ضامر الوجه ، له عينان كبيرتان عميقتا المحجرين ، يظلل أسفلهما هلالان من الزرقة . وخدّاه العظيمان وفكاه المربعتان توحي كلها بشكل جمجمة حيّة" (١) . ويضيف جبرا لهذه الصورة غليون عبد القادر الذي لا يكاد يبرح مكانه في فم ذلك الشاب . وبالاضافة الى كل هذه الصفات مقطّب ،

(١) صيادون ... ، ص ص ٦٠ - ٦١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دائم العبوس، لا يبتسم الا اذا اضطر لذلك، وكل شيء عنده مشكلة . أمّا مبادئ عبد القادر وأفكاره، فقد كان يسخر منها جبرا على لسان عدنان أو لسان توفيق الخطيب بطريقة ينقصها التهذيب، الى جانب بعدها عن الموضوعيّة فلا يجد جبرا كلاما يقوله توفيق لعبد القادر عندما يقول عبد القادر انه يفضّل اقتناء السيارة على اقتناء الجمل، أفضل من " سيارة تشتريها بنصرن ... " (١) ولا يجد جبرا كلاما يقوله توفيق أيضا لعبد القادر عندما يحتدم بينهما النقاش أفضل من قوله " يا ابن ال .. لقد رأينا أمثالكم في عرب فلسطين ... مألأتم الدنيا كلاما وتشدّقا، ولكن في ساعة العمل تحجّرت مفاصلكم" (٢) ولا أفضل من قوله " ليس فيكم ذرّة من ايمان، هذه هي بليتكم" (٣) ولا يجد جبرا كلاما يقوله عدنان في لحظة سكره الا قوله " لا شيء سوى فوضى صارخة، وعبد القادر يرفع غليونه من بين أسنانه الصفراء ليتبّ من بول الشعب" (٤) أو قوله " لا أريد فنّ عبد القادر وهو يقوّد للفقراء والأمّيين" (٥) . من السطور السابقة نجد أن جبرا حاول ايذاء عبد القادر بثلاث وسائل : الأولى أنه رسم له صورة خارجيّة منفّرة، والثانية أنه كال له من الألفاظ البذيئة على لسان توفيق وعدنان مالا يحتمل، والثالثة أنه أنكر عليه صدق انتمائه وتمسّكه الفعلي بمبادئه وأفكاره، وحاول اظهاره بمظهر الدعيّ .

أما كريم، صديق عبد القادر، فقد قدّمه لنا جبرا على أنه بيغاء يكرر ما يقوله سيّده أو صديقه عبد القادر، واكتفى بوصفه بأنه " ظل ذليل لعبد القادر " . (٦) .

---

(١) صيادون ... ، ص ٩٦ ـ الكلمة المحذوفة كلمة بذيئة .
(٢) ص ٩٦
(٣) ص ٩٦
(٤) ص ١٠٦
(٥) ص ١٠٧
(٦) ص ٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما محمود الراشد ، فلم يكتف جبرا بالسخرية منه وايذائه ايذاءً معنويا وحسب ، بل ذهب الى أبعد من ذلك بأن حاول أن يعذبه جسديا ، بمنتهى القسوة . فمحمود أستاذ جامعي ، ويسارن عصيم ، يحمل درجة الدكتوراة في القانون من جامعة جنيف ، وله كتب تدل عناوينها بوضوح على هويته الفكرية ككتابه الذي أهداه لوديع عساف " شرعيّة السلطة بين الدستور والثورة" (١) ومحمود هذا لقي عنتا شديدا من مطاردة رجال الأمن في بلده التي لا يعرفها أحد من المسافرين على السفينة ، فاضطر للهجرة الى أوربا للعمل في احدى الجامعات ، ولمتابعة نشاطه الحزبي فيما يبدو . وكما فعل جبرا مع عبد القادر عصيّ رسم لنا مظهره الخارجي ، فعل مع محمود الراشد فقدّم لنا صورة له تدعو الى الضحك اذا لم تدع الى الاشمئزاز " كان أول ما لفت نظري في محمود الراشد ، قصر قامته ، وأنه رغم قصره رجل لا نستطيع تجاهله ، كان رأسه كبيرا ، شعره القصير أشبه بفرشاة مسطحة تقادم عليها العهد ، فتآكلت في أماكن كثيرة . له عينان كبيرتان ، أو هكذا تحسبهما اذ تبرقان من وراء نظارته الغليظة المدستين والاطار . يصرّ صوته صريرا اذا نطق ، ولكنه صرير وئيد عنيد ، يثير الأعصاب أول الأمر الى أن تعتاد عليه فتنتبه الى ما يقوله ، ثم تنسى صوته وتشعر بالتحدّث الذي يجابهك به فتضطر الى أخذ الحذر فيما تقوله لئلا يسفّه منك كل رأي" (٢) . ومحمود هذا من الناحية النفسيّة مثال للجحود والأنانيّة والجبن ، فقد ضحك مرّة في غرفة الصف ، حين كان تلميذا في المدرسة بحضور المدير ، وعندما سأل المدير التلاميذ من الذي ضحك ؟ لم ينبس محمود بكلمة ، وكان أن اتهم المدير أحد التلاميذ الأبرياء ، وضربه ضربا مبرّحا حتى يعترف بذنبه أو يدل على المذنب ، الا أن ذلك التلميذ رضي بذلك العذاب ولم يقل ان محمودا هو الذي ضحك . ومحمود رضي لزميله أن يعاقب على ذنب اقترفه

---

(١) السفينة ، ص ٢٣ .

(٢) ص ص ١٠٧ - ١٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هـــو (١) .

ومحمود هذا لا يمنعه تقدّم العمر ، ولا ثقافته وشهاداته العالية من مطاردة بعض الفتيات اللواتي في عمر بناته ،لو كان له بنات، بنوايا خبيثة (٢) فهـــــو رجل لا يتردد في قبول أن امرأة " مأساتي هي أنني لم أتشبث يوما بامرأة ، أحبّهن جميعا ، دميمات، جميلات ،سمر، شقر، هات ما عندك " (٣)

أما عن الناحية الفكرية من شخصيّة محمود فتتلخّص في قوله عن نفســـــــــه" التحدي الأهم، بالنسبة الى ، هو السلطة . السلطة كشرعة اتفق عليها البشـــر منذ أيام السومريين والفراعنة . أين الحد الفاصل بين السلطة والاستبداد بين السلطة كرعاية ، والسلطة كاستغلال ؟

السلطة كتنفيذ لارادة الأمة ، والسلطة كتنفيذ لارادة العشر الواحـد ، فـــي حين الأعشار التسعة الأخرى" . (٤)

لم يكتف جبرا بالسخرية من محمود عن طريق رسم صورة خارجية له منفّـرة ، ولا عن طريق الطعن في انسانيته وشجاعته الأدبيّة ، ولا عن طريق الطعـــن في أخلاقياته ، بل لجأ الى تعذيبه بشتى الوسائل فجعل كل من في السفينـــة يعامله بحذر وشيء من عدم الارتياح ، وجعل النساء ، في السفينة ،يهربـــن منه فيظلّ يعاني من مرارة الحرمان والخيبة ، وجعله يتغيب نادل السفينـــة أحد رجال المغامرات الذين عذبوه فيما مضى في زنزاناتهم ، فيصاب بحالـــة عصبيّة تكاد تصل به حدّ الجنون ، ولم يستطع كلّ المسافرين الحيلولة بينـــه

(١) أنظر تفصيل الحكاية في السفينة ص ص ١٠٩ - ١١٢ .

(٢) أنظر : السفينة ، ص ١٣٥ ، حيث كان محمود يطارد طالبة مصريـــة على ظهر السفينة ، وهي تصدّ عنـــه .

(٣) السفينة ، ص ٣٣ .

(٤) = ، ص ١٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبين الناد ن المسكين الا باستدعاء الطبيب وحقنه بمسكن ما ، ليغفو وهو يهذ ن " أمسكوه . د خيلكم . أين هرب الكلب ـ نمر المجمي ، يا ود ين . شهرين كاملين . ستين يوما عذبني . بالكرباج . وعلّقني بالمروحة . وحبسني في المرحاض . وسقاني بولي " (١) . أليست هذه القصة محاولة من جبرا لتعذيب محمود ، أو للتشكيك في سلامته العقليّة ؟

والشخصية الأخيرة في هذه المجموعة هي شخصيّة كاظم اسماعيل ، وكاظم محام تجاوز الخامسة والثلاثين دون ان يحقق شيئا من طموحاته ، فهو محام فاشل لدرجة أنه يعتمد في نفقات حياته اليوميّة على ما يكسبه أبوه من تجارته بالجلود . صحيح أنّه حقق شيئا من الشهرة في مجال الكتابة ، فقد كان شاعرا وناصا وناقدا بارعا ، الا أنّه لم يكن يشعر بالرضى ، لا عن نفسه ولا عن الآخرين ، فانطوى على نفسه يعاني مرارة الخيبة والوحشة من كل شيء " أمر واحد لم يعترف به كاظم لأحد ، لم يعترف به حتى لوليد : شعوره بالوحشة ، شعوره بأنّ كل ما كتبه لم يحقّق له حلما واحدا من أحلامه.لقد أضحى كلما ارتدّت عينان نحو ماضيه ، يرى طريقا طويلا مقفرا تحيط به بضع نخلات عجاف ،ويرى نفسه يمشي الطرين جيئة وذهابا ـ وحده.لم يكن يرى نفسه الا منفردا ، يتخلّى عنه رفاقه أو يتخلّى عنهم ، فتكاد البصقة تندفى الى شفتيه" . (٢) وقد زاد من خيبة كاظم ووحشته انه لم يوفّق أيضا في حياته الزوجيّة ، فقد تزوج من ماجدة الصبّاغ الا أنه طلّقها ،أو طلقّته هي على الأصح ،بعد سنة من ذلك الزواج ، ثم انّه

---

(١) السفينة ، ص ١٣٦ .

(٢) البحث عن وليد مسعود ، ص ٥٤ .

ـ أنظر غالب هلسا : قراءات نقدية ، ص ص ٩٤ ـ ٩٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تقدّم لخطبه سوسن عبد الهادي فرفضته بحجة التفاوت فيما بينهما في العمر. واضافة الى فشل كاظم واحباطاته المديدة نجد جبرا يسخر من مظهره الخارجي فيقول عنه: "ارتفعت كتفاه بعد به بائسة، غار فيها رأسه". (١) ولم ينس جبرا أن يضع حبّة بغداد على أرنبة أنف كاظم امعانا في التشويه. وحتى لا يترك لنا جبرا منفذا للتعاطف مع كاظم هذا، فقد جعله سيء الظن بالناس حاقدا لا يرعى حرمة لصديق، ولا يتورّع عن ايذاء اقرب الناس اليه بحجة حرصه على الموضوعيّة. فحين ينشر وليد أحد كتبه القيمة، ويتلقّفه القرّاء بمنتهى الحرص والاعجاب، تأكل الغيرة أو الحسد قلب كاظم، فيكتب مقالة يهاجم فيها الكتاب، ويتهم وليدا رغم ما بينهما من صداقة، بالبرجوازيّة. (٢) وحين يرى كاظم شدّة تعلّق ابراهيم الحاج نوفل بوليد، واحترامه له، يفسّر ذلك بوجود علاقة معينة بين ابراهيم وريمة زوجة وليد. وحين ينشر كاظم أحد كتبه، فتهاجمه احدى المجلات اللبنانيّة، من غير اشارة الى صاحب المقالة التي تتناول الكتاب، يتهم ابراهيم أيضا بأنه هو الذي هاجم كتابه. (٣) ولعل كلّ هذه الأمور والتهم والتشنيعات لم تشف غليل جبرا من ذلك المحامي التعيس، فأراد أن يعذّبه جسديا كما عذّب محمود الراشد من قبل، فجعل وليد يصادف كاظما هذا في ليلة ماطرة باردة في أحد الأزقة، فيركبه معه في سيارته، ويبدأ بمعاتبته على تلك المقالة التي هاجم فيها كتابه، واتهمه فيها بالبرجوازية، ويبدأ وليد بكيل الشتائم والاهانات لكاظم، وكاظم يتلقاها بصمت أو ببرود، وأخيرا يصلان الى

---

(١) البحث عن وليد مسعود، ص ٤٨.

(٢) أنظر: البحث عن وليد مسعود، ص ٥٩.

(٣) أنظر: المصدر نفسه، ص ٣٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منطقة خالية من البيوت أو سيارات الأجرة ، مليئة بالحفر والمطبات ،وهنـــــاك يقف وليد باب السيارة ، ويلتقي كاظما على الأرض تحت المطر ورحمة الأقـــدار ، ويقفل راجعا بسيارته،الا ان انسانيّة وليد ألحت عليه ، فرجع الى كاظم وحملـــه معه ثانية الى بيته ، بعد ان ذاق من البرد والمطر أشد العذاب . (١) ولعـــل جبرا أحسن بتعامله الشديد على كاظم فخشي أن ينتبه القارئ الى ذلـــك فلجأ الى ترضية كاظم وتحسين وضعه المزري ، بأن جعله في نهاية الروايـــة ، يتزوج من جناب التاجر ويصبح مديرا عاما لاحدى المؤسسات . (٢)لكـــن يجب أن لا ننسى أن زواج كاظم لا يعني له شيئا كبيراوخاصة من جناب التـــي عرفت قبله عدة رجال ،وأن تسلّمه ذلك المركز الوظيفي ، يعني تصفية له كيســـارث يناهض السلطة القائمة .

ب. البيروقراطيّـــون أو المتزمّتـــون .

أبرز ما يميز هذه الشخصيّات هو حرصها على الظهور بمظهر الرجـــل المحترم الرزين ، مع أنها خليعة في داخلها أو تعاني من نقطة ضعف كبيرة تفسد عليها حياتها ، وهذه الشخصّيات غالبا ما تكون تتمتع بمركز وظيفي جيّد ، كـــلّ همها الحرص على ذلك المركز والظهور بالمظهر اللائق أمام الناس . وقـــد سخر جبرا من هذه السخصيات ،وأظهر ضعفها وانهيارها مـــن الداخـــل بأن قدّم كل واحدة منها لنا في صورة الزوج المخدوع أو الزوج الضعيف أمام زوجته . وباستثناء شخصيّة واحدة من هذه الشخصيات هي شخصيّة الدكتـــور فالح نجد أنّ هذه الشخصيّات مجرد ظلال لشخصيات أخرى ، أو انها دخلـــت

---

(١) أنظر الحكاية في البحث عن وليد مسعود ، ص ص ٦٠- ١٥ .

(٢) أنظر : البحث عن وليد مسعود ، ص ٣٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى جو الرواية التي تضمنتها ، دخولا عابرا ، لم يترك أيّ أثر فيها ، وكأن القاص ما أتى على ذكر هذه الشخصيّات الا ليسخر منها ، ويظهر خواءها وعجزها . من هذه الشخصيّات نجد في " صراخ في ليل طويل " ، والد سميّة ، سليمان شنّوب ورشيد بطرس . فسليمان شنّوب تاجر صنع نفسه بنفسه كما يقول ، ولذلك ما ان جلس الى جون سمّاع هيون تقدّم لخطبة ابنته سميّة حتى أخذ يعظه قائلا " لا يعجبني من الناس الّا من كان مغامرا ، يقدم على كل ما هو جديد دون خوف " (١) وقد توحي لنا هذه العبارة أن صاحبها رجل مغامرات وصاحب شكيمة لا تلين ، لكن المفاجأة تكون عندما تدخل زوجة هذا الرجل وهو لما يكمل موعظته بعد ، فيهبط قلبه ، ويمسك لسانه ليتبدأ تلك الزوجة بالتفاهم مع ذلك الشاب بالطريقة التي تعجبها ، وبين السباب والشتائم ، وبالتالي طرد ذلك الشاب من البيت ، دون أن يجرؤ ذلك الرّوي على التفوّه ولو بكلمة واحدة ، وكل ما فعله هو ان توجه لابنته سميّة بصفعة وكلمة " اخرسي يا قليلة الحياء " عندما صرخت الفتاة في وجه امها وأعلنت انها ستتزوج ذلك الشاب رضيا أم رغما عن أنفسها أم لم يوافقوا . (٢) وقد وفّر علينا جبرا البحث عن وصف دقيق لذلك الزوج فوصفه لنا بأنه "مسخ بدين" .

أما رشيد بطرس ، فقد وصل الى مركز وظيفي جيد ، وهو قانع به ، وبزوجته الثانية ، رشيد هذا مثال للموظف البيروقراطي الصميم ، الذي لا يهمه من هذه الدنيا الا وظيفته وحياته الأسرية ، وقد سخر منه جبرا بأن جعله زوجا لأمرة " لا تضيّع فرصة من فرص النهوض " . (٣) وتبلغ سخرية جبرا من

---

(١) صراخ في ليل طويل ، ص ١٦ .

(٢) أنظر : المصدر نفسه ، ص ص ١٦ - ١٧ .

(٣) صراخ ... ، ص ٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رشيد هذا ذروتها عندما يتحدّث لنا عن جلسة لرشيد وزوجته دانية وأمين وفارس وعمر، في أحد المقاهي حيث يدور بين هؤلاء الرجال حديث عن المرأة بشكل عام وعن جسدها بشكل خاصّ، ويتخلل هذا الحديث كثيرا من الالفاظ والعبارات السوقية التي ما كان ينبغي لرشيد السماح بقولها أمام زوجته، ولكن رشيد كان مرتاحا لتلك الجلسة، ولا ينسى بين اللحظة والأخرى أن يحوّط خصر زوجته بذراعه أو أن يداعب وجهها أو شفتيها بمنتهى الاعتزاز بها، مع أنها في تلك اللحظات بالذات كانت تتبادل النظرات المريبة مع أمين الذي اختلى بها ذات يوم (١) .

وفي صيادون في شارع ضيّق، نجد أحمد الربيضي وعماد النفوذ. أحمد عضو في مجلس الأعيان يحرص كل الحرص على الظهور بما يتناسب مع مركزه، سواء في هندامه وتصرفاته أو في طريقة تعامله مع زوجته سلمى . فهو لا يمانع في أن تسافر زوجته بمفردها الى أي بلد تريد، وهو لا يمانع في أن تقيم زوجته الحفلات والمآدب التي تدعو اليها من تشاء من الرجال أو النساء، ولكنه ينسى أن زوجته تستغل هذه الثقة منه، أو حرصه على الظهور بمظهر الرجل المتحرّر وتقيم لها علاقات غرامية مع من تريد من أولئك المدعوين الى بيتها . لم يجد جبرا بدا من السخرية من هذا الرجل، فجعله عقيما لا ولد له رغم زواجه من سنين عديدة من سلمى، وجعل زوجته تلقي بنفسها بكل تطفّل في أحضان ذلك الشاب الفلسطيني المغترب جميل فرّان، وجعله ضعيفا يخشى سطوة الشيخ عبد الله الخلف وعشيرته، وجعله ضعيفا حتى أمام جميل فرّان، يوم طلب اليه أن يبتعد عن سلافة . (٢)

---

(١) أنظر : صراخ ... ، ص ص ٣١ - ٤٤ .

(٢) أنظر : صيادون ... ، ص ص ٢٥٨ - ٢٦١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما عماد النفوس فهو وزير متقاعد ، ويعاني من صعوبة التوفيق بين عقليته الرجعية ، وبين ما يتناسب مع مركزه الاجتماعي ، فوضعه الاجتماعي يحتّم عليه ان يؤمن بتعليم المرأة وتثقيفها ، وبالتالي فعليه أن يرسل ابنته الى الجامعة لتنال حظها من التعليم ، أما عقليّته التي لم تتطوّر الى مستوى مركزه ذاك ، فترفض أن يسمح لابنته بالذهاب الى الجامعة حيث يمكن أن تختلط بالرجال، ويمكن أن يكون لها علاقة بواحد منهم ، ولذلك قرر أن يحضر لابنته تلك مدرسا يعلّمها الانجليزية في البيت ، وكان ذلك المدرس جميل فرّان ، ولم يطمئن قلب ذلك الوزير الى وجود ابنته مع مدرّسها منفردين ، فكلّف خادمه عبد ابملازمة المدرس أثناء وجوده ، مع سيدته التلميذة ليحول دون قيام علاقة عاطفية بينهما فكانت النتيجة عكس ما توخى ذلك الوزير المتقاعد ، اذ قامت علاقة حب بين ابنته ومدرّسها رغم وجود عبد ، وانتهت أخيرا بالزواج رغم اختلاف ديانتهما ، وزاد جبرا على ذلك امعانا في السخرية ، بأن جعل عبدا هذا يكتشف وجود العلاقة العاطفيّة بين سيدته واستاذها ، فسوّلت له نفسه اغتصاب الفتاة أثناء غياب أهلها عن المنزل ، ولم تنج الفتاة منه الا بشقّ النفس . وأمعن جبرا في سخريته من عماد النفوس ، بأن جعل ابنته سلافة تهرب من البيت ، حين أراد تزويجها من توفيق الخلف ، غصبا ، وتلجأ الى حبيبها جميل لينقذها من ذلك الزواج المرفوض . وأخيرا جعل عدنان أبن أخ عماد النفوس ، يقتحم عليه البيت ويهينه ويحاول خنقه ، الا أنّ عمادا مات في اللحظة نفسها تحت تأثير النوبة القلبية التي يعاني منها .

وفي " البحث عن وليد مسعود " نجد شخصيّة هشام الصفّار، فهو مدير عام لاحدى المؤسسات ، وهو مثال جيّد للمدير الصارم المتزمّت ، الجادّ في عمله حتى ولو على حساب راحته أو سعادة أسرته ، وباختصار شديد هو أقرب الى أن يكون وظيفة من أن يكون انسانا . لكن هشاما هذا يخفي تحت

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جمود ه ورزانته الظاهريين شخصا عربيدا فاجرا . فهو لا يرى بأسا في أن يرسل زوجته في رحلة للاستجمام الى لبنان ، ليدعو في غيابها احدى عشيقاته الى بيته ، وفي البيت يريها كامبرا البولوريد الثمينة التي سيهديها اياها ، ويأخذ لها مجموعة من الصور في مختلف الأوضاع المزرية ، وفي اليوم التالي لفعلته هذه يدعو مدير الدوائر في مؤسسته ويخطب فيهم بحماس ليحملهم على اتخاذ أشدّ العقوبات بحق كل من تسوّل له نفسه من الموظفين الخروج على الأخلاق " هؤلاء الخارجون على تقاليد هذا الشعب . الداعون الى الاباحية ، المستغلّون سذاجة الفتيات . . . يجب معاملتهم بأقصى الشدّة يجب سنّ القوانين لتغريمهم ، واقالتهم وسجنهم ، لاجتثاث جراثيم الفساد من المجتمع " (١)

ويتضح لنا مقدار سخرية جبرا من هشام هذا ، حين يجعل عشيقته تلك عشيقة لكثير من الرجال الذين تحدثهم عمّا يجري بينها وبينه من لقاءات ، (٢) وحين يجعل زوجته مريم مصابة بهوس جنسي يدفعها للتنقّل من رجل لآخر دون حرج، فتكون على علاقة بعامر عبد الحميد، ووليد مسعود ، وطارق رؤوف تباعا ، وفي اللحظة التي كان هشام مع عشيقته تلك كانت مريم زوجته مع وليد في لبنان . وأخيرا جعل جبرا مريم تهجر هشاما هذا ،فيأخذ باسترضائها ومتابعتها من بيت لبيت بمنتهى المذلة والهوان ، دون جدوى ، وأخيرا يتم الطلاق بينهما (٣)

أما الشخصيّة المتميزة بين هذه المجموعة من الشخصيّات فهي شخصيّة الدكتور فالح عبد الحسيب ، وهي شخصية أقرب الى شخصيات مجموعة الملتزمين

---

(١) البحث عن وليد مسعود ، ص ٣١٨ .

(٢) انظر المصدر نفسه ، ص ص ٢١٨ - ٢٣٠ .

(٣) انظر : المصدر نفسه ، ص ص ٢١٠ - ٢١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بأيد يولوجيّة معيّنة منها الى مجموعة شخصيّات المتزمّتين ، ومن هنا يمكن اعتبارهما حلقة وصل بين تينك المجموعتين من الشخصيّات : فهي **تلتقي** مع مجموعة **الأيد يولوجيين** من ناحية الثقافة والرفض لأوضاع الأمة السياسية والاجتماعية والفكرية ، في حين أنها تختلف معهم في الالتزام بأيد يولوجية واضحة . وهي تلتقي مع مجموعة المتزمتين من ناحية وضعها في موضع الزوج المخدوع ، ومن ناحية الرزانة في الظاهر والخلاعة في الباطن ، ولكنها تختلف عنهم من ناحية الحساسيّة وتوقد الذهن . وتحامل جبرا على هذه الشخصيّة لم يقف عند حدّ السخرية او الاتهام بالاحباط والفشل والحقد ، أو التعذيب ، كما فعل مع محمود الراشد وكاظم اسماعيل ، بل تعدّى ذلك الى حدّ الحكم على هذه الشخصيّة بالموت .

فالى هذا ، ابن لاحدى الأسر البصراوية الغنية التي انتقلت لسبب أو لآخر الى بغداد ، وقد درس الطبّ في بريطانيا ، وكان له مكانة مرموقة بين زملائه في الجامعة حين كان طالبا . وهو اليوم جرّاح مشهور . تزوّج هذا الطبيب من احدى قريباته وهي لمى ، ولم يكن يعلم أنها كانت على علاقة حب بعصام السلمان أيام كانا طالبين في الجامعات البريطانية . ولعلّ أبرز ما يميّز شخصيّة هذا الطبيب الحساسيّة المفرطة والذكاء الحادّ ، وهو ينظر للامور نظرة علميّة بحتة . تصفه عشيقته أميليا فتقول : " طويل القامة ، كثّ الشارب أشبه بممثل سينمائي محبّ التمثيل ، على شيء من الخجل ، قليل الكلام ، ولكنه اذا تكلم لا يتردد في الافصاح عن رأيه مهما يكن جارحا " . (١) وتقول عنه : " اذا تحدّث فانه أميل للسخرية والغضب مصمما بعناد على عزلته النفسية " (٢) .

---

(١) السفينة ، ص ١٦٠ .

(٢) ، ص ١٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول عنه ود يع عسّاف " فالح بيروتياني ، متزمّت ، يخشى اللذّة " (١) . أمـــا هو فيقول عن نفسه " ميلي الى الكحول جزء من ميلي المعين الصامت الى النيـل من نفسي ، الى تجريح ذاتي " (٢) وبسبب حساسيّة فالح المفرطة ، وذكائـه الحادّ ، وثقافته الواسعة ، الى جانب خيبة الأمل التي أصابت المثقفين العراقيين بعد ثورة ١٩٥٨ ، أصبح فالح لا يرى في الدّنيا شيء سوى الشر والسوء ، والعفن والفساد " الدودة في قلبي . كما في قلوب الآخرين " (٣) و " اننا في عصـــر الدودة ، دود ، دود ، دود . الدودة في كل شيء . يتهالكون ويتكالبـــون ويتهافتون ، بعضا على بعض ، كالدود . يتآكلون كالدود ، يعيشون ثـــم يموتون كالدود . " (٤)

سوداوية فالح هذه الى جانب نزعته الماسوشيّة هي ما سمّاه جبرا بمـرض الشيزوفرينيا . أن أن فالحا يعاني من مرض صعب . وهذا المرض هو المسؤول عـن انتحار فالح فيما بعد . فحين يسافر فالح وزوجته لمى على ظهر تلـك السفينـة ، ويبدأ فالح يحس بوجود علاقة مريبة بين زوجته وعصام السلمان تزداد عذاباتـه ، الاّ أن هواجسه وظنونه تتأكد لديه حين يرى زوجته **بأمّ عينه** برفقة عصام في أحـد الشوارع بعد (٥) أن أخبرته أنها لن تستطيع الذهاب معه في الرحلة التـي نظّمها القائمون على السفينة لاحدى المناطق الايطالية الجميلة ، بحجة أنهـا مريضة ، هنا تتأكد لفالح خيانة زوجته ، وقد زاد من حرجه ، وحساسيّته نحـو هذا الموضوع أن عشيقته أميليا كانت معه في تلك اللحظة ، ورأت لمى مـــع

---

(١) السفينة ، ص ١١٦ .

(٢) ص ٢١٦ .

(٣) ص ٢١٩ .

(٤) ص ٢١٩ .

(٥) أنظر : السفينة ، ص ١٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عشيقها . وبعد أن يعود الجميع للسفينة يقرر فالح أن ينتحر ، وينفّذ ما عزم عليه في تلك الليلة .

يبدو لي أن انتحار فالح ليس مقنعا ، فعقليّة فالح العلميّة ، التي لا ترى في الحب الا مجرد افرازات كيماويّة ، (١) وتوقّعه للشر من أنّ انسان كان ، لا يمكن أن يجعلا لخيانة زوجته كل هذا الأثر الكبير ، الذي يسوّغ له الانتحار . وقد يقول قائل ان انتحار فالح كان نتيجة تراكمات عديدة كان آخرها خيانة زوجته ، ولكن يجب أن لا ننسى أنه ذو نزعة ماسوشيّة ، وأصحاب هذه النزعة يقبلون على تلقّي المنغّصات بشيء من الرغبة ، وبالتالي فهم يفضّلون الاستمرار في عذاباتهم على التخلّص منها بالموت . ولكن رغبة القاص في تعذيب هذه الشخصية وايذائها ، هي التي سوّغت له الحكم على فالح بالموت ، بعد أن عذّبه بالنفسيّة التي منحه اياها ، وبخيانة زوجته له ، وبعجزه حتى عن الاختلاء بزوجته ، الا اذا كان ثملا . وقد يكون جبرا أراد أن يدين ثورة ١٩٥٨ ، من خلال انتحار فالح كما رأى بعضهم (٢) ، الا أن الأرجح عندي أنّه تحامل على هذه الشخصيّة لأنها تمثّل بالنسبه اليه فئة من المجتمع يجب أن تتلاشى ، لأنها تحمل جرثومة فنائها في داخلها ، وهي فئة بقايا الاقطاع العربي ، وهذا ما عبّر عنه جبرا على لسان محمود الراشد حين علّق على انتحار فالح بقوله " بانتحاره ، يخيّل اليّ أن فئة كاملة من المجتمع يجب أن تنزاح عن مسرح حياتنا " (٣) . ومن هنا يمكن اعتبار شخصيّة فالح شخصيّة مسطّحة ، لأن انتحاره ليس تأثرا بالأحداث بمقدار ما هو فعل

---

(١) السفينة ، ص ٢١٩ .

(٢) أنظر : غالب هلسا : قراءات نقدية ، ص ص ٨٧ - ٩٠ حيث يرى أن شخصيّة فالح ليست مقنعة على الاطلاق ، وأن المرض الذي نسبه جبرا اليه لا ينسجم وحالة فالح ، وانه ما أتى بهذه الشخصية الا ليدين ثورة ١٩٥٨ .

(٣) السفينة ، ص ٢٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقحم على طبيعة شخصيته .

ج- المـــــــــــرأة :

النساء اللواتي تطالعنا شخصياتهن في روايات جبرا هن نساء المدينة وقد قلنا في غير موضع من هذا البحث ان جبرا ينظر لنساء المدينة بمنظـــار أسود (١) . ولعل جبرا ينطلق من تلك النظرة غير الموضوعية عندما يفكـــر في رسم شخصيّة نسائية في رواياته . وقد يصل به تعامله على المرأة الى درجة ايجاد بعض الشخصيّات النسائية التي لا ضرورة لوجودها في الرواية ، مـــن أجل أن يقنعنا بأن المرأة مخلوق سيء للغاية . والقاعدة التي يرتكز عليهـــا جبرا في اتهامه للمرأة ، وتعامله عليها هي نظرته للمرأة نظرة ماديّة ، حسّيّـــة ، فالمرأة عنده جسد وحسب " ان المرأة عندي مجموعة من الخطوط والكتـــل ، وأنا لذلك أعشق جسمها ، غير أنني لن أشتري عقلها بفلسين " (٢) . ونحو يظن ، خاطئا ، أن المرأة تنظر لنفسها على أنها جسد وحسب " أما جســد المرأة فهو عندها الكل في الكل . فهي تحممه ، وتعطره ، وتطليه بالمساحيـــق وتبرز أجزاءه المختلفة ، وتحمله معها أينما ذهبت كحمل ثمين ، لكي تنزله فـــي النهاية في فراش احد الرجال " (٣) .

ولكي يقنعنا جبرا بصحة نظرته للمرأة ، رسم لنا عددا من الشخصيّـــات النسائية التي تنسجم مع نظرته تلك ففي " صراخ في ليل طويل " تطالعنـــا

---

(١) أنظر : الصفحات ٦٨ - ١٠٣ من هذا البحث .

(٢) صراخ ... ، ص ٣٥ .

(٣) صراخ ... ، ص ٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شخصيّة سميّة ، تلك الفتاة التي نشأت مدللة ، كونها وحيدة أبويها ، وهي " لم تعرف من الكتب الا ما سمعته من حديث الناس عنها ، فكان علمها الأول أساليب تصفيف الشعر ، وفساتين السهرة والأقراط والعطور والأحذية " (١) .

سميّة هذه تقابل أمين سماح صدفة في احدى الغابات بينما كانت في رحلة لها على دراجتها الناريّة ، وفاجأها المطر ، فاضطرت للانتظار ريثما تهدأ العاصفة ، وما ان يدعوها أمين هذا الى بيته حتى توافق بكل سرور ، فتذهب معه الى بيته ، ويهيئ لها الحمام وتلبس بعض ملابسه ريثما تجفّ ثيابها التي بللها المطر ، وبعد ذلك تنشأ علاقة حب بينها وبين أمين تنتهي بأن تتزوج هذه الفتاة من ذلك الشاب رغم معارضة أهلها . وما تمرّ سنة على ذلك الزواج حتى تهرب سميّة من بيتها الى مكان غير معلوم ، وبعد مضي سنتين على اختفائها ذاك ، تعود في احدى الليالي الماطرة ، وتتسلل الى فراش زوجها ، وتضطجع بجانبه وكأن شيئا لم يكن .

لا أظن أنّ في المجتمع العربي شبيهة لسميّة هذه ، فأن فتاة تتعرف الى شاب فترافقه الى بيته ، وتستحم في بيته وتلبس ملابسه بعد البسها [illegible] تحزم أمتعتها وتخرج من شاب جاء لخطبتها فرفضه أهلها ، وترافقه الى بيت الزوجيّة أمام سمع أهلها وبصرهم ، وأن فتاة تلك التي تهرب من بيت زوجها مدة سنتين ، وتعود بعد ذلك الى بيتها وكأن شيئا لم يكن ؟ لا أظن أن سميّة هذه امرأة عربية . ومهما تكن جنسية سميّة هذه فقد ركز جبرا على ابراز صفتين فيها : أولاهما أنها لم تعرف من الكتب الا ما سمعته عنها ، وأنها لا تعرف من الدنيا الا كيفية الاعتناء بجسدها وملابسها ، وثانيهما أنها مستعدة للتضحية بكل شيء من أجل رغباتها الجسدية ، فقد قبلت أن تنقطع كل صلة لها بأهلها لتحظى بأمين ، وبعد أن حققت رغباتها معه ، هربت لتبحث عن آخر ، وحين

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عاودتها الرغبة والحنين اليه عادت اليه ثانية ، وهكذا ، وكأن الأمر بالنسبة لها هو الاستمتاع بأكبر قدر من اللذة الحسيّة .

وفي الرواية نفسها نجد دانية زوجة رشيد تلك لا تضيّع فرصة من فرص الهوى ، والتي تخون زوجها حتى مع أصدقائه ، ونجد ركزان تلك العانس التي تعيش مع اختها الكبرى في ذلك القصر الذي ورثتاه عن أجدادهما ، وركزان هذه " ورثت عن أجدادها دمهم الفوار وشهوتهم القائضة " (١) ، ولذلك كان لها كثير من العلاقات الغراميّة التي سببت العار للعائلة . وركزان هذه لا تريد من الدنيا الا زوجا ، فهي لا تريد الثروة أو الاراضي الشاسعة أو القصر الذي ورثته عن أجدادها وانما تريد أن تتزوج ، ولذلك تعرض نفسها على أمين ولكنه يتردد في ذلك ، أمّا أختها الكبرى عنايت فلم يجد جبرا مجالا لالصاق تهمة الشهوانية بها وذلك لأنها جاوزت الخمسين ، فاتهمها بالعقليّة الرجعية بأن جعلها حريصة كل الحرص على تدوين تاريخ أجدادها الحافل بالفضائل والمغامرات الجنسيّة ، وكأن جبرا يريد أن يقول لنا ان عناية هذه لم تجد مجالا للتعبير عن تعلقها بالجسد الا بالعناية والاحتفاء بتاريخ اجدادها الحافل بقضايا الجسد . ونجد أيضا في هذه الرواية شخصيّة أمّ سميّة ، وهي امرأة أشبه ما تكون بـ " تمثال عبوس فوق جوع تنصب من فمه القاذورات " (٢) وأم سميّة هذه مثال للعقلية الرجعيّة فهي تزيد لابنتها زوجا ذا حسب ونسب ومال بغض النظر عن أي اعتبار آخر ، كالثقافة مثلا أو الأخلاق ، أو الحب بينه وبين ابنتها ، وهي الى جانب ذلك فظّة سيئة الخلق ، فلا تتردد في اهانة أمين حين جاء لخطبة ابنتها ، وطرده من البيت لأنه رجل لا حسب له ولا نسب ولا مال . (٣)

---

(١) صراخ ... ، ص ص ١٧ - ٦٨ .
(٢) ص ١٧ .
(٣) أنظر : صراخ ... ، ص ص ١٦ - ١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبغض النظر عن الجانب الخلقي لشخصيتي سميّة وركزان ، فانهما شخصيتان مدوّرتان ، تتأثران بما تعيشان من أحداث ، أما دانية وعنايت وأم سميّة ، فشخصيّات مسطّحة .

وفي " صيادون في شارع ضيق " نجد شخصيّات قريبة الشبه بتلك الشخصيّات التي في " صراع في ليل طويل " : فنجد سلمى الربيضي على شاكلة دانية ونجد سلافة النفوس بدلا من سميّة . فسلمى الربيضي امرأة جاوزت الاربعين وهي كما نرى في مثل عمر دانية ، وهي زوجة لشخصيّة مرموقة وظيفيا ،ودانية زوجة لرشيد الذي وصل الى أعلى السلم الوظيفي . ودانية تخون زوجها مع أمين ، وسلمى تخون زوجها مع جميل فران . غير أن الأمر بالنسبة لسلافة مختلف بعض الشيء ، فسلافة تختلف عن سميّة في أنها تحترم رأي والدها في الظاهر على الأقل وهي معنية بتثقيف نفسها ، على عكس سميّة . غير أن التشابه القائم بينهما يظهر في أن كلا منهما تريد أن تتزوج من الشاب الذي تحبه ، دون النظر لاعتبارات الثراء والجاه والمظاهر التي يحرص عليها أهل الفتاتين ،واذا كانت سميّة قد خرجت مع أمين أمام أهلها ورافقته الى بيته لتتزوجه رغم معارضة أهلها ، فان سلافة أيضا هربت من بيت أهلها حين أرادوا تزويجها من توفيق ولجأت الى بيت حبيبها جميل .

واذا كنا نستطيع أن نجد المبرر للأخطاء التي ارتكبها جبرا في رسمه لصورة سميّة ، بأن نزعم بأنّ سميّة تلك فتاة غير عربيّة مثلا ، فاننا لا نستطيع أن نجد تبريرا لأخطائه التي وقع فيها في رسمه لشخصيّة سلافة . فكيف نصدّق أن فتاة عراقيّة تهرب من بيت أبيها وتذهب الى بيت حبيبها ، ليخلصها من من زواج لا تريده ؟ وكيف نصدّق أن يستقبل أهل هذه الفتاة هذا التصرّف من ابنتهم بكل هذا الهدوء والتسامح ؟ وهل من المعقول أن يوافقوا على زواجه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منها بعد ذلك ، رغم اختلاف الدين والجنسية ؟

ومن أوجه الشبه بين شخصيات هذه الرواية وشخصيّات الرواية السابقة ، أن شخصية سلافة شخصيّة مدوّرة كما كانت شخصية سميّة ، وأن شخصيّة سلمى شخصيّة مسطّحة كما كانت شخصيّة دانيّة .

وبالاضافة لهاتين الشخصيتين الرئيسيتين نجد أيضا شخصيّة سميحة ، وهي المومس التي يحبها الشاعر حسين مردان ، وهي شخصيّة مدوّرة أيضا ، فبعد أن أخذها حسين من المبغى وتزوجها فاجأتنا بهربها من بيت الزوجيّة وعودتها سيرتها الأولى .

وفي "السفينة" نصادف عددا من النساء لم يستطع جبرا أن يلصق بهن تهمة الخواء العقلي أو الجهل ، وذلك ليتمكن من اقامة الحوار والمناقشات التي كانت تدور بينهن وبين الرجال المسافرين معهن ، لذلك لجأ الى الصاق تهمة الشهوانيّة بهن رغم ما يتمتعن به من ثقافة وعلم ، وكأنه بذلك يريد أن يقول ان تعليم المرأة وتثقيفها لا يمكن أن يصرفها عن جسدها أو طبيعتها الشهوانيّة .

فلمى رغم أنها خريجة احدى كليّات الفلسفة البريطانية ، ورغم حب زوجها الشديد لها ، وحرصه على توفير أسباب السعادة لها ، بكل ما لديه من امكانيات ماديّة ومعنوية ، الا أنها لا تستطيع أن تتغلّب على نوازع جسدها التي يعجز زوجها الطبيب عن ارضائها ، فتلجأ الى حبيبها القديم عصام السلمان ، وترتّب لنفسها وزوجها رحلة الى أوروبا على تلك السفينة التي يرحل على ظهرها عصام لتتمكن من لقائه ، واختلاس الخلوات معه بين الفينة والأخرى ، حتى أنها لا تجد حرجا في أن تستغل استغراق زوجها في النوم ، وتتسلل من القمرة المجاورة لقمرتها ، حيث ينتظرها عصام . والدكتورة مها الحلو خطيبة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ودين عسّاف، رغم طيبتها، ورجاحة عقلها؛ لم تستطع أن تقاوم غيرتها على ودين حين سافر وحده، وتخلّفت عن الرحلة لانشغالها بمؤتمر طبي، فلم تجد أمام غيرتها على ودين، واشتياقها له، الا أن تعتذر عن ذلك المؤتمر، وان تلحق بودين في احدى المدن الأوروبية، بعد أن مرّ من الرحلة اكثرها. (١)

وفي "السفينة" أيضا نجد مثالين للمرأة الأجنبية وهما جاكلين الفرنسيّة، وأميليا الايطالية، وهاتان الشخصيّتان أيضا ضربت عليهما لعنة الجسد، فجاكلين تتنقّل بين أحضان الرجال المسافرين على ظهر السفينة كيفما اتفق، مرّة مع ودين، وأخرى مع عصام، وهكذا وشعارها: المضاجعة آكلة تفاح. (٢) ولذلك فهي تريد "أن تتعلم أسماء أعضاء الجسد واحدا واحدا، باللغات الثلاث، من الشعر الى النهدين الى البطن، الى الفخذين. تتلفظ أسماءها كتلفّظ الأغاني" (٣). وأظن أن جبرا هو الذي يريد لجاكلين تلك ان تتعلم تلك الأشياء. وأنّه هو الذي يجعل ذلك الشعار لجاكلين.

وأما أميليا، تلك الايطالية التي جاوزت الثلاثين، وتركها زوجها ليترهّب في أحد الاديرة بعد زواج استمر بينهما سنة، فمظهرها مضاد لجوهرها، فهي ذات وجه "دنيوي، أرضي، فيه المكر الثعلبي الذي لا بد منه لامرأة مغامرة" (٤). وهي على علاقة حميمة مع الدكتور مالك، فقد عرفتها به الدكتورة منها قبل سنة، وقد رتّب مالك هذا أمر سفرهما على تلك السفينة ليتمكنا من اللقاء. وأثناء الرحلة كانت تتنقل بين عصام ومالك على التناوب، ولم

---

(١) أنظر: السفينة، ص ١٤١.

(٢) السفينة، ص ٣٢.

(٣) المكان نفسه.

(٤) السفينة، ص ٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تكن تجد وسيلة للاختلاء بفالح الا أن تدعوه الى قمرتها بحجة اجراء كشف طبي عليها ، فان اعوزتها كل الحيل لجأت الى عصام ليسدّ مكان فالح . (١)

وفي "البحث عن وليد مسعود" نجد عددا من الشخصيات النسائية ولعل أبرز هذه الشخصيات ، وأوضحها شخصية مريم الصفّار ، وشخصيّة وجدان رؤوف . وهاتان الشخصيتان البارزتان تذكراننا بشخصيتي سلمى الرويضي ، وسلافة النفوس . فمريم زوجة لاحد الشخصيات المرموقة وظيفيا وهو هشام الصفّار الذي سبق ذكره ولكنها تخونه مع غير واحد من الرجال ، ووصال رؤوف ابنة شخصيّة حكوميّة مرموقة أيضا ، فهو سياسي مستوزر منذ عام ١٩٥٧ ، وهي متعلقة بوليد مسعود رغم فارق العمر بينهما ، وفي النهاية تقرر اللحاق بوليد في فلسطين لتبقى الى جانبه . واللحاق بوليد هذا يذكرنا بهرب سلافة من بيت أبيها والالتجاء الى شقّة جميل فرّان .

أما مريم الصفّار فقد جمعت الى جمالها التعليم والثقافة والموهبة الأدبيّة ، فهي امرأة " ممشوقة الساقين ، تلفت النظر ببياض لونها ، وشفافية بشرتها ، بعينيها الخضراوين وشعرها الطويل - وصوتها الغريب " (٢) وهي الى جانب ذلك تحمل درجة الماجستير من جامعة ساسيكس بانجلترا ، الّا أن مريم هذه مصابة بهوس جنسي حادّ يدفعها للتنقل بين عدد من الرجال ، مع أنها متزوّجة من هشام الصفّار وأم لطفله منه . وهي على علاقة جسديّة بعامر عبد الحميد وعلى علاقة أخرى بوليد مسعود الذي وجدت فيه الرجل الكفء لهوسها الجنسي ، وعلى علاقة بطبيبها طارق رؤوف ، الذي لم تتردد في دعوته الى شقتها في ساعات الفجر مع انها كانت مع وليد في تلك الليلة نفسها ، (٣) والذي

---

(١) أنظر السفينة ، ص ١٢٨ ، ص ١٨٤ .
(٢) البحث عن وليد مسعود ، ص ١٤٦ .
(٣) أنظر البحث عن وليد مسعود ، ص ص ١١٣ - ١١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سبق له أن اختلى بها عدّة مرات في عيادته ، (١) وقد بلغ بها هوسها ذات حدّ السفر الى لبنان لتقضي بضع ليال من وليد في شقّة يمتلكها عامر عبد الحميد (٢) .

وقد حاول جبرا أن يبرر لنا سلوك مريم هذه ،أو ما تعاني منه من هذه الناحية ، بأن جعل علاقتها بزوجها علاقة لا تعتمد ، فهشام منصرف الى وظيفته تماما ، ومريم تعاني من وضعها في البيت كأحد قطع الاثاث ، وزاد على ذلك بأن جعل هشاما رجلا غيورا جدا يحاسبها على أيّة كلمة تفوه بها . او نظرة ترسلها،وقد تصل به غيرته حدّ الجنون ، فيضرب مريم ويأخذها غصبا وهكذا . (٣) الّا أن محاولة جبرا لا قناعنا باسباب هوس مريم تبدو محاولة غير مقنعة ، والأرجح أن جبرا هو الذي يريد لمريم أن تكون على هذه الشاكلة .

وأمّا وصال رؤوف ، فتاة في العشرينات وابنة لرجل سياسي ثري ، أنهت دراستها الجامعية وتعمل موظفة في أحد البنوك ، وهي من المهتمات بالادب ولها محاولات شعريّة لا بأس بها . وصال هذه تعرف وليدا من خلال علاقته بأبيها وأخيها الدكتور طارق وفي احدى حفلات عامر التي يقيمها للاصدقاء في بيته تلتقي وصال ووليد (٤) ، فتطلعه على بعض قصائدها وتشعره بحبّها له ، وفي اليوم التالي تدعوه بالتلفون لزيارة قصيرة في سيارته فيلبّي دعوتها (٥) ، ويكاشف كل منهما الآخر بحبّه . وتكبر العلاقة بينهما الى أن تصل الى

---

(١) انظر : البحث عن وليد مسعود ، ص ١١٥ .

(٢) أنظر المصدر نفسه ، ص ص ٢١٨ - ٢٣٠ .

(٣) أنظر : البحث عن وليد مسعود ، ص ٢٠٧ .

(٤) أنظر : المصدر نفسه ، ص

(٥) أنظر: المصدر نفسه ، ص ص ٢٥٣ - ٢٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الممارسات الجسديّة (١) . وحين يختفي وليد تلبس وصال الحداد عليه ، ثم تتصل بعيسى ناصر في عمان ليدلّها هذا على مكان وليد ، وحين تعترف منه أن وليدا التحق بفصائل المقاومة في الارض المحتلة ، تقرر اللحاق به لمشاركته نضاله ، والبقاء الى جانبه (٢) .

شخصيّة وصال هذه تبدو غير مقنعة أبدا ، فأي حب هذا الذي يجمع بين فتاة في السادسة والعشرين ورجل جاوز الخمسين ؟ ولا نظن أن وصال هذه تترك رغد النعيم في كنف أبيها وأسرتها الثريّة لتلتحق برجل في عمر أبيها . وتشاركه نضاله في فلسطين . لم يقدّم لنا جبرا أية مبررات لعلاقة وصال بوليد ، ولا بسلوكها الغريب ، غير ما أوحاه لنا من طاقة وليد الجنسيّة الهائلة . وحتى هذه الطاقة المزعومة لا تستطيع أن تقنعنا بأكثر من هوس جنسي معين تعاني منه وصال أيضا ، فكيف يقنعنا جبرا بوطنيّة وصال وثوريّتها المفتعلة تلك ؟

أما بقية النساء في هذه الرواية فلم تكن اكثر من مجرد ظلال لشخصيّات ، جاء بها جبرا ليقول من خلالها بعض الكلمات ، أو ليوكد من خلالها بعض الأمور المتعلقة باحدى الشخصيّات البارزة في الرواية :

فسوسن عبد الهادي ، تلك الأرملة الشابّة الرسّامة لا نعرف عنها غير أنها تستدعي الرجال لتريهم لوحاتها فتوقعهم في حبائلها كما فعلت مع ابراهيم الخان نوفل (٣) وعامر عبد الحميد ، وكاظم اسماعيل . ولا أظن أنّ جبرا جاء بها الا ليضيفها الى قائمة عشيقات وليد أو عامر ، أو ليضيفها الى قائمة النساء متعددات العلاقات

---

(١) أنظر : المصدر نفسه ، ص ٢١٤ .

(٢) أنظر ، المصدر نفسه ، ص ص ٣٧٣ - ٣٧٨ .

(٣) أنظر : البحث عن وليد مسعود ، ص ص ٣٢١ - ٣٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجسدية . وسميرة اسماعين لا تعرف عنها غير انها زوجة للدكتور طارق . وآن زوجة عامر ما أظن جيرا جاء بها الا ليقول لنا ان طبيعتها ، ورضاها بالعيش في الظل من حياة زوجها ، تتيح لعامر ان يقيم كل تلك الحفلات . وجناب التاجر ، ما أظنه جاء بها الا ليزوجها لكاظم اسماعين في نهاية المطاف . أما ريمة زوجة وليد ، فقد جاء بها جيرا ليؤكد حقيقتين : أولاهما أن لمجنونتها علاقة وثيقة بطاقة وليد الجنسية ، وثانيتهما وجود المأساة في حياة وليد ، ووجود المأساة في حياة وليد يكمل صفات البطل البيروني التي اسبغها جيرا عليه ، من جهة ، ويسر لنا علاقاته الغرامية المتعددة من جهة اخرى . أقول : ان هذه الشخصيات لم تكن الا وسائل أو قنوات لتمرير بعض المواقف التي يريدها القاص ، أو لتأكيدها ، ولذلك لم يول جيرا عناية لرسم هذه الشخصيات بدقة ، ولم يعط أيا منها ملامحها المتكاملة المحددة ، وبالتالي لم يكن لها أثر ملموس في أحداث الرواية .

---

(١) يقول شكري محمد عياد في كتابه البطل في الأدب والأساطير ، دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١٥٧ : " هو رمز الأقدار ، المنفرد عن الأقران والأنداد ، الساخر من الحياة والأحياء ، الضجر الذي لا يستقر في مكان ، ولا يطمئن الى حب ، " القدر " الذي يلعب بالموت والحياة ، الفارس الذي تنطوي حياته على سر لا يبوح به لأحد ، حبائبه الكثيرات " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في القصة القصيرة

****

ليس ثمة فرق كبير بين نماذج الشخصيّات التي عرفناها في روايات جبرا وبين تلك التي سنتعرف عليها في قصصه القصيرة ، الا أن سعة الرواية وقدرتها على ابراز الجزئيات ، تجعل ملامح شخصياته في الرواية أوضح منها في القصّة القصيرة .

وبشيء من التعميم الحذر يمكن القول ان الشخصية المحوريّة في روايات جبرا هي شخصيّة المثقف الميسور الحال ، فلسطينيا كان أو غير فلسطيني ، في حين نجد ان الشخصية المحوريّة في قصص جبرا القصيرة ، هي شخصيّة المثقف وحسب ، ولا يعني ذلك أن جميع قصصه القصيرة خلو من المثقف الميسور الحال ، بل يعني أن قصصه تلك تعنى بالمثقف بالدرجة الأولى . وكثيرا ما نجد ذلك المثقف فقيرا . ولعل ذلك يرجع الى تعمّد توزيع ذاته على شخصيّات أعماله القصصية ، فقصصه القصيرة كتبت في الفترة الممتدة ما بين ١٩٥٠ - ١٩٥٦م . أي في الفترة التي كان فيها جبرا مثقفا وفقيرا ، فجاءت شخصيّات قصصه على شاكلته ، أو هي على الأقل مستمدة من الوسط الاجتماعي الذي يعايشه ، وأما رواياته فقد كتبت بعد نهاية تلك الفترة (١) ، أي بعد أن استقر جبرا في بغداد ، وأصاب شيئا من الثروة ، ولذلك كانت شخصيّات رواياته كذلك على شاكلته ، أو على شاكلة أشخاص الوسط الذي يعايشه .

وبسبب تلك الطريقة في ايجاد الشخصيّات ، طريقة توزيع القاصّ ذاته على شخصيات قصصه ، فلا غرو أن نجد التشابه بين تلك الشخصيّات واضح وجلي ،

---

(١) جميع رواياته كتبت بعد عام ١٩٥٥ ، باستثناء صراخ في ليل طويل التي كتبها في عام ١٩٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا غرو أن نجد أن بعض شخصيات رواياته ما هي الا صورة مكبّرة لبعض شخصيّات قصصه القصيرة كما سنرى في الصفحات التالية .

أولا : الشخصية الفلسطينيّـــة :-

حضور هذه الشخصية في قصص جبرا القصيرة حضور دائم ومتميـــز ، وهي بما منحها جبرا من طاقات ، وبما أحاطها به من صفات التفوّق والتفـــرّد تأخذ دور الشخصيّة المحوريه في القصة . ومن هنا يظهر التشابه جليا بيـــن صورة الفلسطيني في روايات جبرا وصورته في قصصه القصيرة . ويظل الفارق الوحيد بين هاتين الصورتين هو ما أضافته نكبة ١٩٤٨ لصـــورة الفلسطيني في الروايـــة .

التفوق والفحولة أو اقبال المرأة الشديد على الرجل الفلسطيني ، الـــى جانب الثقافة والتعلّق بالفن ، هي الصفات الرئيسية التي منحها جبرا للفلسطيني في رواياته ، وهي الصفات نفسها التي منحها للفلسطيني أيضا في قصصـــــه القصيرة . أما الوطنيّة والتشرد وجمع الثروة ، فتلك صفات أفرزتها النكبة ، ووجودها مرتبط بوجود المحتل في فلسطين ، وهذا يعني أنها صفات غير ثابتة وليســـت جزءا أصيلا من بنية الانسان الفلسطيني .

في قصة " ملتقى الأحلام " (١) تطالعنا شخصيّة أنور ذلك الشاب الفلسطيني ، الذي حقق شهرة عظيمة بسبب تأليفه مجموعة من الكتب ، ونشرها وهو الى جانب كونه أديبا ، رسام ، وله معرفة وولع كبيران بالموسيقى ، وهـــذه صفات كلها تنطبق على جبرا نفسه . وتدل بوضوح على صفات التفوّق والثقافـــة

---

(١) أنظر : عرن ٠٠ ، ص ص ١٠٩ - ١١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتعلق بالفن ، التي يصرّ جبرا على منحها للفلسطيني . وأنور هذا اراد ان ينقطع لمؤلفاته ولفن الرسم ، وسماع الموسيقى في مكان بعيد عن ضوضاء المدينة وصخبها ، ولذلك ابتنى لنفسه بيتاً جميلاً في احد ى المرتفعات خارج المدينة وزوده بكل وسائل الترفيه ، وكماليات البيت الحديث ، واعتزال المدينة ، والسكن في بيت كهذا حلم يلحّ على جبرا كثيرا ، ولذلك نجده يحققه من خلال شخصياته .

وأنور هذا تقع في حبه النساء بكل سهولة ويسر ، فما ان رأته رباب ، حين زارته في بيته ذات من خطيبها سليم الجابي ، حتى وقعت في حبه ، ولم تطل غيبتها عن انور بعد زيارتها الاولى له ، فقد عادت وحدها الى بيت أنور وصارحته بحبها له ، ولم تمر أيام قليلة حتى فررت رباب هذه أن تدّعي لخطيبها ولأهلها أنها مسافرة الى بيروت لبضعة ايام ، ولكنها في الواقع ذهبت لتقضي هذه الايام مع أنور في بيته ذاك . أنّ جاذبيّة تلك التي في أنور ؟ انها الجاذبيّة التي يريدها جبرا للفلسطيني ويلصقها به أينما وجده .

وفي القصّة نفسها نجد شخصيّة سليم الجابي ، وهو شاب مثقف جدا أيضا ، ويكره ان يعامل الناس على أنه ابن رجل ثري لامع ، بل يريد أن يعاملوه على انه سليم المثقف المستقلّ . وهو أيضا محب للموسيقى والرسم ، محب لحياة الجبل بعيداً عن ضوضاء المدينة ، تماما كما هي الحال بالنسبة لأنور ، ولكنه يفتقر الى الجاذبيّة التي يتمتع بها صديقه أنور . ولكن جبرا عوّضه عن ذلك بأن أعطاه صفة الرجل العصري المهذّب بمفهوم الاوروبيين ، فسليم هذا عندما يأتي لزيارة صديقه أنور ، ويفاجأ بوجود خطيبته في بيت انور ، بعد أن زعمت له أنها ستسافر الى بيروت لم يفصح شيئا ، وتقبل الأمور بكل رويّة وحكمة وفهم ، وجلس يستمع الى تبرير خطيبته غير المقنع لفعلتها تلك . أظن أن هذه الصفة لا تمت للعربي بصلة اطلاقا ولكن جبرا منحها لسليم ظنا منه بأنّها صفة ممتازة لا سيّما وقاه

كان جبرا في ذلك الحين حديث العودة من بريطانيا ، وما زال متأثرا ببعض القيم والمفاهيم الغربية أقول أن جبرا أعطى سليما تلك الصفة ليعوّضه عن صفة الغموض والجاذبيّة التي منحها لأنور ، ولكنه كما يبدو لم يوفّق ، فلسطين ليست بريطانيا، والقيم في هذه ليست القيم في تلك .

وفي قصة " الأختان وفاكهة من الشوك " ، نجد شخصيّة الدكتور رافد ، ذلك الطبيب الفلسطيني الناجح والمبرأ المشهور . ورافد هذا بالاضافة الى تفوقه في مهنته له رؤية في الحياة والفن تعطيه طابع التفرّد أيضا ، فهو لا يرى حقيقة ثابتة في الوجود الا الموت " لا يقين الا في الموت " (١) وهو يترفع عن المفاهيم الاجتماعية البالية التي لا ترضى بزواجه من المعلمة هدى ابنة الميكانيكي البسيط . انه يترفع عن النظرة الطبقيّة رغم كونه ابنا لأسرة غنيّة ، وهو بعد كل ذلك يرى الجمال حتى في أقبح المناظر ، فلم يرق له أن يضع في مكتبته شيئا يزينها به ، الا جمجمة لحمار ، غسلها ، ووضع في صحبتها الجمجمة وغذّيها حزمة من الشوك . (٢) ولم يكتفي جبرا بأن جعل رافدا هذا متفوقا في مهنته ، ومتفردا في مفاهيمه ورؤاه ، بل أضاف له الصفة الأهم في نظره ، وهي الغموض والجاذبيّة ، فرافد " الفتيات كلهن يرفرفن حوله دون مشقة" (٣) ولذلك ما ان خرجت ثريا من المستشفى الذي عالجها فيه رافد حتى وقعت في حبه ، وما ان رأته أختها هدى حتى تعلّقت به هي الأخرى ، ورافد هذا يتنقل بين الفتاتين الأختين . ويبدو لي أن جبرا أحسّ بأنّه يسيء الى رافد هذا اذا هو جعله عشيقا للأختين في آن واحد ، لذلك حاول أن يظل مس

---

(١) عرس ... ، ص ١٤٦ .

(٢) أنظر : عرس ... ، ص ص ١٢١ - ٢٢٢ .

(٣) عرس ... ، ص ٢٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦٧٥٧٤٥

شأن علاقة رافد بثريا ، الأخت الصغرى لهدى ، التي لم تتجاوز قبله أو قبلتين ، وهاوى أن يقنعنا أن ادعاء ثريا بأنها حملت من رافد ، وأجهضها حتى لا يفتضح أمرهما ، ما هو الا مجرد وهم ، أو كذبة اختلقتها ثريا لتفتح أختها هدى بالابتعاد عن رافد . لكن محاولة جبرا تلك لم تقنع . واذا كانت علاقة رافد بثريا علاقة جانبية كما حاول أن يوحي لنا ، فما الذي يدفعها لمحاولة الانتحار التي كادت تودي بحياتها ؟

وفي قصة " السيول والعنقاء " (١) نجد شخصية جميل ذلك الشاب الفلسطيني ، الذي يدرس في جامعة كيمبردج في بريطانيا . وجميل هذا ابن لاحدى الأسر الفلسطينية الفقيرة " كنا عائلة من سبع أنفس ، تسكن غرفة واحدة . وكنا ننام جميعا على الأرض . ولم تكن في غرفتنا كهرباء ، بل قنديل نفط لعين الرائعة " (٢) . وهذه الطفولة تذكرنا بطفولة جبرا نفسه . وجميل هذا يتّصف بصفات فلسطيني قصّ جبرا ، فهو متفوق على الأقران ، وهو كاتب وشاعر ، وهو معشوق الفتيات ، لذلك نجده وحده من بين مجموعة الشباب الذين يكونون شخصيّات القصّة ، المهتم بتأليف كتاب يكون خلاصة الفكر البشري . ونجده وحده الشاعر الملهم بينهم .

ونجد الانجليزية شيلّا تتنكر لصديقها القديم نورمن رغم حبّه الشديد لها ، ورغبته الأكيدة في الزواج منها ، وتقبل على جميل هذا بكل عواطفها ، مع أنه لم يعدها بشيء ولم يتوسّل اليها للاقبال عليه كما فعل نورمن .

ونجد صورة الطفل الفلسطيني في قصص جبرا شبيهة بصورة الرجل الفلسطيني التي عرفناها ، فهو طفل متفوق متميز بين أترابه ، وله ولع بالقراءة أو أحد

---

(١) أنظر : عرس ... ، ص ص ١٢٦ - ٢٩٠ .

(٢) عرس ... ، ص ٢٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفنـــون ففي قصة " المغنّون في الظلام " نجد شخصيّة الطفل سلّوم ذلك الطفـــل الذي قصد من صديقه موسى مأدبة تقيمها أمّ الياس وفاء بنذر عليها ، ليحظـــى بقطعة من اللحم ، ولكنه حين رأى تهافت الصبيان على المائدة ، وقسوة أم الياس معهم ، وهاناتهالهم ، ترك المأدبة وانصرف بجوعه ، ورغبته الملّحة في الحصـــول على قطعة لحم ، أنفة ، وترفّعا عن الامتهان . (١) وهذا يشير الى تميّـــز سلّوم واختلافه عن بقية الصبيان الذين وفدوا الى المأدبة ، فقد كان وحده الرافض لاهانات أمّ اليـــاس .

وفي قصّة " الفراموس " نجد شخصيّة الصبي يعقوب ، ذلك الصبـــــي الذي ألجأه فقر أسرته الى العمل في محل للجدادة ، يعقوب هذا يختلف عـــن الصبيان الذين هم في مثل عمره ، فرغم الفقر والحرمان ، وقسوة العمل في محـــل الجدادة الا أنه ظلّ حريصا على تثقيف نفسه ، ومطالعة الكتب والمجلّات التـــي تصدر عن المطابع . وقد بلى به حبّه للمعرفة أن اشترى بالقرش الذي أعطاه اياه ربّ العمل ، ليشتري له شيئا يأكله ، العدد الجديد من مجلة تعنى بالموسيقى . أن أن هذا الصبي اختار الجوع وصبر عليه ، لكي لا يخسر قراءة عدد من تلـــك المجلة ،(٢) ويعقوب هذا معني بالموسيقى ، وله بها معرفة ، فقد أغراه بشـــراء تلك المجلة بفرشه الوحيد احتواؤها على مقال عن موسيقى القصور في القرن الثامن عشر . وقد بلى به حبّه للموسيقى أيضا حدّ التنازل عن كل ما يملك في الدنيا ، وهو مجموعة من القروش وعدد من المجلات القديمة ، ليحظى بجهاز الفراموفـــون الذي يملكه الكهل يوسف ، سواء بشرائه بتلك القروش أو برهنه عنده ريثمـــا

---

(١) أنظر عون ... ، ص ص ٦٢ - ٧٨ .

(٢) أنظر : عون ... ، ص ص ٨٥ - ٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعيد له يوسف فروشه تلك (١) . مثل هذا الصبي لا نكاد نعثر على شبيـــــــه له في حياتنا اليوميّة ، فأيّ صبيّ هذا الذي يجوع ليشتري عددا من مجلة ؟
وأيّ صبيّ هذا الذي يفهم في موسيقى القصور في القرن الثامن عشر ؟
وأيّ صبي هذا الذي يصادقه كهل جاوز الخمسين ويعامله معاملة الترب ، فيحدّثه بخصوصياته ، وغراميّات شبابه ؟
واضح أنّ هذا الصبي غير عاديّ ، وأنّ جبرا حمّل هذه الشخصيّة فوق طاقتها .

xxxxxxxxxxxx

(١) أنظر : عرس ٠٠٠٠ ، ص ص ١٠٤ - ١٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيـــا : الشخصيّـــــة المحبطـــــة :-

أبرز ما يميز هذه الشخصيّات نظرتها المثالية للأمور ، ولعل مثاليتهـــا تلك هي السبب فيما تواجهه من متاعب واحباطات . أصحاب هذه الشخصيـــات مثقفون في الغالب ، أو خريجو جامعات ، وهم غير ملتزمين بأيديولوجيـــــة محددة ، وهم في الغالب شباب في مقتبل العمر وبالتالي فتجربتهم الحياتيـــة العمليّة تجربة فتيّة ، ومن هذه الناحية بالذات تنبثق مثاليتهم ، فهـــــم يريدون أن يعيشوا الحياه بالمثاليّة التي تعلموها من الكتب في الجامعـــات ولكن الواقع يختلف عن مثاليات الكتب ، ولذلك يفشلون .

اكثر هذه الشخصيات وضوحا ، ودلالة على الفشل والمثالية ، شخصيّـــة مصطفى أحمد في قصه " عرق " . مصطفى هذا محام فيما يبدو ، وهو يحـــــب أميمة ، وقد قبّلها ذات يوم ، لكن يبدو أنه يصر على تكريس حياته للمطالعـــــة والتعلم والتمسك بالقيم المعروفة ، كالصدق ، والأخلاق ، والموضوعيّة . . . الخ ، أن أنه يعيش بالمثاليات التي تعلمها من الكتب التي قرأها ، والتي يحملها معـــه أينما ذهب،وعلى النقيض من مصطفى ، صديقه وزميـــل دراسته خليل الصافيـــــر ، ذات الذي أدار ظهره لكل هذه المثاليات، وانصرف بعد تخرجه من الجامعـــة الى أعمال التجارة ، فأصبح ثريا وذا مكانة اجتماعية مرموقة رغم جهله ، وجشعـــه ، وسوء سيرته .

" خليل الصافيري ، كما قلت، لا يأنف من شيء ما دام الفلس فيه مضمونا . جلـــد ثخين ، رأس صلب ، معدة طحّانة " (١) . في حين بقي مصطفى محاميـــــا لا يكاد يعرفه الناس، ولا يملك من متاع الدنيا شيئا . وتبدو المفارقة اشـــــد وضوحا حين يتقدم خليل لخطبة أميمة فتوافق على ذلك وتتنكر لمصطفى .

---

(١) عرق ٠٠ ، ص ٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مثاليه مصطفى التي لم يجد لها مكانا في الواقع خلقت في داخله لونا من الازدواجية ، بمعنى انها شوّهت بنيانه النفسي ، ولذلك نجده يتكلم عن عيني أميمة في اللحظة التي يلتقّ خياله حول ساقيها (١)
انه لا يستطيع أن يكون صادقا مع نفسه . وعندما يحاول أحد أصدقائه أن يواجهه بحقيقة فشله تثور ثائرته ، ويهجم على محدثه كالوحش ، تماما كما فعل مع صديقه عباس . (٢)
ولانه عاجز عن تحقيق أي شيء في الواقع عمليا ، نراه يحقق ما يرغب فيه ذهنيا ، عن طريق التخيل ، فحين يخبره عباس أن خليلا قال عنه انه معتوه ، وأن أميمة تتشاقى به ، حمله خياله الى بيت خليل ، وفي غمرة ذلك الحلم خنق خليلا ، وانتقم لنفسه . (٣)

ومن هذه الشخصيات ، شخصيّة كامل الصوفي ، ذلك الشاب المتحمس من الجامعة حديثا . ويبدو من أحداث القصّة انه لم يجد عملا بعد . فهو ما زال في الرابعة والعشرين من عمره ، أبوه موظف متقاعد ، أدمن على تعاطي الخمور ، بعد أن احترفت ابنته ساجدة الغناء . وكامل هذا يحب عائدة ابنة المقدم سالم الجبلي . ويبدو أن علاقة الحب تلك التي تربط بين كامل وعائدة هي احدى مخلفات مرحلة الدراسة الجامعية ، بكل ما يمكن أن يحيط بمثل تلك العلاقات الطلابيّة من رومانسيّة وأحلام جميلة : فحين يلتقي كامل وعائدة تسمعه عائدة قصائد لها التي كتبتها اثناء غيابه عنها ويجلسان يتناجيان بمثالية مفرطة ، وكامل حين وجد نفسه يوما في اوحال ضفة النهر ، وقد كاد يقضي

---

(١) أنظر : عرس ، ص ٤١ .
(٢) أنظر : عرس ... ، ص ص ٥٨ - ٦١ .
(٣) أنظر : عرس ... ، ص ص ٥١ - ٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غرفـــا لم يخطر بباله الا أن يتساءل " ماذا ترى تفعل عائدة حيـــن تسمـــع أنني انتشلت من بين الأوحال جثة مشوهة ؟ ألعلها ستبكي ؟ ألعلهـــــا ستكتب قصيدة في رثائي لن تقرأها لأحد ؟ ألعلها ستفكر في الانتحار أيضـــا ؟ وماذا يقول أبي ؟ "(١) ومن خلال هذه التساؤلات التي يطرحها كامل فـــي ذلك الموقف، تبدو لنا مثاليّته ، ورومانسية الحالمة .

كامل هذا يطرده أبوه من البيت بسبب علاقته بابنة سالم **الجبلي** ، ويترصـــده سالم الجبلي ، في أحد الأماكن ويضربه بقطعة معدن على مؤخـــرة رأسه ثم يرميه على ضفة النهر ، وهو يظن أنه قد قتله وتخلص منه ، وعائدة حبيبتـــه انتحرت بسبب اضطهاد والدها لها . كل هذا وكامل عاجز عن فعل أي شـــيء. ويحاول كامل أن يخرج من دائرة عجزه واحباطاته المتتالية ، عن طريق الادعـــاء أمام الشرطة بأنه هو الذي قتل عائدة ، بناء على طلبها ليخلصها من ظلم أبيها (٢) وادعاؤه بأنه هو الذي قتل عائدة يشير الى حقيقتين : أولاهما : انه يشعـــر بعجزه وضعفه ، فهو يريد أن يؤكد لنفسه والآخرين قدرته على الفعل حتى ولـــو كان ذلك في الأحلام . وثانيتهما : تعلقه بأحلامه الرومانسيّة . فهو يريـــد لنفسه أن يكون البطل الاسطوري الذي ترسله الآلهة ليخلص حبيبته من سجـــن والدها ، ولو عن طريق قتلها .

ومن هذه الشخصيات أيضا شخصية الشاب الذي يروي قصة " نوافـــذ مغلقة " ، فذلك الشاب خريج احدى الجامعات وهو يبحث لنفسه عن عمل يكســـب من خلاله رزقه . هذا الشاب مصاب بما يسميه علماء النفس مركب الجرم ، فهـــو دائما يشعر بأنه مذنب ، مع أنه لم يكن قد ارتكب أي جرم ، ولذلك يقدم لنـــا

---

(١) عرس ... ، ص ٢٩٤ .

(٢) أنظر : عرس ... ، ص ص ٣١٧ - ٣٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذلك الشاب نفسه على النحو التالي " لي ضمير لعين ، ضمير شديد الشعور بالجرم ، وان لم أرتكب ما يثقله بمثل هذا الشعور . . . كلما رأيت شرطيا هبط قلبي خوفا لبرهة كأنه سيلقي القبض علي " (١) . وهذا الاحساس كان يفسد على ذلك الشاب حياته ، اذ يجعله مترددا في الاقدام على أي عمل ، مهما صغر ، ويجعله يشعر بالندم ان هو تجرأ وقام بذلك العمل . فحين تتعرف عليه أميرة عائس ، تلك الفتاة الطائشة ، وتغريه بلقائها وتقبيلها في أحد الأزقة المظلمة ليلا ، يأخذ بمحاسبة نفسه في اليوم التالي لذلك اللقاء ، وحين يسمع طرفا من المشاجرة التي تدور بين أميرة ووالدها ، يظن أن والدها اكتشف علاقتها به (٢) ، وحين تصحبه أميرة الى أحد البيوت خارج المدينة ويختلي بها ، تصور له نفسه بدويا يداهمهما في اللحظة الحرجة ، ويحاول اغتصاب أميرة فيهرب هو ويقذفه بحجر كبير على رأسه ، ويظن انه قد مات (٣).

وبعد العودة من تلك الرحلة المشؤومة ، يقرر أن يتنزى من أميرة اذا انكشف امرهما ، وشعر أنها في وضع صعب . وهذا الشاب لا يختلف عن مصطفى أحمد كثيرا ، خاصة في شعوره بالعجز ولجوئه الى ممارسة الفعل ذهنيا ، لا في الواقع . ولكن أدل على هذه الناحية المتحكمة فيه من تصوره لذلك البدوي وقتله له ، فهو يعرف أنه عاجز عن قتل ذبابة ، ولذلك قتل ذلك البدوي ولكن ذهنيا ، وحين يسمع تهديد والد أميرة ووعيده لها يهمّ باقتحام البيت عليهما ، والاعلان عن رغبته في الزواج منها ، ولكنه يتراجع عن ذلك ، ويبقى جامدا في مكانه . وحين تقرر أميرة الزواج من العجوز التاجر تصر سلامة ، وتترك ذلك الشاب لأحلامه الورديّة ، لا يجد وسيله للانتقام لنفسه الا بأن يجعل

---

(١) عرب . . ، ص ص ١٦١ - ١٦٢ .

(١) أنظر : عرب . . ، ص ١٨٦ .

(٣) انظر : عرب . . . ص ص ١٨٢ - ١٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أميرة تدعوه الى بيتها في غياب زوجها ليمارس معها الجنس، وكأنه بذلك ينتقم من نصر سلامة . ولكي ينتقم من أميرة نفسها ، فهو يرفض أن يمارس معها الجنس في بيتها ذلك ، رغم توسّلاتها والحاحها ، بل انه يمسك بها محاولا خنقها، ويخنقها بالفعل . (١)

" خيبة اثر خيبة لذلك هو النص" (٢) . هذا هو شعار ذلك الشاب وحكمته التي يفزع اليها كلما مر بتجربة من التجارب،وفي تلك العبارة دلالة على يقينه بفشله وعجزه ، ودليل على سوداويته ، ورؤيته اليائسة للمستقبل .

ومن بين هذه الشخصيات المحبطة نجد شخصيتين غير مثقفتين ، وغير شابتين ـ وهما : شخصية يوسف في قصة "عرس" والشخصية الوحيدة في قصة "الرجل الذي كان يعشق الموسيقى" . فيوسف كهل تجاوز الخمسين ، وهو يعمل حدادا ، ويعيش في كوخ حقير ، وحيدا ، فقد هربت زوجته ، وابنه ذهب الى ايطاليا وترهّب هناك .
يوسف هذا كان في مصر ، وكان يعيش حياة مترفة كما يزعم وهو لا يفتأ يذكر تلك الأيام التي قضاها في مصر ،ويتحسّر عليها حتى تذوب نفسه ، خاصة عندما يتذكر النساء الجميلات والليالي الحمراء التي كان يحييها معهن . (٣)

وشخصيّة يوسف هذا تبدو غير مقنعة في كثير من الأحيان فكيف نصدق أن يوسف هذا يصادق ذلك الصبي يعقوب الذي يعمل معه في الحدادة ، ويبوح

---

(١) أنظر:عرس ... ، ص ص ٢٠٠ — ٢٠٧ .

(٢)

(٣) أنظر:عرس ، ص ص ٨٧ — ٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

له بأسراره ويحدثه عن ليالي الحمراء في مصر ؟ وكيف نصدق ان يوسف هذا الذي يكاد يشبع بين جهاز الفراموفون الذي يملكه ليعقوب وبعض ملابسه ، ويأخذ مجموعة من الصحف القديمة من يعقوب أيضا ليبيعها (١) ، كل ذلك من أجل أن يحصل على كمية من النقود ، يدفعها لصبحية ، تلك المرأة الساقطة ، ليقضي منها وطرا ؟ قد نفسر ذلك على أنه محاولة لاعادة بعض معطيات الماضي الى الحاضر ، ولكن طريقة تعامل يوسف ويعقوب لا تبدو مقنعة على الاطلاق .

مثالية يوسف هذا ليست في مجموعة من القيم الرفيعة ، ولكنها تأخذ طابع الحنين الى الماضي الجميل ، والحنين الى الماضي سمة رومانسية بحتة . والدليل على مثالية أحلام يوسف هو استحالة تحقيقها ، فعبثا تلك المحاولة البائسة التي قام بها لاسترجاع صورة الماضي عن طريق الاتصال بصبحية لم يكتب لها النجاح ، وانما كانت النتيجة أن عرف الناس بمحاولته تلك ، وفشل في تحقيق بغيته ، فسخروا منه ، ووبخوه على فعلته .

أما شخصية الرجل الذي كان يعشق الموسيقى ، فشخصية لا وجود لها في الواقع ، وما هي الا مجرد حلم رومانسي يراود خيال جبرا ، فذلك الرجل الذي لا نعرف له اسما أو وطنا ، كان يعيش في كوخ حقير في المدينة واستطاع بجده ووسائله الشريفة ان يجمع ثروة كبيرة ، وبعد ذلك ابتنى لنفسه بيتا على قمة أحد الجبال ، وزوّد ذلك البيت بكل أدوات البيت العصري الحديث ،

---

(١) أنظر : عرس ، ص ص ١٠١ - ١٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وانقطع لسماع الموسيقى في ذلك البيت . ولكنه في أحد الأيام أطلق أصوات الموسيقى من مكبرات الصوت في بيته ذات ذهب يركض في الجبال الى أن وقع في أحد الأودية ومات . (١) ومهما تكن هذه الشخصية هزيلة وغير مقنعة الا أن سبب فشلها في الحياة هو مثاليتها المفرطة ، ومثاليتها لا تختلف عن مثالية يوسف كثيرا ، فكلاهما يحاول اعادة الماضي الجميل ، ولكن ذلك أمر مستحيل،لذلك كان الفشل نتيجة حتمية لمحاولتيهما.

××××××××××××××××

(١) انظر : عرق ٠٠٠ ،ص ص ٣٦١ - ٣٦٦ ٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شخصيـــــة المـــــرأة :-

لا تختلف شخصيّة المرأة في قصص جبرا القصيرة عنها في رواياته فـــي شيء ، فهي معنية بالدرجة الاولى بجسدها ، وهي رمز للشر والرذيلة ، ونكران الجميل والانانية . ففي قصة " المفتون في الظلال " نجد أم الياس ، وهـــي امرأة غليظة القلب ، تطرد الأطفال الذين وفدوا الى المأدبة التي أقامتهـــا وفاء بندرها لله ان هو شفي ولدها من مرضه ، بكل قسوة وتحرمهم من الطعـــام في اللحظة التي كانت توزع اللحم بسخاء على الرجال والنساء المدعوين .. (١) وفي قصة (عرس " نجد أميمة مثالا للأنانية واللؤم ، فقد تنكرت تلك المرأة لحبيبها مصطفى بكل مثالياته وقيمه الرفيعة ، وضربت بعواطفه نحوها عرض الحائط ، وتزوجت من خليل الصفاقيري ، رغم بلادته ، وجشعه ، وتكالبه على النقود ، لتحظى بثروتـــه (٢) وفي قصة " عرس " نجد صنجيّة وهي موضع تمارس الفجور خفية . وفي قصـــة " الشجار " نجد أم خليل ، وهي مثال للمرأة الشريرة التي يتأذى بها الجيران ، وقد بلي بها سوء مقدرتها أن تفتن زوجها الضعيف يضرب جاره أبي مراد ، بنبوته الضخمة على رأسه مما أودى بحياة ذلك المسكين . (٣) وفي قصـــة "السيـــول والعنقاء" نجد شيلا الانجليزية تتنكر لعشيقها القديم نورمن ، وتنصرف لعشيقهـــا الجديد جميل ، رغم تعلق الاول الشديد بها ، وزهد الثاني في حبها .

وشيلا هذه تشبه رباب ، تلك التي تركت خطيبها سليما ذلك الشاب المثقـــف المهذب ، الثري ، وتعلقت بصديقه الكاتب الرسام أنور ، وحين يضبطها خطيبها

---

(١) انظر ، عرس .. ، ص ص ٦٣ - ٧٨ .

(٢) ، ص ص ٢٧ - ٣٢ .

(٣) ص ص ٢٠٩ - ٢١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في بيت صديقه ، بعد أيام من زعمها أنها ستسافر الى بيروت ،تبرر فعلتهـــا بأنها تحب في كل واحد منهما مالا تجده في الآخر (١) .

وفي قصة " نوافذ مغلقة " نجد أميرة عائش تلك الفتاة الشهوانيـــة النهمـــة ، التي لا تتردد في مقابلة عشيقها في احد الازقة المظلمة ليلا ، وفـــي الذهاب معه الى خان المدينة ليمارس معها الجنس ،لا تتردد في الزواج مـــن عجوز في عمر والدها لتحظى بثروته ،ولا تتردد في دعوة عشيقها الشاب الى بيت زوجها في حالة غيابه لتروي ظمأها الجسدي . وفي قصة " الأخت وفاكهـــة من الشوك " ، نجد ثريا وأختها هدى تتنافسان على الفوز بالطبيب رافـــد ، ولا تتردد هدى في ادعاء المرض والتغيب عن عملها مدرّسة بحجة المرض مـــع انها تكون مع الطبيب رافد . أما اختها ثريا فتحاول أن تنتصر حين تعلـــم أن عشيقها الطبيب يحب أختها .

"هدى تفكر بحواسها لا برأسها " (٢) . أما ثريا " فلا تهنأ الا بتباريـــح خيالاتها ، وآلام تصوّراتها " (٣) . وهذا يعني أن كلا من الفتاتين تعانـــي من نقص ما . فالأولى تعاني من نزعتها الحسيّة ، والثانية تعاني من مثاليّـــة تفسد عليها حياتها .

وفي قصة " النهر العميق " نجد صورة للمرأة فيها شيء من الاشراق ، انها شخصية عائدة ،وهي فتاة " شديدة الذكاء ،شديدة الحساسية " (٤)

---

(١) انظر: عرس ... ، ص ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٢) عرس ... ، ص ٢٤٣ .

(٣) المكان نفسه .

(٤) عرس ... ، ص ٣١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتنظم الشعر . وعائدة هذه تحب كامل الصوفي ، غير ان ابا ها المقدم سالم الجبلي ، غير راض عن هذا الحب ، ولذلك فهي تلقى من قسوته عنتا شديدا . ورغم ذكاء هذه الفتاة وكونها خريجة احدى الكليات ، الا ان القاص أصرّ على تقديمها لنا بصورة المراهقة الحالمة ، فلم تجد عائدة هذه وسيلة للخلاص من قسوة أبيهـا ، وحرمانها اياها من حبيبها كامل ، الا الانتحار . والانتحار هنا تجسيد لرومانسية عائدة وقصور رؤيتها وادراكها .

من الملاحظ أن جميع علاقات النساء بالرجال في قصص جبرا القصيرة ، والطويلة على السواء ، لم تسفر عن أية عملية حمل أو انجاب . ولعل في هذه الملاحظة تفسيرا لتحامل جبرا على المرأة وموقفه السلبي منها ، فالمرأة التي يتحدث عنها هي المرأة المتعلمة ، والسبب في عقمها ، وتحكّم نوازع الشر في طبيعتها ، كما يرى ، هو طبيعة الحياة المدنية ، أي أن المدينة هي السبب في تشويه طبيعة المرأة . ومن هنا يمكن القول ان تحامل جبرا على المرأة ، وموقفه السلبي منها ، هو محاولة منه لادانة المدينة ، قبل أن يكون محاولة لادانة المرأة نفسها .

خـــــلاصـــــة :-

××××××××××××××××

من كل ما تقدم من حديث عن الشخصيات في قصص جبرا الطويلة والقصيرة نخلص الى النتائج التالية :-

أولا : ان جبرا يعتمد في خلق شخصيات قصصه على أسلوب توزيع الذات على الآخرين ، اكثر من اعتماده على اسلوب ملاحظة سلوك الناس العاديين ، والاستفادة من هذه الملاحظة لخلق الشخصيات .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : توزيع جبرا لذاته على شخصيات قصصه جعله غير موضوعي في التعامل مع تلك الشخصيات ، بمعنى انه كان يحمل بعض الشخصيات ما لا تتحمل ، ويسلب بعض الشخصيات الاخرى امكانيه الفعل او التأثير في الآخرين . ولعل هذه النقطة تفسر لنا تعاطفه مع الشخصية الفلسطينية وتعامله على الشخصية الملتزمة بأيديولوجية محددة مثلا .

ثالثا :- هناك شبه كبير جدا بين جبرا والشخصية الفلسطينية .

رابعا الشخصية الفلسطينية هي الشخصية المحورية في معظم قصص جبرا الطويلة والقصيرة على السواء وهي شخصية تتصف بصفات البطل البيروني .

خامسا : معظم شخصيات قصص جبرا الطويلة هي من الوسط المثقف الميسور الحال ، وهي تتصف بصفات الوسط الذي تعيش فيه ، في حين نجد شخصيات قصصه القصيرة تتصف بالثقافة ، ولا تلازمها صفة الثراء او الغنى .

سادسا : هناك تشابه واضح بين شخصيات قصص جبرا وروايته ، فالشخصيات الفلسطينية متشابهة اينما وجدت ، والشخصيات اليسارية متشابهة ايضا ، وشخصيات النساء تكاد تشترك جميعها في صفة الحسية ، واللؤم والأنانية وهكذا .

سابعا : هناك عدد من الشخصيات يدخلها جبرا في قصصه لتكون مجرد ابواق يقول بواسطتها بعض الافكار التي تلح على ذهنه هو ، وقد لا تكون هناك اية ضرورة لوجود مثل تلك الشخصيات الممسوخة .

ثامنا تعاطف جبرا مع بعض الشخصيات ، او تعامله على بعضها الآخر ، لا يعني عدم تدخله في شئونها ، انه يجعلها تقول مالا يمكن ان يصدر عنها ، أو تفعل مالا ينسجم مع طبيعتها .

تاسعا : الشخصيات التي يتعاطف معها جبرا شخصيات مدوّرة في الغالب أما الشخصيات التي يتعامل عليها فمسطّحه في الغالب أيضا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

****

البناء الفني

****

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

محتويـــات الفصـــل
****

أ. الروايـــــــة :-

صـــــــراع في ليـــل طويـــل .
صيادون في شارع ضيّـــــــــق .
السفينـــــــة .
البحث عن وليد مسعـــــــود .

ب. القصّـــة القصيـــرة :

عـــــــرس .
الممثّون في الظـــلال .
الفراموفـــــــون .
ملتقى الأحـــــلام .
نوافـــــذ مغلقـــة .
الأختان وفاكهة من الشـــوك .
النهر العـــميـــق .
السيون والمنقـــاء
الرجل الذي كان يمشي الموسيقى .
الشجـــار .

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الروايـــــــــــــــة

****

أهميه هذا الفصل تأتي من ايمان الباحث بأن أهم ما في العمل الفنّـــي هو شكله ، ذلك لأن الخلل أو الابداع لا يتجلّى في الموضوع ، وانما في كيفيـــة التعبيرعنه ، ولعل هذا الايمان هو الذي حدا ببعض الباحثين الى القول بأن " المحتوى لا يصنع الشكل ، بل انه نتيجة له " (١) .

وكاتب مثل جبرا ابراهيم جبرا ، بسعة اطلاعه على أحدث الاتجاهات الأدبيـــة والنقدية في الغرب ، يعرف بلا أدنى شك ، أهمّية الشكل ، ويحرص على استلهـــام هذه المعرفة حين يفكر بكتابة رواية أو قصّة قصيرة . ومن هذه النقطـــة بالذات ، يمكن أن نقول ان كل رواية كتبها جبرا هي محاولة مخلصة للبحـــث عن شكل روائي جديد " الفكرة التي تشعر وأنت صغير أنك استطعت ان تلمـــس جوهرا منها ، تشعر بعد عطك الأوّل أن هذا الجوهر قد تسرّب من بين أصابعـــك ولم تحدّده بالضبط ، فتحاول حصره مرّة أخرى ، فيما بعد ترى أن الذي قلتـــه مبدداً لم يعد هذا الجوهر حقّه فتقول مرّة أخرى " (٢) . ومن هذا الاقتبـــاس نستطيع ان نميّز حقيقتين رئيسيتين : الأولى منهما هي محاولة القاصّ لمستمرة فـــي البحث عن شكل يستطيع أن يجسّد ما يشعر به ، أو ما يفكر به ، بدقّة . والثانيـــة منهما هي أن القاصّ معنيّ بالتعبير عن مجموعة من القضايا بعينها ، ولذلك فهـــو يكرر هذه القضايا في عدّة أشكال مختلفة ، وهذا ما أخذه عليه بعض الباحثيـــن

" غير أننا لا نستطيع الامتناع عن المغامرة بالقول ، ان أعماله في النهايـــة

---

(١) جيان ريكاردو : قضايا الرواية الحديثة ، ترجمة صيّاح الجهيم ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ، ١٩٧٧ ، ص ١٥ .

(٢) جبرا ابراهيم جبرا : ينابيع الرؤيا ، ص ٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رواية واحدة " (١) ولكن يبدو أن هذا الباحث قد غاب عنه أن جبرا يؤمن بأنه " يكفي أن تتغير الطريقة لكيما يتغير المحتوى الذي يتم بواسطتها " (٢)
ولعل هذا الباحث كان يرمي من وراء قوله ذاك الى أنّ جميع أعمال جبرا الروائية كانت منصبّة على التعبير عن قضيتين رئيستين : مرحلة التحوّل التي يعيشها المجتمع العربي ، والانتقال من موروثات القديم الى معطيات الواقع الجديدة ؛ وقضيّة الوطن المغتصب وتشرّد الفلسطيني في شتّى الاقطار . لكن وحدة الموضوع في عدّة أعمال أدبيّة ، لا تعني أنها عمل أدبي واحد ، مادام الشكل متغيرا .

وقبل أن نشرع في الحديث على بنية روايات جبرا بالتفصيل ينبغي لنا أن نقرّر مجموعة من الحقائق التي يمكن أن نفهم تلك البنى الفنيّة ، في اطارها ، وهي :-

الأولى : أنّ جبرا حين يفكّر بكتابة رواية لا يكون لديه في الغالب مخطط مسبق ، أو تصميم عام لتلك الرواية ، وهذا ما يقرّره جبرا نفسه بعبارة صريحة " نادرا ما تبدأ الرواية عندي نتيجة مخطط مسبق " (٣) وهذا يعني أنه يؤمّل أن تسفر معاناته في كتابة الرواية عن خلق شكل روائي ، بمعنى أن الدفقات الشعوريّة التي يجيش بها وجدانه كبدايات لروايته هي التي تقرر الشكل النهائي للرواية " لا بد من القول انني كلما بدأت بكتابة رواية أكتبها مدفوعا بنوع من الدافع الشعري أو الدافع اللاعقلاني الذي يجعلني أجلس وأبدأ بالكتابة كأنني أكتب قصيدة " (٤)

---

(١) عبد الرحمن أبو عوف : غربة الفلسطيني ، مجلة الهلال ، يناير ١٩٧٧ ، ص ١٥٤ .
(٢) ينابيع الرؤيا ، ص ٦٥ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٢ .
(٤) ينابيع الرؤيا ، ص ١٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهنا يجب الاحتراز من الظن بأن جبرا يجتر لنفسه هذا المنهج في كتابة الرواية ، بدافع الارتجال أو العفوية أو التأثر بمنطق كتابة القصيدة ، بل الأولى أن نفسّر هذا المنهج في ظلّ الاتجاهات الحديثة في كتابة الرواية ، التي تدعو الى استبعاد الحبكة المسبقة ، أو التخطيط لبنية الرواية قبل الشروع في كتابتها " وحين تتم الرواية الحديثة بدورها ، ثورتها فان ما تنزع الى استبعاده انما هو الحبكة المسبقة ، وذلك لكي تفوّض أمر الخلق الى الكتابة تفويضا مطلقا" (١)

وبغض النظر عن امكانيّة الخلق والابداع التي يوفّرها القارئ من خلال استبعاد الحبكة المسبقة ، فان هذه الطريقة في كتابة الرواية تتيح للروائي فرصة رصد أدق خلجات نفوس شخصيّات روايته ، وتتيح له قدرا اكبر من الحريّة في استنطاق تلك الشخصيات ، والكشف عن اغوارها وطواياها ، سواء بالسرد أو بالحوار الذي يقيمه بينها . واذا تذكرنا أن روايات جبرا روايات شخصيّات في الدرجة الأولى ، أدركنا ان جبرا اختار هذه الطريقة في بناء رواياته عن دراية وقصد .

ومن ميّزات هذه الطريقة في بناء الرواية أنها تجعل العلاقات بين أجزاء الرواية منبثقة من داخلها ، وليس مقحمة عليها من الخارج ، كما هو الحال في كثير من الأحيان ، في الروايات ذات الحبكة الصارمة المسبقة .

ومن ميزات هذه الطريقة أيضا أنها تعطي للروائي امكانية التنويع في أساليب السرد المختلفة ، اكثر مما تعطيه الرواية ذات الحبكة الصارمة المسبقة . وقد استفاد جبرا من هذه الميزة بالذات في جميع رواياته ، فتراه يوظف

---

(١) جون ريكاردو : قضايا الرواية الحديثة ، ترجمة صياح الجهيم ، ص ١١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جميع أساليب السرد المعروفة : من السرد المباشر ، الى الاسترجاع الى التداعي ، الى اسلوب الرسائل ، الى اسلوب وجهات النظر ، الى الحوار ، في كل رواياته .

وليس معنى ذلك أن هذه الطريقة في بناء الرواية هي الطريقة المثلى في كل الأحوال ، فلهذه الطريقة أيضا مزالقها ، ولعل أوضح هذه المزالق أنها تسمح للروائي بادخال مالا ضرورة لادخاله في جسم الرواية ، كأن يذهب الروائي مع احدى شخصيات روايته في سلسلة من التداعيات التي لا شأن لها بالرواية ، أو كأن يقيم حوارا بين بعض الشخصيات ، لا ضرورة له في ذلك المكان ، وهذا المنزلق كثيرا ما كان يقع فيه جبرا ، كما سنرى في الصفحات القادمة .

الثانية :-

أن جبرا في بنائه رواياته ملتزم بقضيّة المعاصرة التي أشرنا اليها في الفصل الأول من هذا البحث ، (١) والتي تقوم على استلهام تراثنا العربي من جهة ، وعلى الاطلاع على أحدث معارف العصر وتجارب الأمم الأخرى من جهة أخرى.ولذلك فجبرا في بنائه لرواياته يستلهم قطبين رئيسيين هما :

الأول : العودة الى حكايات ألف ليلة وليلة واستلهام هذه الحكايات في كتابة الرواية الحديثة " انني أشعر أن جذور أو معظمها ضاربة في ألف ليلة وليلة ، بالرغم من اطلاعي على الرواية الاوروبية " . (٢)

و " لا أظن أن هناك روائيا عربيا معاصرا لم تترك هذه الحكاية اثرا في كتاباته بشكل أو بآخر" . (٣)

---

(١) أنظر الصفحتين ٢٩ ، ٤٠ من هذا البحث .

(٢) ينابيع الرؤيا ، ص ٧١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثاني : الاطلاع على أهم اتجاهات فنّ الرواية في الغرب وبعض منجزات هذا الفن وتمثّلها فيما يكتب ، بمعنى الاستئناس بتجارب المتفوقين من كتاب الغرب . وجبرا يقرّر بطريقة مباشرة أنه تأثر في بناء رواياته بعدد من الكتّاب الغربيين ، أمثال : جيمس جويس ، ووليم فوكنر ، وفرجينيا ولف ، ود . ه. لورنس ، وألدوس هكسلي . (١)

وحين نقرأ روايات جبرا نلمس أثر هذين القطبين فيها حتى ليكاد يعسر على الباحث أن يفصل بين أثر القطب الأول وأثر القطب الثاني : فاسلوب السرد المتمثل في الرسائل ، الذي يستعمله جبرا في رواياته ، يعسر على الباحث ردّه الى "ألف ليلة وليلة" أو الى الروائيين الغربيين ، لأنه موجود عند كلا الطرفين ، وأسلوب تضمين حكاية جانبيّة داخلها في جسم الرواية أو بنائها العام أسلوب شائع في الرواية الغربيّة الحديثة كما أنه معروف في حكايات ألف ليلة وليلة ".
ولكن يجب أن لا ننسى أن أثر " ألف ليلة وليلة" مازال موجودا في الرواية الغربيّة الحديثة .

الثالثة :-

أن هناك فارقا بين ما يؤمن به جبرا ناقدا وبين ما يجسّده في رواياته ، وهذا الفارق هو الفارق الذي يكون عادة بين الطموح والواقع ، وطموح الانسان دائما أكبر من واقعه ، بمعنى أن جبرا يطمح الى تحقيق شكل روائي تتجلى فيه خلاصة ما توصل اليه الروائيون والنقّاد المحدثون ، ولكنه لم يفلح في تحقيق هذا الشكل بعد .
وقد حرص جبرا في رواية " البحث عن وليد مسعود " أن يحقق ذلك المستوى الأسطوري (٢) الذي تفتقر اليه الرواية العربيّة عامة كما يرى ، الا أنه لم يفلح

---

(١) أنظر : ينابيع الرؤيا ، ص ٦٣ .
(٢) أنظر الصفحتين ٤٦ ، ٤٧ من هذا البحث .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في ذلك ، بل جاءت أقل في مستواها الفنّي من رواية " السفينة " . مثلا :

الرابعـــة :

أن جبرا كثيرا ما كان يقحم نفسه على شخصيات رواياتـــه ، كما قلنا سابقا ، ولكي يسوّغ لنا ذلك الفوز أو الغص الذي ألصقه قسرا باحـدى تلك الشخصيات ، كان يوجّه الأحداث أو بعض المفارقات التي تربط بين أجـزاء الرواية وجهة غير وجهتها . مثلا : لقد كانت رواية " البحث عن وليد مسعود " تنتهي تلك النهاية غير المعقولة لولا أن جبرا أقحم نفسه في الموضوع ، فجعل وليدا يتـرك كل ثروته ومكانته المرموقة في بغداد ، ويترك سيارته على حدود العراق مع الاردن ، ليلتحق بالعمل الفدائي داخل الارض المحتلة ! وهل كانت وصال تترك أهلهـا في بغداد وتلتحق بوليد لتبقى الى جواره وتشاركه عمله الفدائي ، لولا رغبـة جبرا في أن يجعل الفلسطيني انسانا غير عادي ! ولم تكن تدخّلات جبرا تقف عنـد هذا الحدّ ، بل كانت تصل الى حد أن يكتب جبرا مقطعا من قصيدة أو خاطـرة يوحي من مشاعره هو ، ثم لا يلبث أن يفتش عن مكان لتلك الخاطرة أو القصيدة ، في رواياته ، فان لم يجد لها مكانا افتعل لها مكانا ، وهذا ما يقوله جبرا نفسـه " في هذه الاثناء - أثناء كتابة الرواية طبعا - تأتيني شطحات شعريّة كما ذكـرت. أكتبها جانبا ، لأنني أشعر أن مكانها سيأتي في مكان ما من السياق الروائي " (١) . مثل هذه الشطحات الشعريّة لا بد أن تكون مقحمة على الشخصية لأنها تعبـر عن ذات جبرا وليس عن ذات الشخصيّة ، وما دام جبرا يصرّ على ادخالها الـى جسم الرواية ، فانّه سيجعل الاحداث أو الشخصيات تفسح مكانا لهذه الشطحـات ، بالرغم من طبيعتها . وهذا ما فعله في " البحث عن وليد مسعود " أيضا حيـن ألصق عددا من المقاطع الشعريّة بوصال روزت . (٢)

---

(١) ينابيع الرؤيا ، ص ١٣٢ .

(٢) أنظر : البحث عن وليد مسعود ، ص ص ٢٦٨ - ٢٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخامسة :

أن جبرا يحرص حرصا شديدا في جميع رواياته على اختيار الألفاظ الموحية ، ذات الدلالات المؤثرة ، بمعنى ان لغة رواياته لغة تحمل كثيرا من سمات لغة الشعر" .. وان كانت اللغة الصلبة ، الواثقة ، الذهنية أحيانا ، هي التي ينسج بها جبرا رواياته ، فان الشعر يظل يفيض من بين السطور "(١) والاتجاه الى الشعر بلغة الرواية ، واكسابها شيئا من ملامح لغة الشعر اتجاه معروف في الغرب وشائع " والرواية في ارقى أشكالها الحفيد الوليد للملحمة" (٢) . ولعل ما قاله بعض الباحثين العرب من أن هذا الاتجاه تسرّب الى الرواية العربية بفعل هزيمة حزيران وما تركته هذه الهزيمة في النفس العربية (٣) هو قول فيه قدر كبير من الاعتساف والتعميم ، اذ كيف نفسر وجود هذا الاتجاه في الروايات العربية التي كتبت قبل عام ١٩٦٧م ؟

---

(١) فاروق وادي : ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية ، ص ١٨٠ .

(٢) رينيه وليك ، وأوستن وارين : نظرية الادب ، ترجمة محيي الدين صبحي ، ص ٢٧٥ .

(٣) أنظر شكري عزيز ماضي ، انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية ، ص ص ١٧٥ - ١٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صـــــراع في ليل طويـــل

أبرز ما يلفت النظر في هذه الرواية هو مستواها الفني الجيد ، الذي تظهر فيه أحدث أساليب السرد الروائي المعروفة في الغرب، مع أنها كتبت في عام ١٩٤٦ ، أي في الفترة التي لم تكن الرواية العربية فيها قد تمكنت من تمثّل تلك الأساليب الروائية الجديدة . ومن هنا يبدو لنا تميّز هذه الرواية من الناحية الفنيّـــة ، وتفوقها على ما كتب من روايات في فلسطين ، في تلك الفترة الزمنية .

في هذه الرواية يحاول الكاتب توظيف معظم أساليب السرد المعروفـــة ، فينتقل من السرد المباشر ، الى الحوار ، الى الحوار الداخلي ، الى الاسترجـــاع ، الى توظيف الحكاية الجانبية ، الى غير ذلك من الأساليب السردية . لكنه اعتمـــد في الدرجة الأولى على ثلاثة من هذه الأساليب ، وهي : الاسترجاع ، والحـــوار والسرد المباشـــر .

الزمن في هذه الرواية يسير في خطين متوازيين :
خط يمثّل الماضي الذي عبّر عنه القاص بالاسترجاع . وخط يمثل الحاضر الـــذي عبّر عنه بالسرد المباشر والحوار . والزمن الحاضر في هذه الرواية ليلة واحـــدة فقط . أما الزمن الماضي فيمتدّ الى سنوات عديدة ، تصل الى طفولـــة بطل القصة وراويها : أمين سمّاعة .

تبدأ الرواية بمشهد مثير للتساؤل ، وهي طريقة الاسترجاع " رفعـــت الفتاة قدمها وقالت : " أنظر فنظرت ، ولكن لم أر فيها ما يثير ، سوى اصبعهـــا الكبير مصبوغا أظفره بالأحمر وبادية من طرف حذائها الأنيق . فقلت لنفسي : فأنصرفّ الى ما هو أخلق بالرجال ، واتجهت نحو المدينة "(١) هذا المشهد لا صلـــة

---

(١) صراع في ليل طويل ، ص ٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مباشره له بأحداث الرواية ، ولو لا بعد و أن يكون مشهدا مستوحى من جميع أحداث الرواية ، أراد منه الفاصّ أن يثير فضول القارئ ويستدرجه الى الاستماع أو متابعة ما سيتلو . بعد هذا المشهد يخبرنا أمين سمّاع بمجموعة من الحقائق التي تشكّل فيما بعد مقدّمات لما سيكشف عنه من أحداث . وهذه الحقائق تتصل بقضيتين رئيستين هما الركيزتان اللتان أقام عليهما القاص روايته : الركيزة الأولى هي حبّ أمين لسميّة ابنة سليمان شنّوب ، وزواجه منها ، ثم هروبها من بيت الزوجية دون سبب ظاهر . والركيزة الثانية هي عمله في تأليف كتاب لعنايت هاشم ، سليلة آل ياسر ، عن تاريخ أجدادها وسيرهم .

يخبرنا أمين أنه ما ان أوى الى أحد المقاهي حتى أخبره صاحب المقهى بأن سيدة من آل ياسر تريده ، وهنا تداعت الى ذهنه سلسلة من الأفكار ، عن عنايت المشغولة بسير أجدادها ، وعن أختها ركزان ، تلك التي ما تنفكّ تظهر له اهتمامها به . وحين يخرج من المقهى ليذهب الى بيت عنايت هذه تجذب انتباهه لافتة كتب عليها : سليمان شنّوب . فتتداعى الى ذهنه سلسلة أخرى من الذكريات الأليمة ، اذ يتذكر كيف عمل عند سليمان هذا لمدّة يوم واحد في مستودع لمحجوز الأسداس والصابون ، وكيف تزوج من ابنة سليمان هذا فيما بعد . ويقطع عليه سيل هذه التداعيات منظر رآه من احدى النوافذ المفتوحة ، القريبة من الشارع ، فقد رأى رجلا يحمل أمتعته ، ويهمّ بالرحيل ، وامرأة تتشبّث به ، لعلها أمّه ، ورجلين يصرخان به ، ويأمرانه بالخروج . ومنظر هؤلاء المتخاصمين يذكره بطباع سكان المدينة ، واستعدادهم للمشاجرة لأتفه الأسباب . وهنا أيضا يوظّف جبرا عنصر التداعي ، في السرد ، توظيفا جيدا ، فما ان يرى أمين هذا المشهد حتى يتذكر يوم أقنعته سميّة ابنة سليمان شنّوب ، بالذهاب الى بيت أبيها لخطبتها ، ويتذكر كيف انهالت عليه أم سميّة بالشتائم والسباب ، لأنه تجرّأ وأقدم على خطبة سميّة ، وهو رجل لا حسب له ولا نسب ولا مال . وفي هذا الموقف

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أيضا يوظف جبرا الحوار توظيفا ممتازا :

" ـ ألمش هذه الساعة ربيناك ، وأنفقنا على تعليمك ، وتهذيبك ؟ لكي تأتي الينا بمثل هذا الرجل الذي لا يعرف أحد حسبه أو نسبه ، الى بيت أبيك وتصرّ على الزواج منه ؟

ما الذي سيقوله الناس عنا ؟

ـ ماذا يهمني ما يقوله الناس اذا تزوّجت من الرجل الذي أحبه ؟

وهنا يتدخل الأب الضعيف :

ـ اخرسي يا قليلة الحياء " . (١)

واضح أن هذا الحوار يكشف عن نفسيّات الشخصيات وعقليّاتها كشفا دقيقا ، من غير مباشرة أو اطالة .

ويخبرنا أمين من خلال تداعياته هذه كيف أنّ سمية تمرّدت على ارادة أهلها ، وحزمت أمتعتها ، وخرجت معه الى بيته كزوجة له . وكل هذه الأحداث يمكن أن تعتبر استرجاعا لما سيقوله لنا بعد قليل الراوي ، فبعد أن اعطانا هذه المقدّمات عاد ليرتب لنا الأحداث من جديد ، ففسّر علينا كيف تمرّد الى سميّة عندما كان عائدا على دراجته النارية ، من القرية الى المدينة ، وفاجأه المطر فالتجأ الى أحراش الغابة المجاورة للطريق ، وهناك وجد سمية تنتظر أن تخف حدّة المطر ، لتعود على دراجتها النارية أيضا الى بيتها . ويبدو أن الفاسّ لم يوفّق هنا في ادارة الحوار بين سميّة وأمين ، بل انه افتعل أحداثا ومواقف لا يمكن تصديقها ، فما ان يلتقي الشاب والفتاة حتى يتحادثا وكأنهما صديقين من قبل ، وما هي الا دقائق معدودة حتى يدعو أمين سميّة الى بيته ، فتلبّي دعوته دون أدنى قدر من التردد أو الحرج :

---

(١) صراخ في ليل طويل ، ص ١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"- لي بيت صغير في هذه الناحية من الحديقة ، لك ان شئت أن ترافقيني اليه ، فتتنزّهي نفسك . .

- أتعيس وحدك ؟ ما أسعدك

- من يدري ؟

وتقدمت الفتاة بعكس سيارتها وتهتف :

- أنا رايحة . فقد تبللت أكثر مما أطيق ، وأود أن أذهب قبل أن أفقد ما تبقّى فيّ من عزم .

- حسنا اذن . لنذهب " (١)

لا أظن أن سميّة هذه فتاة عربيّة ، اذ كيف تذهب هذه الفتاة مع شاب لا تعرف حتى اسمه ، الى بيته ، وتستحم وتلبس بعض ملابسه بمثل هذه السهولة . وحتى لو كانت هذه الفتاة غير عربية فلا أظن أن الحوار الذي دار بينها وبين الشاب يمهّد لمثل ذلك التصرّف الذي قامت به . ولعل جبرا افتعل هذه المرأة في سميّة ليقنعنا بما سبق وأخبرنا به عنها ، يوم أن حزمت أمتعتها وخرجت من أميين الى بيته كزوجة له ، رغم معارضة أهلها الشديدة . ولكن حتى ذلك الموقف ، لم يكن معقولا أصلا .

وحين يجد أميين أن موعده مع عنايت هانم لم يحن بعد ، يكف عن السير ويأوي الى مقهى آخر ، يجد فيه مجموعة من معارفه هم عمر ورشيد وفارس وداني ، وفي هذا المقهى يدير جبرا بين هذه الشخصيّات حوارا طويلا جدا ، يستغرق أكثر من خمس وعشرين صفحة ، ولا أظن ان لهذا الحوار أية فائدة لصالح بنية هذه الرواية ، بل لعلنا لا نتجاوز الحقيقة اذا قلنا ان ذلك الحوار مجرد مجموعة

---

(١) صراخ في ليل طويل ، ص ٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الأفكار في الغد والمدينة والمرأة ، وضعها جبرا في أفواه تلك الشخصيات ، وأجبرها على قولها . ولولا الارتدادات التي كانت تلقي على ذهن أميمة ، والتي تكشف عن شيء من علاقته بسميّة ، لأصبح دلت الحوار شريحة لا صلة لها ببنية الرواية . والذي يجعل هذا الحوار ذا قيمة فنّية له ، هو انعدام الرابط الموضوعي بين مجريات هذا الحوار وارتدادات أميمة ، بمعنى أن الصلة مفقودة بين ما يرتد اليه أميمة ، وبين ما يدور من حوار بين هذه الشخصيات .

أثناء هذا الحوار يرتد أميمة الى ذكريات طفولته البائسة ، فيتذكر ليلة قضاها يرتعد من البرد ، والخوف على الخراب التي وعدته أمه بأن تبقيه في المدرسة اذا هو اعتنى بها . (١) ويتذكر كيف هربت سمية من البيت ، دون أن تترك له أن تفسير لفعلتها .

ويذكر لنا من خلال تداعياته ، كيف قابله صديق قديم له ذات ليلة ماطرة ، وأصر على أن يصحبه الى بيته ليعرّفه الى زوجته وأطفاله ، وكيف حال المطر دون عودة أميمة الى بيته الا بعد أن أوشك الفجر أن يلوح . ويذكر لنا أنه حين عاد الى بيته لم يفكر في ايقاظ سميّة فأوى الى فراشه ، وفي الصباح تبين له أن سميّة قد هربت من البيت . (٢)

وقد تكون المصادفة التي جمعت أميمة وصديقه في تلك الليلة الماطرة ، مقنعة جدا ، لكن كيف نصدّق تلك المفاجأة الرهيبة ، هروب سميّة من البيت ، بالرغم من حبها الشديد لأميمة ، ودون وجود أي سبب لهذا الهروب .

ويغادر أميمة ذلك المنهى الذي التقى فيه بأولئك الرجال ، ويمضي في الشارع الى بيت عنايت حيث أزف موعده معها ، وهنا يخبرنا كيف تعرّف الى عنايت وأخيها ركزان . فيذكر لنا أنه بعد هروب سمية انقطع عن عمله في الصحافة

---

(١) أنظر : صراع ... ص ص ٤٥ - ٤٧ .
(٢) أنظر : صراع ... ص ص ٥٢ - ٥٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مدة ثلاث سنوات، وعاد بعدها، ونشر كتابه الثالث، فلاقى ذلك الكتاب استحسانا جيدا مما حدا بعنايت الى الاتصال به، وتكليفه بكتابة تاريخ أجدادها من خلال أوراقهم الشخصيّة التي ما زالت محفوظة في قصرها. لكنه ما أن يصل الى قصر آل ياسر حتى يجد أن عنايت قد توفيّت منذ ستة أيام، وأن ركزان هي التي اتصلت به، وتركت له الرسالة مع صاحب المقهى. وهذه مفاجأة معقولة، فنحن نعرف من البداية أن عنايت جاوزت الخمسين من عمرها. وهنا تقابله ركزان في غرفة المكتبة يدور بينهما حوار جيّد يكشف عن نفسيه ركزان، وما تعانيه من شعور بالوحدة والضيق من جهة، ويمهد للأحداث اللاحقة من جهة أخرى. (١)

وأثناء هذا الحوار تعرض ركزان على أمين أن يتزوجها، وهذه مفاجأة أيضا معقولة، لأننا نعرف أن ركزان عانس، وقد تحدثت عن مغامراتها العاطفيّة العديدة، وانها تميل الى أمين منذ البداية، كما أنها محتاجة الى أن شخص يقاسمها حياتها في ذلك القصر الكبير، خاصة بعد وفاة اختها عنايت. لكن أمينا يتردد في الموافقة على عرضها السخي.

وأثناء ذلك الحوار تقوم ركزان بعرض كل أوراق اجدادها وملفّاتهم، لتتخلص من تبعات الماضي الذي لا تطيقه.

وهنا يعود أمين الى بيته تبدأ السماء تبرق وترعد، ويهطل المطر بغزارة، وهنا يأوي الى فراشه يعذّبه طيف سميّة الهاربة الى أن يغلبه النعاس فينغفو، وما تمرد قائمٌ أو سويعات على غفوته تلك حتى يستيقظ ليجد سميّة بجانبه في الفراش، حقيقة وليس مجرد حلم أو طيف. وهنا يظهر لنا جبرا مقدار تأثر شخصيّة أمين سماع بالأحداث التي مرت عليها، فنحن نتوقّع من أمين بما نعرفه عنه من حب شديد لسميّة، وحنين دائم الى لقائها، أن يغفر لها فعلتها، ويبدأ معها من جديد، لكن جبرا جعله يرفض عودة سميّة، ويطردها من البيت

---

(١) أنظر: صراخ ... ص ص ٧٧ - ٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الصباح يسمع دوي انفجار ويتبين بعد ذلك أن ركزان قد نسفت القصر الذي ورثته عن أجداده. وهذه مفاجأة لا يصدّقها عقل، فلم يقل لنا جبرا ان ركزان خبيرة متفجّرات، ولم يهيئ نفوسنا لقبول مثل هذه المفاجأة. ولعل مسألة تفجير القصر هذه يمكن أن تفهم في ظل الاطار الرمزي الذي أحاط به جبرا روايته. فالرواية في مجملها تعبير عن الصراع بين عناصر الماضي وعناصر الحاضر، كما قلنا، وهذا القصر، ومحتوياته من ملفّات وأوراق لأسرة آل ياسر هو أحد رموز الماضي، وعنايت نفسها رمز من رموز الماضي، وجبرا يريد أن يظهر لنا غلبة الحاضر وانتصاره على ذلك الماضي المهترئ.

ومن الرموز الواضحة في هذه الرواية رمز المطر فقد كانت الاحداث المهمة في الرواية يصاحبها نزول المطر كما رأينا، فأميّ تعرّف الى سميّة في يوم ماطر، وهروب سميّة كان في ليلة ماطرة، وعودتها الى البيت كانت في ليلة ماطرة. ومن أساليب السرد الحديثة التي ضمّنها جبرا روايته هذه أسلوب تضمين الرواية حكايات جانبيّة قصيرة، وهذا الاسلوب معروف في الرواية الغربية" وهناك ضفة أخرى وهي تضمين قصة قصيرة داخل الرواية.. ويمكن النظر الى هذه الصنعة على أنها محاولة لملء فراغ العمل، وعلى مستوى آخر على أنها بحث عن التنويع" (١). فقدوضع لنا جبرا في روايته هذه عددا من الحكايات الجانبية كحكاية ذلك الرجل الذي قابل أميّ سمّاع في الشارع فتوهّم انه صديق له، وأقبل عليه يصافحه بحرارة، ولكنه سرعان ما تبين أنه واهم، فأجفل متراجعا، وهو يعتذر (٢). ومن هذه الحكاية تلك التي يرويها أميّ عن طفولته، وعن تلك الليلة التي بات فيها مقرورا خائفا على الخرات التي وكّلته أمّه بها. (٣) ومثلها

---

(١) رينيه ولليك، وأوستن وارين: نظرية الأدب، ص ٢٨٩.

(٢) أنظر: صراخ ... ص ٨

(٣) ص ص ٤٥ - ٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أيضا ، تلك المقابلة بين أمين سمّاع وصديقه ناصر الحمورى ، الذى فاجأ أمينا وهو في طريقه الى بيت عنايت ، وطلب منه أن يساعده في نشر كتاب جديد له (١) . وهذه الحكايات في رواية جبرا لم تكن منفصلة تماما عن الاطار العام للرواية ، بل انها كانت تشيرفي ذهن أمين سمّاع سلسلة من التداعيات الضرورية للرواية ، خاصة تلك الحكاية التي يرويها عن مقابلته لصديقه ناصر الحمورى .

أما الحكاية الثانية فكانت مؤشرا واضحا على البؤس والفقر الذى كابده أمين في طفولته .

ومن خلال كل ما تقدم يبدو لنا جليا أن حبكة هذه الرواية حبكة مفككة ، تسير بشكل طولي ، يعتمد على التداعي والاسترجاع .

---

(١) أنظر : صح ٠٠٠ ، ص ص ١٩ - ٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صيّادون في شارع ضيّق :-

كتب جبرا روايته هذه باللغة الانجليزية ، ونشرها في لندن ، بتلك اللغة ، وبقيت كذلك الى أن جاء محمد عصفور وترجمها الى العربية ، ونشر تلك الترجمة في عام ١٩٧٤ . وهذا يعني أن جبرا كتب روايته هذه ليقرأها الغربيون بالدرجة الأولى ، وليس العرب .

وحين نجد أن هذه الرواية تكاد تكون سيرة ذاتية لشخصية فلسطينية ، هاجرت بعد النكبة الى بغداد بحثا عن لقمة العيش ، تعرف أن جبرا كتب هذه الرواية ليعرض مشكلته ، كفلسطيني ، على الغربيين . وهذا يعني أن جبرا سيكون مهتما بطرح مجموعة من الحقائق والأفكار أكثر من اهتمامه ببناء عمل فنّي . ومن هنا كانت هذه الرواية رواية شخصيّات وأفكار . وهذه الأفكار والشخصيّات تقدّم الينا من خلال ما يشبه السيرة الذاتية لتلك الشخصيّة الفلسطينية التي هاجرت بعد النكبة الى بغداد . وهذا النمط من الروايات لا تناسبه الحبكة الصارمة . ولذلك كانت حبكة هذه الرواية حبكة مفككة . فلا نجد أن رابط يربط بين أحداث هذه الرواية أو بين شخصياتها ، وبين البناء العام لها ، باستثناء ذلك الاطار الزمني الذي تدور فيه شخصية ذلك الفلسطيني المهاجر ، وكل جزئية في الرواية تقدّم لنا من خلال علاقتها بتلك الشخصية . وليس معنى ذلك أن هذه الرواية تفتقر الى تنوع أساليب السرد المعروفة ، أو أنها مجموعة أفكار وحقائق يسردها القاصّ سردا مباشرا . فالرواية غنية بشتّى أنواع أساليب السرد الروائي ، وقد وظّف القاصّ معظم هذه الأساليب توظيفا جيدا ، غير أن أسلوبي السرد المباشر ، والحوار هما أكثر هذه الأساليب شيوعا في هذه الرواية .

يبدأ جبرا روايته هذه بالسرد المباشر ، حيث يحدثنا الراوي جميل فرّان عن الأيام الأولى من وصوله الى بغداد ، وتنقّله بين عدد من الفنادق لعلّه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يجد في احداثها مكانا يصلي لاقامته الدائمة ، وبعد أن يستقر في أحد الفنادق ترجع به الذاكرة الى ماضيه في مدينة القدس فيحدثنا عن منزل أهله في القطمون . وعن جيرانهم من أسرة آل شاهين ، وعن علاقة الحب التي كانت تربطه بليلى شاهين . ثم يتسع نطاق هذه الذكريات فيحدثنا كيف أقدم الصهاينة على نسف بيت آل شاهين على من فيه حيث قتلت ليلى تحت الردم . واضطر سكان هذه الأحياء المجاورة لليهود ، من العرب الى ترك منازلهم لينجوا بأنفسهم ، ثم يحدثنا من خلال ذكرياته أيضا عن مقاومة العرب لليهود ، وعن زيارة أحد رجال الدين المسيحي لأسرتهم بعد هذه الأحداث الدامية ، وهنا يوظف جبرا عنصر الحوار توظيفا ممتازا ، يعرض من خلاله نظرة الغرب لمسيحي الشرق ، وموقفهم من قضية القدس التي اغتصبها الصهاينة . (١) ثم يعود الراوي جميل فرّان ليحدثنا بطريقة السرد المباشر كيف بدأت حياته الجديدة في بغداد ، فيذكرنا كيف قادته الصدفة الى زقاق مظلم ما هو في حقيقة الامر الا وجر لعدد من البغايا وعند باب هذا الزقاق يتعرّف الى شاب بطريس الصدفة هو حسين مردان . الشاعر الشاب الذي يحب احدى موسسات هذا الزقاق ، وهنا يعود جبرا أيضا الى اسلوب الحوار الذي يعرّفنا من خلاله على حسين هذا وعلى علاقته بتلك المومس . ثم تتوالى الأيام ويعرّف حسين هذا جميلا على صديقه عدنان الطالب ، وعدنان هذا يعرف جميلا بدوره بعد عدّة أيام على قريبته سلمى الربيضي التي سمعت بجميل من خلال أحاديث الناس عن محاضرة ألقاها في الكليّة التي يدرّس بها ، عن الشاعر بايرون . ومن هذه النقطة تبدأ أحداث الرواية تسير في خطين متوازيين ، خط يمثّل تلك اللقاءات والمناقشات التي كانت تدور بين

---

(١) أنظر : ذلك الحوار الذي دار بين جميل والأب عيسى في الصفحات ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، من الرواية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جميل ومجموعة الشباب الذين كان يلتقي بهم في أحد المقاهي ، أو في شقته التي استأجرها فيما بعد . وخطّ يمثّل علاقة جميل بسلمى الربيضي من جهة ، وبابنة أختها سلافة النفوس من جهة أخرى . أما تلك المناقشات التي كانت تجري في المقاهي فلا علاقة لها بأحداث الرواية المتصلة بجميل ، بمعنى أنه لا توجد علاقة تربط بين هذه المناقشات ، وبين علاقة جميل بسلمى أو سلافة . ولكن تلك المناقشات كانت تكشف عن قدرة جبرا المتزايدة على ادارة حوار ناجح بين تلك الشخصيات . وقد تميّز ذلك الحوار بميزتين رئيستين : الأولى منهما هي قدرة ذلك الحوار على الكشف عن أفكار تلك الشخصيّات ودخائلها . والثانية منهما هي قدرة ذلك الحوار على استيعاب وعرض العديد من وجهات النظر والأفكار المختلفة التي أراد جبرا أن يطرحها من خلال روايته . (١)

وأما الخط الأول وهو صلب أحداث الرواية ، فتجري فيه الأحداث بتسلسل زمني شبيه بتسلسل أحداث السيرة الذاتية : فبعد أن تتعرف سلمى على جميل تعرض عليه أن يعطي دروسا خصوصيّة في اللغة الانجليزية لابنة اختها سلافة النفوس ، التي يرفض أبوها ارسالها الى الكليّة خوفا من أن تختلط بالشباب .

ويوافق جميل على هذا العرض ، وتسير الأمور على ما يرام ، لكن جميلا لا يلبث أن يحس بأنه يحب تلميذته تلك ولكنه لا يجرؤ على مفاتحتها في ذلك الموضوع ، خاصة أن عبدا الخادم الذي كلّفه والد سلافة بملازمتها اثناء وجود جميل معها في غرفة الدرس ، لا يفارقهما لحظة . لكن جبرا يفاجئنا بعد فترة وجيزة بتلك المكالمة التلفونية التي تلقاها جميل من سلافة ليلا ، فلم نكن نتوقّع من سلافة الفتاة الخجول أن تبدأ هي بالافصاح عن مشاعرها نحو جميل ، ولكن جبرا

---

(١) أنظر : هذا الحوار في الرواية ، ص ص ٨٩ - ١٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أراد لبطله الفلسطيني أن يكون معشوق النساء لا عاشقهن . وتتكرر هذه المكالمات التلفونية بين سلافة وجميل ويعرف كل منهما ما يكنه له الآخر من حب .

من جهة أخرى تنشأ علاقة أخرى بين جميل وسلمى ، فقد التقيا ذات يوم في دار عماد النفوس ، وحين فكر جميل بالعودة الى شقّته أخذته سلمى بسيارتها لتوصله ، وفي الطريق عرضت عليه نزهة قصيرة خارج المدينة ، وفي هذه النزهة كشفت سلمى لجميل عن حبّها له ، وتبادلا القبلات . ثم تتطوّر العلاقة بينهما الى حد أن يصبحا يلتقيان في احدى الشقق التي يمتلكها زوج سلمى ، لقضاء ساعات من الحب .

ويظل الراوي يقصّ علينا أحداث هاتين العلاقتين الغراميتين مازجا بين السرد المباشر والحوار ، الى أن يفاجئنا بالمفاجأة التي تمثل ذروة تفاقم الأحداث وتوترها ، وذلك حين تهرب سلافة من بيت أبيها الذي ينوي تزويجها من توفيق الخلف رغما عنها ، وتجيء الى شقّة جميل فرّارا ليخلّصها من تلك الزيجة الكريهة . ومع أن هذه المفاجأة تمثّل ذروة تصاعد الأحداث وتوترها ، الا أنها تبدو غير معقولة ، فكيف نصدّق أن سلافة تفعل ذلك ؟ وكيف نصدّق أن جميلا يدعو توفيقا ويقنعه بالعدول عن رغبته في الزواج من سلافة ؟ وكيف نصدّق أن جميلا يدعو سلمى لتأخذ ابنة أختها من بيته ، وأن سلمى وأهل سلافة تقبّلوا ذلك الوضع بكل هذا التسامح ؟

وبعد أن يحلّ جميل فرّار مشكلة سلافة مع أهلها على النحو الذي أشرنا اليه ، يخبرنا بأنه تزوّجها بعد أن انقضت فترة حداد ما على أبيها الذي توفي بنوبته القلبية ، رغم اختلافهما في الدين . وهذه ايضا نهاية لا تقنعنا ولا تقنع جبرا نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الأساليب التي اعتمد عليها جبرا في روايته هذه أسلوب تضمين الرواية حكايات جانبية قصيرة كما فعل في روايته الاولى " صراخ في ليل طويل". ولعله اعتمد على هذا الأسلوب في هذه الرواية لا لاثراء أحداث روايته أو لسد ثغرات الهيكل العام لها فحسب ، وانما لتخفيف حدّة الرتابة التي كثيرا ما تنجم عن أسلوب السرد المباشر . وقد اكثر جبرا في روايته هذه من تلك الحكايات كثرة تلفت الانتباه . ومن هذه الحكايات حكاية أبي هلال المشعوذ الذي كان يتنبأ بقيام القيامة بعد احتلال الصهاينة للقدس (١) .
وحكاية عزيمه ابنة طوبيا صاحب الفندق الذي نزل فيه جميل ، التي قتلها أخوها يوسف لانها حملت من غير زوج . (٢) وحكاية مهاجمة عبد خادم سلافة لها في احدى الليالي التي غاب أهلها فيها عن المنزل ، ومحاولته اغتصابها ، لولا أن أهلها عادوا الى البيت في تلك اللحظات وأنقذوها . (٣) وحكاية مظاهرات طلبة الكلية ومصادماتهم مع رجال الأمن (٤) . الى غير ذلك من حكايات جانبية .

ومن الاساليب التي اعتمد عليها جبرا في هذه الرواية أيضا أسلوب الرسائل ، فنراه يستعين بتلك الرسالة التي أرسلها يوسف شقيق جميل من القدس والتي يخبره بها عما آلت اليه حال الفلسطينيين على أيدي الصهاينة (٤)

ومن هذه الأساليب أيضا أسلوب المذكرات ، حيث يمر علينا مقتطفات من مذكّرات عدنان طالب ، التي يخبرنا من خلالها بكثير من التفاصيل عن حياة عدنان ، وعن محاولته الانتحار هو وصديقه حسين بالقاء نفسيهما في النهر ،

---

(١) أنظر : صيادون في شارع ضيق ، ص ٢٢ .
(٢) ، ص ص ٥٥ - ٥٧ .
(٣) ، ص ص ٢١٦ - ٢٢١ .
(٤) ، ص ص ١٣٦ - ١٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعن المحاولة التي قام بها عدنان لقتل عمّه عماد النفوس ، اذ توجّه الى بيت والدته المجوز ليلا ، واقتحم عليه الباب ، وأهانه ، وهاوس خنقه لولا أن الآخر مات من تلقاء نفسه (١) .

---

(١) صيادون ... ، ص ٢٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السفينـــــــــــة

حظيت هذه الرواية بقدر كبير من اهتمام النقّاد العرب، ولعل ذلـــــك يرجع الى طريقة كتابتها بالدرجة الأولى ، فهي مكتوبة بطريقة وجهات النظر، وهـذه طريقة جديدة على فنّ الرواية العربية . والروايات العربيه المكتوبه بهذه الطريقـة روايات قليلة جدا . (١)

وبالرغم من كثرة الدراسات والمقالات التي كتبها النقاد العرب عن هذه الروايـــة، الا أن الدراسات التي تناولت بنية هذه الروايه تناولا موضوعيا عميقا ، قليلـــة جدا أيضا . (٢)

يتناوب سرد أحداث هذه الروايه شخصيتان رئيسيتان هما : وديع عسـاف وعصام السلمان ، ويقدم الروائي المجال ، لمرّة واحدة ، لشخصيّة ثالثة هي اميليـا فرنيز لتقدّم جزءا من تلك الأحداث .

الزمن الذي تدور فيه أحداث الرواية لا يتجاوز أياما معدودة ، هـــي الأيام التي تقضيها تلك المجموعة من المسافرين على ظهر السفينة في طريقهـــم الى أوروبا ، والمكان الذي تدور فيه الأحداث مكان ضيق ومحدود أيضا ، وهـــو ظهر تلك السفينة .

---

(١) من هذه الروايات رواية "الحرب في بر مصر" ليوسف الفريد وروايـــة " ميرامار " لنجيب محفوظ .

(٢) من هذه الدراسات دراسة ضياء الشرقاوي " المعمار الفنّي في روايـــة " السفينة " مجلة المعرفة ، عدد آذار ١٩٧٨ ودراسة جون سالـــم " تأملات في رواية جبرا ابراهيم جبرا "السفينة" مجلة الآداب ، عدد تموز ١٩٧٢ ، ودراسة غالب هلسا في كتابه " دراسات نقدية في أعمال يوسف الصايـــغ، يوسف ادريس، جبرا ابراهيم جبرا ، حنا مينة " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكي الكاتب استطاع أن يتغلّب على محدوديّة الزمان والمكان بأسلوب وجهات النظر الذي اعتمده في سرد أحداث الرواية. فهذا الاسلوب كان يتيح للشخصيّات التي تسرد علينا أحداث الرواية، امكانيّة الرجوع الى ماضيها الممتد الى سنوات خلت، وبهذا كان الروائي ينقل القارئ من الزمان والمكان المحدودين على ظهر السفينة، الى زمان ومكان رحيبين، هما زمان ومكان طفولة أو ماضي هذه الشخصيّات. والرجوع الى ماضي هذه الشخصيّات لم يكن منقذا للروائي من مشكلة محدوديّة الزمان والمكان فحسب، بل انه أتاح له فرصة ممتازة للكشف عن جذور تلك العلاقات القائمة بين المسافرين على ظهر السفينة من جهة، وللكشف عن العوامل المؤثرة في تشكيل نفسيات هذه الشخصيّات وعقليّاتها من جهة أخرى، فنحن مثلا لا نستطيع فهم علاقة لمى بعصام السلمان، الا من خلال العودة الى ماضيهما عندما كانا طالبين في الجامعات البريطانيّة، حيث كانا على علاقة غراميّة. ونحن لا نستطيع أن نفهم لماذا لم يتزوج عصام لمى، مع أنه يحبّها الا حين نعرف أن أبا عصام قتل عمّها في خلاف نشب بينهما على الأرض قبل ربع قرن مضى. ونحن لا نستطيع أن نفسّر العلاقة الغراميّة التي تربط بين الدكتور فالح زوج لمى، واميليا فيرنيز الا حين نعود الى الماضي، ونعرف كيف تعرّف الدكتور فالح على اميليا هذه في أحد المؤتمرات الطبية التي شاركت فيها في بيروت قبل سنوات. وهكذا.

حبكة هذه الرواية تقوم على فرضيّتين رئيسيتين :

الأولى منهما هي أن هناك مجموعة من العلاقات السرّيّة التي ترتبط أولئك المسافرين، وأن هذه العلاقات هي التي تتحكم في سير الأحداث التي تجري على ظهر السفينة، بمعنى أن تلك العلاقات الظاهرة التي تربط بين أولئك المسافرين هي علاقات مزيّفة، وان العالم السرّي لهؤلاء المسافرين هو عالمهم الحقيقي، وهذا ما أصرّ عليه غالب ملسا في دراسته تلك.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والثانية منهما أن الدكتور فالحا مصاب بمرض الشيزوفرينيا أو الفصام ، وأن المصاب بهذا المرض يمكن أن يتصرّف كما كان يتصرف فالح .

ومن الفرضية الثانية نستنتج وجود لحمة متينة بين أحداث الرواية وشخصيّاتها بمعنى أن أحداث الرواية انبثاق طبيعي عن هذه الشخصيّات . لكن غالب هلسا نفى في دراسته تلك أن تكون الأعراض التي يعاني منها فالح هي أعراض ذلك المرض. (١) ومن ثم خلص الى أن هناك انفصاما بين شخصيّات الرواية وأحداثها .

في الفصل الأول من هذه الرواية يحدثنا عصام عن مفاجأته بوجود لمى على ظهر تلك السفينة التي يسافر عليها الى أوروبا هربا من لمى وبحثا عن نسيان قصته معها ، ويحدثنا عن خيبته وشعوره باليأس بعد زواجها من ذلك الطبيب الناجي فالح عبد الحسيب ، ثم يتوقف عند أحد المسافرين على ظهر تلك السفينة ليحدثنا عن أنه ودين عسّاف ، ذلك الفلسطيني الذي يعمل تاجرا في الكويت ؛ ويعاني من شعور حادّ بالغربة ؛ وحنين جارف للعودة الى وطنه فلسطين . وفي الفصل الثاني يأتي ودين ويحدّثنا عن طفولته في القدس ، وعن ذكرى استشهاد صديقه فايز عطا الله في سنة ١٩٤٨ على أيدي الصهاينة الغزاة ، ويخبرنا أنه تعرّف الى عصام هذا من خلال خطيبته الدكتورة منى الحسامي. فاذا انتهينا من هذه المقدّمات الفنية بالدلالات ، والايحاءات بما سيأتي ، رجع بنا المؤلف الى عصام السلمان حيث يحدّثنا عصام عن طفولته وعن حبّه للمى أيام كانا طالبين في الجامعات البريطانيّة ، وكيف أن أباه سبق له قبل سنين عديدة ان قتل عم لمى بسبب خلاف كان بينهما على الارض، مما جعل زواجه من لمى أمرا مستحيلا . وأثناء الرحلة تبدأ أحداث الرواية بالتنامي ، فيحسّ الدكتور فالح بوجود علاقة ما بين زوجته وعصام ، ويشعر بقيّة المسافرين بوجود علاقة

---

(١) أنظر : غالب هلسا : دراسات نقدية ، ص ٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما أيضا بين فالح وتلك المطلقة الايطاليّة اميليا فرنيزي . وتتوالى الأحداث بمنتهى السهولة والطبيعيّة في الظاهر ، اذ يتصرف هؤلاء العشّاق وكأنهم مجرد زملاء في رحلة جمعت بينهم الأقدار ، لكن العلاقة فيما بينهم لم تكن كذلك ، فاميليا كانت تستدعي فالحا بين الفينة والأخرى ، بحجة استشارة طبيّة ، الى قمرتها ، وهناك يختلي بها . وعصام يختلس بعض اللقاءات والخلوات السريعة مع لمى حين تحين له الفرصة . وود بين عساف لا يتردد في أن يلهو مع جاكلين الفرنسيّة حين يجد الى ذلك سبيلا ، رغم ما يظهره من وفاء لخطيبته منها التي تخلّفت عن الرحلة بسبب مؤتمر طبي كانت مدعوة اليه .

وفالح ، رغم ما يظهره من رصانة وصلابة ، يعاني من خواء داخلي رهيب ، ويأس قاتل من الحياة ، وذات ليلة تنفجر احزانه وعذاباته ، حين ترقص زوجته لمى بين أولئك المسافرين على أنغام أغنية لأم كلثوم ، ولعله أدرك أنها ترقص لعصام وحده دون كل المسافرين . أما محمود الراشد ذلك الأستاذ الجامعي ، فيظهر لنا خوره وتداعيه من الداخل حين تصوّر له أوهامه ، ووساوسه أن نادل السفينة هو نمر العجمي ، ضابط المخابرات الذي عذبه ذات يوم في احدى الزنزانات .

وتتأزم هذه الأحداث والعلاقات وتنفجر عندما ترسو السفينة في أحد الموانئ الأوروبية ، وينظّم القائمون عليها رحلة للمسافرين الى احدى المناطق الجميلة ، فتتخلّف لمى عن مرافقة زوجها في الرحلة بحجة المرض ، ويتخلّف عصام أيضا عن الرحلة ، فيلتقي بلمى وبد هبان في جولة بين فنادق المدينة ومطاعمها . وأثناء تجوالهما في المدينة يشاهدهما فالح ، بينما كان في أحد المطاعم مع أميليا فرنيزي ، حيث تخلّفا هما أيضا عن الرحلة ليختليا في أحد فنادق المدينة . وهنا تصل الأحداث ذروة التعقيد والتوتر .

فها هو فالح يرى خيانة زوجته بأمّ عينه ، وعلى مرأى من عيني عشيقته الشابة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهنا يبحث جبرا عن حلّ لهذه المشكلة المؤرقة ، فيتكئ على فرضية عصمية أن فالحا مصاب بالفصام والسوداوية ؛ فيجعله يتخذ قراره بالانتحار ليتخلّص من عذاباته التي وصلت ذروتها بخيانة زوجته له ، ويحين يعود المسافرون الى السفينة بعد منتصف الليل ، يأوي كلّ الى قمرته . وفي تلك الليلة ينتحر فالح ببعض العقاقير الطبية ، تاركا مجموعة من مذكراته ، وبعض الرسائل لزوجته ، وعشيقته . وبانتحار فالح تنتهي الرحلة ، فيعود عصام ولمى بجثمان الطبيب المنتحر الى بلادهما ، وتلحق مها بخطيبها وديع في ذلك اليوم المشؤوم .

وحتى لا تكون الرواية كلها مبنية على صدفة مفتعلة ، هي تلاقي عصام ولمى من جهة ، وفالح وأميليا من جهة أخرى ، على ظهر تلك السفينة ، فقد أخبرنا جبرا في آخر الرواية أن هذه الرحلة مرتبة من قبل ، بتخطيط من لمى نفسها ، فقد علمت من أحد اصدقائها أن عصاما مسافر الى بريطانيا على ظهر تلك السفينة ، فأقنعت زوجها بالسفر اليها للاستجمام ، وحجزت لهما على ظهر تلك السفينة ، وفي الدرجة نفسها التي ينزلها عصام . (١) وفالح هو الآخر اتصل باميليا ، وأقنعها بالسفر على تلك السفينة نفسها ، وهكذا رتبت الأمور . (٢) ومن أن ذكر جبرا لهذا التخطيط المسبق للرحلة ، قد أنقذ الرواية من تحكّم الصدفة المفتعلة في بنيتها ، الا أنه لم يسلم من اعتراض النقاد عليه ، فقد رأى بعضهم (٣) أن كشف جبرا عن ذلك التخطيط المسبق للرحلة قد أفقد الرواية كثيرا من عناصر المأساة التي كان يمكن أن تتأتّى لها فيما لو ترك أمر الرحلة على أنه من صنع

---

(١) أنظر السفينة ، ص ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(٢) ، ص ١٧٥ .

(٣) أنظر : ضياء الشرفاوي : المعمار الفني في رواية السفينة ، مجلة المعرفة آذار/ ١٩٧٨ ، ص ٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأقدار ، وليس من تخطيطه لها .

وكما هو دأبه دائما في معظم رواياته ، فقد وظّف في روايته هذه معظم أساليب السرد المعروفة ، من حوار ، ومذكرات ، ورسائل . وقد استطاع من خلال عنصر الحوار أن يكشف عن أبعاد نفسيّات شخصيّاته ، وعن جوانب تفكيرهم وثقافتهم الواسعة ، المختلفة الجوانب . كما أنه كشف لنا من خلال المذكرات التي تركها الدكتور فالح عن بعض جوانب معاناة ذلك الطبيب المنتحر .

ومن خلال ما تقدّم نستطيع أن نخلص الى أن هذه الرواية رواية دراميّة (١) ، أو الى أنها أقرب الى الرواية الدرامية منها الى الرواية الشخصية أو الرواية التسجيلية ، وذلك للأسباب التالية :-

أولا : وجود الصلة الوثيقة بين الشخصيات والحبكة ، بمعنى أن الأحداث منبثقة من طبيعة الشخصيات .

ثانيا : اقتصار الرواية على مشهد ضيّق ، وقطاع واحد من الحياة ، أي أنها تتناول شريحة معينة من الحياة ، وتحصرها في زمان ومكان محدودين ، بمنأى عن بقية جوانب الحياة الأخرى .

ثالثا : المسحة التراجيدية التي تغلّف هذه الرواية غالبا ما تكون في الرواية الدرامية .

رابعا : التأثير المتبادل بين شخصيات الرواية واضح جدا . وهذه من سمات شخصيات الرواية الدرامية .

خامسا : وجود الحبكة الصارمة في هذه الرواية يجعلها أقرب ما تكون الى الرواية الدرامية .

---

(١) اعتمد الباحث في التفريق بين الرواية الدرامية وغيرها من الروايات الأخرى على كتاب : أدوين ميور : بناء الرواية ، ترجمة ابراهيم الصيرفي ، منشورات المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر ، دار الجيل للطباعة ، الفجالة ـ مصر ، بدون تاريخ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البحث عن وليد مسعود :-

يبدو أن جبرا كان يحسّ احساسا خفيّا بأن رواياته الثلاث السابقة لم تعبّر عن القضايا الهامّة التي كان يريد التعبير عنها ، كما أنها لم تأخذ الشكل الفنّي الذي كان يحلم به ، ولذلك وضع في ذهنه ، حين شرع في كتابة هذه الرواية ، ثلاثة أمور جوهرية هي :

أولا : عرض قضيته الوطنية كفلسطيني شرّد من أرضه ، وضرب في الآفاق بحثا عن لقمة العيش ، ثم ما لبث أن هدأ روعه ، وأخذ يفكر في العودة الى ذلك الوطن السليب ، فشرع ينظم نفسه في مجموعات نضاليّة ، تسعى لتحرير وطنها بقوّة السلاح ، ومن هنا يصبح هذه القضيّة يركز باستمرار على اظهار جانب الظلم والقسوة التي عانى منها الفلسطيني سواء في وطنه ، أو في خارج هذا الوطن .

ثانيا : التعبير عن احساسه العميق بالحياة بكل ما فيها من طيّبات وأحزان ، وبكل ما ينطوي عليه جوهر الحياة من أبعاد مأساوية ، ومن هنا يعرض الى حركة التغيير في المجتمع العربي ، والى معاناة الانسان في مواجهة هذه الحركة السريعة ، وفي مواجهة مراكز القوى والشر في الحياة بعامّة .

ثالثا : تحقيق المستوى الاسطوري في الرواية العربية ، الذي دعا اليه في كتاباته النقدية .

ولكي يحقق جبرا هذه الأمور الثلاثة في روايته هذه أخذ يفكّر في الشكل الروائي الذي يستطيع استيعاب طموحاته تلك ، بمعنى أن المضمون هنا هو الذي حدّد الشكل وليس العكس . ولتعدد الأمور التي أراد جبرا التعبير عنها ، وتنوّعها ، بالاضافة الى سعيه الدؤوب لتوظيف كل ما وصلت اليه معرفته في فنّ الرواية ، فقد جاءت روايته هذه مفككة البنية ، متداعية البناء . وحاله في ذلك يشبه حال الباحث الذي يريد أن يضمّن بحثه كل ما توصلت اليه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عملية البحث عن معلومات، بغض النظر عن مدى احتياج البحث لهذه المعلومات أصلا . وجبرا كما قلنا من قبل يبحث عن شكل روائي ، ولذلك فهو يريد أن يستعين بكل معرفته في هذا المجال لتحقيق ذلك الشكل المنشود . وليس معنى ذلك أن البنية المفككة نقيصة تحتسب على الروائي دائما وأبدا ، بل المقصود أن بنية رواية جبرا هذه بنية مفككة على غير ما يجب أن يكون عليه التفكك . صحيح أن الاتجاهات الحديثة في فنّ الرواية تحبّذ البنية المفككة ، وصحيح أن زمن أحداث هذه الرواية يمتدّ الى أكثر من خمسين سنة خلت ، ولكن كل ذلك لا يبرر الترهّل الموجود في هذه الرواية .

تبدأ الرواية من نقطة النهاية ،أي من النقطة التي تنتهي بها الأحداث. ولمّا كانت تلك النهاية نهاية تفجيريّة ، فقد وجد المجال أمام الروائي للبحث في الأسباب التي أفرزت هذه النهاية . والرواية تتلخص في اختفاء ذلك الكهل الفلسطيني وليد مسعود فجأة. ووليد هذا كاتب بيدر ، وتاجر ثري ، أتى الى بغداد بعد النكبة وحالفه الحظ في حياته ، فأثرى ولمع صيته . وليد هذا يختفي فجأة ويترك كل ممتلكاته في بغداد ، وبعد أيام وجدت سيارته على الحدود الاردنية العراقية ، ولذلك يذهب أصدقاؤه ومعارفه لهذه المفاجأة الغريبة وتبلى الحماسة بأحدهم ، وهو الدكتور جواد حسني ، أن يؤلف كتابا عن وليد هذا ، فيشرع في جمع المعلومات وتقصّي الحقائق عنه من كل من عرفه أو كانت له صلة به . ومن هنا تتناوب شخصيّات الرواية سرد الأحداث ، وهذه الشخصيّات هي أصدقاء وليد ومعارفه ، وكل منهم يسرد الجزء المتعلّق به من الأحداث ، أي يخبرنا عن علاقته بوليد وما يعرفه عنه . ولذلك كان اسلوب السرد في الرواية هو أسلوب وجهات النظر .

في الفصل الأول يحدثنا الدكتور جواد حسني عن التركة الصعبة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي تسلّمها ، وهي شريط سجله وليد بصوته وتركه في سيارته قبل تركها على نقطة الحدود تلك . وهذا الشريط يحوي معلومات متداخلة وذكريات يصعب الفرز بينها ، أو فهمها ، وكل ما يمكن أن يفهم منها أنها بعض ذكريات طفولة وليد وشبابه ، وحياته في بغداد ، ومجموعة من الذكريات تداعت على ذهنه لحظة تسجيلها على ذلك الشريط ، دون ترتيب أو تنظيم . وهذا التداعي يذكرنا بتداعيات المعتوه بنجي في رواية " الصخب والعنف " لفوكنر ، حتى أن جبرا حين كتب تلك الذكريات في روايته أهمل علامات الترقيم كما فعل فوكنر في روايته تلك .

وفي الفصل الثاني يقدّم لنا الدكتور جواد حسني تصوّرات كاظم اسماعيل ، وابراهيم الحاج نوفل عن وليد ، وعن علاقة كل منهما به ، وهذه التصوّرات ، وعلاقة هذين الرجلين بوليد لا شأن لها بموضوع اختفائه ، ولكن جبرا عرضها علينا ليشعرنا بعظمة وليد ، وتفوّقه على كل المحيطين به ، لا أكثر .

وفي الفصل الذي يليه يحدثنا عيسى ناصر ، الفلسطيني الذي يسكن في عمان ، عن حضوره لوفاة مسعود الفرحان ، والد وليد . ويحدثنا عن أيام شباب هذا الرجل ، واقتنائه عربة يجرّها حصانان لنقل الركاب من القرية الى المدينة . ويحدثنا كيف تزوّج مسعود هذا من نجمة ، أم وليد ، وكيف أرسل وليد الى ايطاليا لدراسة اللاهوت ، فرغب عنه ، ودرس الموسيقى . ثم يطلعنا الرواي من خلال مذكرات وليد على طفولة وليد ، وعربه من الدير الذي كان يتعلم فيه ، مع مجموعة من أترابه الصبيان ، وذهابهم الى كهف بعيد للتعبّد والنسك . ثم يأتي دور الدكتور طارق ويحدّثنا عن صفات وليد النفسية من خلال تأملاته في بعض الجدل الذي كان وليد من مواليده ، فيخبرنا عن طاقته الجنسية الهائلة ، وعناده ، واتزانه في الظاهر من اخفائه للخفّة والطيش في الداخل . وفي الفصول اللاحقة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحدّثنا مريم الصفّار عن علاقتها الغراميّة بوليد ، وتحدثنا وصال روّوف عن حبهما له أيضا ، وعن زيارتها لابنه مروان في بيروت ، حيث كان منضما الى صفوف المقاومة الفلسطينية ، ومن خلال مذكرات وليد يطلعنا الروائي على بعض نشاطه ومساهماته في أعمال المقاومة داخل الأرض المحتلة ، وعلى تعذيبه في سجون العدو ، ثم في فصل آخر يحدثنا مروان بن وليد عن اعتصامه مع مجموعة من رفاقه المناضلين لاحد ث مستعمرات العدو ، وعن استشهاده في تلك العملية البريئة . ومن الواضح أن هذا الفصل بالذات كان يجب أن يقصه علينا جبرا ، أو احد شخصيّات الرواية الأخرى ، وليس مروان ، فكيف يصحّ في المنطق أن يحدّثنا شخص عن استشهاده ؟!

وتتابع شخصيّات الرواية الكشف عن جوانب علاقاتها بوليد ، الى أن تتبين وصال بواسطة عيسى ناصر في عمان ، أن وليدا عاد الى الأرض المحتلة ليتفرغ للنضال ومقاومة العدو هناك . وهنا تلحق وصال بوليد لتشاركه نضاله ، ولتبقى بقربه باعتباره رجل الأمس .

لكن الباحث يتساءل : هل كانت كل هذه الصفحات العديدة التي اشتملت عليها الرواية ، ضرورية لبنية الرواية ؟

وما هي علاقة الفصل الذي خصّصه جبرا للحديث عن مسعود الغزعان ، والد وليد ، ببناء الرواية ؟ وهل كان ضروريا أن يحدّثنا جبرا عن تفصيلات عمر وليد من الدير عندما كان صبيا ، وعن الجزئيات الصغيرة لعلاقات وليد الغرامية بكل أولئك النساء لا أظن ذلك . ولعل جبرا أن يكون قصد من وراء ذلك كله أن يعرّف على القارئ قضيته كفلسطيني ، ويصوّر مدى البراءة والطهر اللذين يتمتع بهما الفلسطيني ، ليتسنى لنا بالتالي مقدار ما لحق الفلسطيني من ظلم وقسوة على أيدي الأعداء الغزاة . ولعله أراد أيضا أن يسبغ على بطولة وليد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مسحة اسطورية ، ظنا منه أن ذلك يحقق لروايته المستوى الأسطوري الذي تفتقر اليه الرواية العربية عامة ، كما يقول . وأظن أنه لم يوفق في ذلك كما هو مبين . وينبغي ألا يصرفنا حكمنا على بنية هذه الرواية ، عن الاشارة الى قدرة جبرا على توظيف أحدث وسائل السرد المعروفة في فن الرواية ، من رسائل ومذكرات ، وحوار ، واسترجاع ، وشعر .

كما ينبغي ألا نغفل عن الاشارة الى قدرته الفائقة على سبر أغوار شخصيات روايته ووصف أدق خلجاتها النفسية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"" ب ""

القصّـــــة القصيـــرة

****

قبل الشروع في الحديث عن بنية كل قصّة من قصص جبرا القصيرة على حدة ، يحسن بي أن أشير الى عدد من الملاحظات:-

الاولى : أن جبرا كتب هذه القصص في فترة تمتد حوالي ست سنوات ، أي في الفترة الممتدة ما بين عام ١٩٥٠ - ١٩٥٦ ، وهذه الفترة هي الجزء الأخير من مرحلة البداية بالنسبة لجبرا قاصّا ، وهذا يعني أننا سنجد تفاوتا في مدى جودة البناء الفني لهذه القصص .

الثانية : أن بعض هذه القصص يتمتع بمستوى جيد من البناء الفنّي ، رغم أنها مكتوبة في مرحلة البداية كما قلنا .

الثالثة : لا نجد حضورا واضحا لقضية فلسطين في هذه القصص، كما هي الحال في رواياته ، بل نجد أن المسحة الانسانية هي الغالبة على هذه القصص، ولذلك نجد اهتمام جبرا ينصب على النواحي الفنيّة بالدرجة الأولى ، في حين كان يصرف اهتمامه في معظم رواياته ، لعرض قضيته كفلسطيني ، ولو على حساب البناء الفنّي .

الرابعة : خلت هذه القصص، نسبيا ، من كثير من المناقشات الفكرية التي لا شأن لها بالبناء الفنّي ، كما كان يحدث في روايات جبرا . وهذا يرجع لطبيعة فنّ القصّة القصيرة ، وضيق مساحتها .

الخامسة : تسربت رغبة جبرا في كتابة الرواية أو رغبته في البحث عن شكل جديد للقصّة القصيرة الى بعض قصصه هذه ، فأفسدت بناءها كما هي الحال في قصة " السيول والعنقاء " التي يمكن أن نسميها قصصية . (١)

---

(١) شكل من أشكال القصّة ، لا هو بالرواية ، ولا هو بالقصّة القصيرة . وقد قدّر عدد كلمات القصصيّة بحوالي عشرة الاف كلمة للمزيد أنظر : د . محمود السمرة : في النقد الأدبي ، ص ٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عشرون :-

في هذه القصّة يسير عنصر الحوار الى جانب عنصر الحوار الداخلي فيما يشبه خطّين متعرجين ، فاذا ابتعد أحدهما عن الآخر في نقطة ما ، خفّت حدّة التوتر في الحدث ، واذا اقتربا من بعضهما ، تصاعدت حدة التوتر ، وأوشك الحدث أن ينفجر ، لكن براعة القاصّ تتدخل وتؤجل انفجار الحدث الى اللحظة المناسبة ، أو لحظة الذروة ، وهي نقطة تماسّ العنصرين السابقين .

تبدأ القصّة بشريحة من الاسترجاع ، حيث يقدّم لنا القاصّ مقتطفات من الحديث الذي كان يتدفق من فم عبّاس لينصبّ في أذني صديقه مصطفى ، فيما يشبه موعظة أو محاضرة يلقيها الأول على صديقه " خليل ، بالاختصار ، رجل ناجح قد يقال انه شرير ، طمّاع ، بخيل ـ هذا ليس الا كلام الحاسدين . أمّا أنت فما الذي تفعله ؟ تأتيني كل يوم لتحدثني عن صداعتك القديمة بخليل ، وترفض الاعتراف بأنه ناجح . وما يضيره أنه صغير العينين ، كبير الشفتين ؟ انه سيتزوّج من قريب من أميمة ، وما الذي ستفعله أنت حينئذ ؟ ستجلس معي في المقهى ، وتحصي الغادين والرائحين" (١) . ثم يبدأ بعد ذلك عنصر الحوار الخارجي بين عبّاس وصديقه مصطفى ، حيث يهاجم عبّاس أفكار صديقه ومبادئه القائمة على المثاليات المستمدّة من بطون الكتب التي يقرأها . ويبدأ مصطفى بالرد على صديقه ، والاستخفاف بمبادئه المادّية النفعيّة ، التي يستمدّها من تجربته في الحياة والواقع .

لكن عباسا هذا لا يفتأ يذكّر مصطفى بخليل ذلك الجشع الشرير ، الذي استطاع بثروته أن يغوي أميمة حبيبة مصطفى ، ويفتنها بترف مصطفى والزواج منه هو . وكلما ذكر عبّاس هذه الحادثة أو ذكر أميمة توترت أعصاب مصطفى ، لكنه لا يستطيع

---

(١) عرس وقصص أخرى ، ص ٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن يفعل شيئا على صعيد الواقع، كأن يثبت لصديقه أنها ما زالت تحبّه ، أو أن يثبت له أنه أفضل من خليل ، وأن يمنعه من ذكر أميمة ، ولو بالقوة ، لذلك يلجأ الى تخيّل الأشياء التي يعجز عن تحقيقها . ومن هنا يبدأ عنصر الحوار الداخلي يأخذ مجراه، فهو يحاور عباسا من جهة ، ويحاور نفسه من جهة أخرى . وكلما ذكر عباس أميمة انصرف ذهن مصطفى الى استعادة ماضيه معها من جهة ، والى كيفية الانتقام من خليل ، من جهة أخرى ، ومن هنا يصبح مجرد ذكر أميمة معادلا موضوعيا لتوتّر الأحداث وتعاقبها ، حيث يقترب عنصر الحوار الداخلي من عنصر الحوار الخارجي . لكن مصطفى عاجز عن فعل أي شيء على صعيد الواقع العملي ، لذلك تفتر حدّة التوتر ، ويحوّل مصطفى طاقته تلك الى ممارسة فعل في خياله ، فعندما يذكر له عباس أن خليلا يتهمه بالغباء والجبن ، ويقول انه كان يتطفل على أميمة ، يقفز بخياله الى بيت خليل وينادي به الى خارج البيت وهناك يطبق بيديه على عنقه ليخنقه . (١)

وتتصاعد الانفعالات في داخل مصطفى وتصل ذروتها حين تمتد يد عباس الى الكتب التي يحملها معه مصطفى ، ويلقي بها على الأرض، ليعفي مصطفى بالتخلّي عن هذه الكتب المسؤولة عن فشله في الحياة . وهنا تكون المفاجأة الحقيقية في القصّة ، اذ يهب مصطفى قائما ويقلب الطاولة على عباس، وينقض عليه بشراسة ضربا وركلا . ومن الحق أن نذكر هنا أن جبرا مهّد لهذه المفاجأة تمهيدا مقنعا ، كما أن هذه المفاجأة تنسجم مع طبيعة الموقف، ومجموعة الانفعالات التي اثارها عباس بنقاشه لصديقه ، أما الشيء المدهش في المفاجأة فهو أن يقوم مصطفى بالهجوم على صديقه بكل ذلك العنف، بعد أن تولد في نفوسنا احساس عميق بأنه عاجز عن فعل أي شيء على صعيد الواقع، وهذه هي المفاجأة في الموقف.

ويبقى أن نشير الى قدرة الحوار الخارجي في هذه القصة على تقديم الشخصيّات

---

(١) أنظر جرن وقصص أخرى ص ٥٠ - ٥١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والكشف عن أدق خلجاتها ، وإلى قدرته على تصعيد عنصر الحوار الداخلـــــي ، وتوجيهه الوجهة التي تؤدي إلى تصاعد الأحداث فيما يشبه البناء الهرمـــــي ، بحيث تترابط أجزاء القصة ترابطا داخليا نابعا من طبيعة الشخصيات والأحداث.

ولعل هذه القصة أفضل قصص جبرا القصيرة من ناحية البناء الفني .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعنّون في الظـــلال :-

تبدأ هذه القصّة من نقطة قريبة جدا من نهايتها ، أي أن عنصـــر الاسترجاع يشكّل مقطعا كبيرا منها ، الا أن عنصر السرد المباشر هو الطابـــع العام لهذه القصة ، بالرغم من شيوع عنصر الحوار الخارجي في كثير من أجزائهـــا .

تبدأ القصّة بوصف دقيق لجو المأدبة التي تقيمها أمّ الياس في يوم عيـــد الخضر ، وفاء بنذرها لله ان شفى ابنها من مرضه ، فنجد وصفا مفصّلا لحلقـــة الغناء التي يتوسطها عازف العود وهو يغني " على دلعونة" والحاضرون يرددون ويصفقون ، ويطلقون المواويل الشعبية المعروفة . وفي ركن آخر كان هناك صبيّـــان هما : سلّوم وموسى ، يرقبان المغنيين حينا ، ويرقبان قدر اللحم وهو ينضـــج على النار حينا آخر . بعد ذلك يعود بنا الفنّان الى بداية القصّة ، فيخبرنـــا أن الصبيين : سلوم وموسى ، اتفقا على الذهاب الى تلك المأدبة ، لعل الواحـــد منهما يفوز بقطعة من اللحم أو حفنة من الأرز ، فقد كانا على علم بأن أمّ الياس ستذبح ذلك الخروف ، الذي كانا يحضران له العشب ، في يوم الخضر وتوزع لحمـــة على المدعوّين . وهكذا ذهب الصبيّان كما اتفقا الى مكان المأدبة ، وصدفـــه لم ينس سلّوم أن يحمل معه كسرة من الخبز في جيبه . لكن المفاجأة تكون حيـــن يمدّ سماط المائدة ، ويتقدّم اليه الرجال ، وتتصدى أمّ الياس لمنع الصبيان الرافديـــن الى المأدبة ، من الوصول الى الطعام . وبعد محاولات يائسة يقوم بها الصبيّـــان للوصول الى المائدة ، تحت شتائم أم الياس ، ومدافعتهما لهما ، ينسحبان مـــن المكان ، ويتوجّه سلّوم الى عين الماء المجاورة للكنيسة ، وهناك يبلل كسرة الخبـــز التي حملها معه من البيت ، ويأكلها ، فيسد بها جوعه ، ويغمس قدميه الحافيتيـــن في الماء البارد . وما هي الا لحظات حتى لحق به صديقه موسى وغمس رجليـــه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الماء أيضا . وهكذا تنتهي القصّة .

في هذه القصّة يقدّم الفنّان شخصياته من خلال الحوار الخارجي تقديما جيدا ، اذ يعرفنا على مستوى المعيشة التي يحياها سلّوم من خلال الحوار الذي يدور بينه وبين أمه :

" أب عدس مرّة أخرى ، زهقنا العدس .

فقالت أمّه : " وماذا تريد ؟ دجاجا محمرا ؟"

- لا . شوية لحم .
- لحم يا مقصوف في أثناء الأسبوع ؟ سأطبخ رأس خروف من مقادم يوم الاحد .
- أوه زهقت الرؤوس والمقادم . نريد شوية لحم .
- تريد ضربة على قفاك . من الفجر حتى غروب الشمس أبوك يشتغل ولا يقول مثل هذا القول .
- لماذا لا تشترين لنا شوية لحم ؟
- بماذا أشتريه يقطع رأسك ؟ " (١)

وفي هذه القصّة يوظّف جبرا عنصر الرمز بطريقة ذكيّة جدا فيعطي لقصته عمقا فلسفيّا ما كان يمكن ان يتأتّى لها بهذا المضمون ، وبهذا البناء البسيطين ، لولا قدرة الفنّان الفائقة على ايجاد الرمز الموحي بالدلالات الكبيرة .

فحين يتوجّه سلّوم الى عين الماء الجارية بقرب الكنيسة ويبلل كسرة الخبز التي معه بالماء ويأكلها ، ويغمس قدميه في الماء ليزيل عنهما غبار الطريق ، يشعر براحة عظيمة ، وتصغر في عينيه قطعة اللحم التي حلم بأن يحظى بها في المأدبة ، وفي هذا اشارة الى مسألة التعميد في الديانة المسيحية ، كما أشرنا في مكان سابق من هذا البحث .

---

(١) عرس ... ، ص ص ٦٨ - ٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يسأل موسى سلّوما عند عين الماء :

"- هل أكلت لحما ؟

- طبعا .

- أما أنا فلم أحصل الّا على قطعة صغيرة .

- " كلها واحدة . صغيرة أو كبيرة " . (١)

وهذه الجملة الأخيرة التي يقولها سلّوم هي التي تحمل الدلالة الرمزية الكبيرة المتضمنة رؤيه السيد المسيح في الزهد في مادّيات الحياة ، والانصراف الى عالم الروحانيات والمثل . وهنا تتجلى لنا قدره جبرا على الاستفادة من عنصر الحوار ، وعلى استغلال طاقات اللغة أيضا .

---

(١) عرس ٠٠٠ ، ص ٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفراموفون :-

يبدو أن ميخائيل جبرا الأصيل لكتابة الرواية قد تسرّب الى هذه القصّة ، فالمعروف عن القصّة القصيرة أنها تهتمّ بحدث واحد أو بشخصيّة واحدة ، داخل شريحة زمنية قصيرة نسبيا ، أما تعدد الشخصيات والأحداث وسعة الزمن ، فذلك من طبيعة الرواية . وفي هذه القصّة نجد عددا من الشخصيّات وعددا من الأحداث واسعة في الزمن ، مما يجعل هذه القصّة تبدو وكأنها مختصر جيد لرواية ما .

أحداث هذه القصّة تدور في ثلاثة أماكن ، هي : بيت يوسف ذلك الكهل الذي جاوز الخمسين ، وبيت الصبي يعقوب الذي يعاون يوسف في العمل في صنع قوالب الزنك ، ومكان عمل الاثنين معا ، وهو المسبك الذي يملكه حنّا المواسيري ، ويصنع فيه صفائح الزنك .

تبدأ القصّة بنوع من الحوار الخارجي بين يوسف ويعقوب حيث يقدّم لنا القاصّ شخصيّتين ، وشخصيّة حنا المواسيري ، تقديما جيدا ، من خلال ذلك الحوار ، فنعرف أن حنّا يقضي معظم أوقاته ثملا ، ونعرف أن الصبيّ يعقوب مولع بالمطالعة والموسيقى ، ونعرف أن الكهل يوسف كانت له أيام من العز والترف حين كان في مصر وأنه ما زال يحنّ للنساء والخمر رغم تقدّم العمر به ، ونكد عيشته تلك ، حتى أنه لا يخجل من الحديث عن مغامراته الغرامية القديمة للصبي يعقوب . وحين تجيء صبحيّة الموصلي لزيارة حنّا في المسبك تتعلق بها عينا ذلك الكهل ، يوسف .

بعد ذلك يدخل لنا جبرا عنصر المفاجأة وهو تغيّب يوسف عن العمل في أحد الأيام ، فيذهب يعقوب الى كوخه ليعرف سبب غيابه عن العمل ، وهناك

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يفاجأ الصبيّ بوجود جهاز غراموفون في كوخ يوسف ، وبعض الاسطوانات ، فيعبر على يوسف رغبته في زيارته من حين لآخر لسماع الموسيقى ، فيقبل الأخير عرضه على أن يزوده الصبيّ ببعض العنب في كل مرّة .

ثم تأتي المفاجأة الثانية عندما يقوم يوسف بزيارة غير متوقعة لبيت الصبيّ يعقوب ، ويكون معه جهاز الغراموفون .

وبعد أن أمضى وقتا مع والدة يوسف ، خرج من البيت وأشار الى يعقوب أن يتبعه ، ففعل . وحين أصبحا في الشارع عرض يوسف على يعقوب أن يبيعه جهاز الغراموفون لقاء ما يحمله من نقود ، وبعد شيء من المحاورة اشترى يعقوب الجهاز بالسبعين قرشا التي كانت صدفة في جيبه ، وسمح ليوسف أن يأخذ بعض المجلات القديمة التي يقتنيها ، كجزء من ثمن الجهاز ، فعاد يوسف الى بيت يعقوب ثانية وحمل تلك المجلات القديمة.وهنا يظهر تخيّل القاص في بناء شخصيّات قصّته . كيف تأكّد أن يوسف يبيع جهاز الغراموفون لذلك الصبي بتلك الطريقة المريبة ، وبذلك الثمن البخس ؟ وكيف يقنعنا القاص بتلك الصداقة بين ذلك الصبي المحب للموسيقى وذلك الكهل ؟ .

ولم يقل لنا جبرا كيف تقبّل أحد يعقوب ذلك الموقف من ابنهم وصديقه المريب .

ومن هنا تبدو لنا هاتان الشخصيتان غير مقنعتين .

في اليوم التالي يكشف لنا ذلك الحوار الممتاز الذي يديره جبرا بين يوسف والأسدي عنّا عن مفاجأة جديدة هي في الوقت نفسه تفسير لتصرّفات يوسف في اليوم السابق :

- ألم تجد الا صبية تحدّق عينك عليها ؟
- أما صبية أو بلاش . .
- كم واحدا سقيت وألححت على حسابك طول الليل ؟
- أربعة ، خمسة ، لا والله ، ستة . .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- حتى ترضيها ؟
- نعم ، بدون الفايدة ؟
- " وما سمحت لك "
- من قال ذلك ؟ .. بستها ، والله بستها . (١)

من الواضح أن حبكة هذه القصّة حبكة مفتعلة ، وذلك لأنها منبثقـــة عن الخلل أو الخطأ الذي ارتكبه القاصّ حين رسم لنا شخصيتي يوسف ويعقوب ، فالنتائج المستخلصة من فرضيات خاطئة لابد أن تكون خاطئة ، وحبكة هذه القصّة قائمـــة على صداقة يوسف ويعقوب ، وهي صداقة مفتعلة ، وبالتالي فالحبكة مفتعلة أيضا .

---

(١) عرس ... ، ص ١٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملتقى الأحلام :-

يبدو لي أن جبرا لم يوفّق في رسم شخصيّات هذه القصة، كما لم يوفّق في رسم شخصيّات قصّة " الغراموفون". والخطأ الذي ارتكبه في رسم شخصيّات هذه القصّة أدّى الى وجود الحبكة المفتعلة، المقحمة على القصّة من الخارج .

تخبرنا القصّة أن الصدفة ساقت سليم الجابي الى بيت أنور كريم، الأديب الرسام، الذي يقع على تلّة خارج المدينة، اذ فاجأ المطر سليما بينما كان في نزهة، فلم يجد ملاذا الا ذلك البيت، الذي يملكه كريم . وهناك يتعارف الشابان ويبيت سليم في بيت كريم وكأنهما صديقان من قبل . وفي أحد الأيام يجيء سليم برفقة خطيبته رباب لزيارة سليم في بيته، وتتعمّق أواصر الصداقة بينهما . لكن رباب تتعلق بكريم وتبدأ علاقتها مع خطيبها بالفتور . وما هي الا أيام حتى تجيء رباب بمفردها لزيارة بيت كريم، وتكشف له عن حبّها ، وتستسلم له بكل يسر .

فأيّ فتاة هذه يا ترى ؟ هل نعرف سبيهة لرباب هذه في حياتنا العادية؟ لا أظن ذلك . وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، بل يزعم لنا جبرا أن رباب هذه ادعت لخطيبها وأهلها أنها ستسافر الى بيروت مدة أسبوع او عشرة أيام، وذهبت لتقضي تلك الأيام في بيت كريم، وهذا ما كان منها بالفعل . وبطبيعة الحال يذهب سليم بالصدفة لزيارة صديقه كريم، فيرى كريم اختفاء رباب في احدى غرف البيت، ولكنها تصرّ على الظهور ومصارحة خطيبها بالحقيقة . فلا يكون من سليم الا التسامح والتفهّم لمشكلة خطيبته التي تحب في كريم أشياء لا تجدها فيه . أليس هذا افتعال وتزييف لطبيعة البشر ؟ فمن هي تلك الفتاة التي تترك خطيبها وتأتي لزيارة صديقه في بيته لتعلن له عن حبها له مع أنها لم تعرفه بعد معرفة جيّدة ؟ ومن هي تلك الفتاة التي تدّعي لأهلها وخطيبها أنها ستسافر الى خارج البلاد وتذهب لقضاء أيام مع عشيقها وصديق خطيبها، الذي لا يبعد كثيرا عن بيت أهلها أو بيت خطيبها ؟ وأي فتاة تلك التي تصرّ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على مواجهة خطيبها بحقيقة خيانتها له على ذلك النحو الغريب ؟ وأن شاب عربي هذا الذي يتقبّل من خطيبته ما تقبّله سليم من رباب ؟ .

يبدو لي أن جبرا فطن في نهاية قصته الى أنها تفتقر الى المنطق والى أنها لا تقنع أحدا ، فاستدرك ، واعترف لنا بأن ما رواه لنا مجرد حلم لا صلة له بالحقيقة أو الواقع ، فيقول لصديقه الذي كان يحدثه : كل ما حدثتك به صحيح من بدء العاصفة الى ماقبل الساعة التي جاءت فيها رباب لوحدها الى منزلي . أما البقية - أو تظن أن فتاة مثل تلك يمكن أن توجد الا في خيالي ؟ (١) .

مما سبق نرى أن جبرا أقام حبكة قصته على ركيزتين رئيسيتين ، احداهما ضعيفة ، والثانية غير صحيحة ولا وجود لها . أما الركيزة الضعيفة فهي تتمثل في حشد المصادفات التي لا مبرر لها ، فالمطر هطل بالصدفة على سليم وهو يتنزه خارج المدينة على مقربة من بيت كريم ، والصدفة هي التي عادته الى ذلك البيت ، ومن هناك حصل التعارف بين سليم وكريم ، والصدفة هي التي جعلت سليما يزور بيت كريم أثناء وجود رباب مع كريم . وأما الركيزة غير الصحيحة فهي اقتراض جبرا أن هناك فتاة عربية تشبه رباب ، وأن هناك شابا عربيا يشبه سليما ، وأن هاتين الشخصيتين يمكن أن توجدا في الواقع . وهذا غير صحيح وعلى ذلك نخلص الى أن حبكة هذه القصة لا تقنع أحدا ، والى أنها مقحمة على طبيعة الشخصيات اقحاما لا مسوغ له ، مما يجعل هذه القصة أقرب الى الحكاية منها الى القصة القصيرة بالمفهوم الحديث للقصة القصيرة .

---

(١) عرس ٠٠٠ ، ص ١٥٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوافذ مغلقة :-

في هذه القصّة نجد الأحداث والشخصيّات مسخّرة لاثبات بعض العقائد التي يؤمن بها جبرا ، كايمانه بأن المرأة ينبوع شرّ وفساد ، وايمانه بأن الفقر والحرمان سبيل من سبل انحراف الانسان أو ما شابه ذلك ، وايمانه هذا حال بينه وبين التوفيق في ايجاد بناء فنيّ متكامل لهذه القصّة .
فنحن امام مجموعة من الأحداث المتفرّقة التي لا يربط بينها أي رابط داخلي ، وانما رتّبت هذه الأحداث واحداثا اثر الآخر فيما يشبه الخط المستقيم ، من غير أن يكون بينها أيّ تفاعل أو تأثير متبادل ، وكل ما يربط بينها هو ذلك الخط الزمني الطويل الذي لا يكفي لاستيعاب أحداث رواية ، وليس قصّة قصيرة .

يغلب على هذه القصّة اسلوب السرد المباشر ، حيث يروي لنا أحداثها بطلها أو الشخصية المحوريّة فيها ، ولأن كل أحداث القصّة متعلقة بتلك الشخصيّة فقد بدت لنا القصّة وأنها شيء من السيرة الذاتيّة التي تتناول تجربة معينة في حياة تلك الشخصيّة .

يخبرنا بطل هذه القصّة أو راويها ، منذ البداية ، بأنه مصاب بما يسمّى بمركب الجرم ، أو الشعور بالذنب من غير أن يكون قد اقترف ذنبا . وهذا الشاب تخرّج من احدى الكليّات ، وهو في تلك المرحلة يبحث لنفسه عن عمل أو وظيفة ، وأثناء تلك المرحلة تجمعه الصدفة في احدى الليالي في أحد الشوارع المظلمة ، بأميرة عائق ، ابنة جيرانه الفقراء التي لا تكفّ عن ملاحقته بنظراتها ، ومنذ يضمّها الى صدره دون مقدّمات أو تمهيد . وتتتابع الايام ، وتتولّد بينهما أواصر المحبّة حيث أصبح ذلك الشارع المظلم مكانا لخلواتهما كل ليلة . ومثل هذه البداية لا تقنع الانسان بصحتها أو امكانيّة حدوثها ، فكيف نصدّق أن ذلك الشاب الجامعي المؤدب لدرجة الشعور بالذنب من غير أن يكون له ذنب ، يهاجم ابنة الجيران

ويقبّلها في الشارع لمجرد أنها تبادله بعض النظرات ؟ وكيف نصدّق أن تلك الفتاة تقبّلت هجوم ذلك الشاب بكل هذا الرضى والاستحسان ؟

وبعد أن تمرّ على علاقة الحبّ تلك أيام ، تقترح الفتاة على ذلك الشاب أن يأخذها الى مكان خارج المدينة ، لتكون خلوتهما أطول وفي مأمن من عيون الرقباء ، فيأخذها الى جبل خارج المدينة ، وهناك يداهمهما أثناء لحظات الخلوة بدوي غليظ ، ويهجم على الفتاة محاولا اغتصابها ؛ لكن الشاب يعاجله بحجر ضخم على رأسه فيتطاير دمه على الارض ويقفل الشاب والفتاة راجعين الى المدينة" (١) وهذه المفاجأة المتمثلة في مداهمة ذلك البدوي هي مجموعة القيم والعادات التي نشأ عليها ذلك الشاب ، تجسّدت له بسبب عقدة مركب الجرم التي يعاني منها على تلك الهيئة . أما أن نفهم تلك المفاجأة بكل جزئيّاتها في اطار الواقع فذلك مالا نجد له سبيلا في هذه القصّة . وقد كان حريا بجبرا أن ينهي قصته عند هذا الحدّ ، فيبقى لها طابع القصّة القصيرة لكنه لم يستطع التحرر من رغبته في كتابة الرواية ، فأخذ يسرد علينا أحداثا أخرى . ومن تلك الأحداث اخباره لنا بأن ذلك الشاب ضمن كوما في احدى القرى المجاورة ، وان تلك الفتاة كانت تأتيه كل يوم الى ذلك الكوخ حيث يقضيان أحلى الأوقات . ثم يخبرنا أن تلك الفتاة تزوجت فيما بعد من التاجر العجوز نصر سلامة ، بعد ان رفضت الزواج من حبيبها الشاب ، وذلك كي تستحوذ على أموال ذلك العجوز . ثم يخبرنا أن تلك الفتاة استدرجت الشاب لزيارتها في بيتها الجديد بحجة أنها تريد أن تعرّف زوجها العجوز عليه ، ولكن الشاب يفاجأ عندما يذهب الى بيتها فيجد أنّ زوجها قد سافر لعدد من الأيام ، وأنها ما دعته الى لتختلي به في بيت زوجها ، فلا يجد ذلك الشاب بدا من رفضها ، بل لا يملك نفسه من الهجوم عليها في محاولة لخنقها" (٢) .

---

(١) أنظر عرس ... ، ص ص ١٨٢ — ١٨٣ .

(٢) أنظر عرس ... ، ص ص ٢٠٢ - ٢٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما قلت في البداية لا يمكن اعتبار هذا الحشد من الاحداث التي لا يربط بينها غير الاطار الزمني ، قصّة قصيرة بالمفهوم النقدي الدقيق . ولا أظن أنني أبالغ اذا قلت ان أحداث هذه القصة يمكن أن يصاغ منها عدد من القصص القصيرة ، أو يمكن أن تصاغ منها رواية ، لولا ما في القصّة من اعتساف في رسم الشخصيّات . كما أنّ جبرا زاد في تشويه بنية قصته هذه بتلك المناقشة الطويلة التي دارت بين الشاب بطل القصّة وصديقه عفيف الأسمر ، عازف العود ، والتي لا شأن لها بمضمون القصّة أو ببنيتها (١) ، وما أظنه افتعلها الا ليخفف من حدّة نغمة السرد الممّل الطاغية على القصّة ، وليقرر حقيقة احساس الشباب بالخيبة والمرارة كلما نضجوا شيئا فشيئا .

---

(١) عرس وقصص أخرى ، ص ص ١٧٠ - ١٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأختـــان رفاكهة من الشـــوك :-

أبرز ما يميّز هذه القصّة هو تداخل زمن الأحداث، تداخلا يصعب معه التمييز بين حدود تلك الشرائح الزمنية، حيث نجد أحداث الماضي متداخلة في أحداث الحاضر وكأنهما تحدثان في زمن واحد، لا في زمنين متباعدين، ففي هذه القصّة نجد مجموعتين من الأحداث، أحداث ترون قصّة حب المعلمة ثريّا للطبيب رافد، وأحداث ترون قصّة حب أختها الكبرى هدى للطبيب نفسه. أما حب ثريا لرافد فقد كان في الماضي، وأما حب هدى له فهو الحاضر الذي تعيشه الاختان معا.

تحدّثنا ثريّا عن حبّها لرافد من خلال سلسلة التداعيات والهواجس التي تراود ذهنها وهي راقده في سريرها تحاول أن تنام، بينما تغطّ أختها هدى في رقاد عميق على السرير المجاور لسريرها، فتخبرنا أنها تعرفت الى رافد اثناء معالجته لها في المستشفى بعد أن أصيبت برصاصة في فخذها، في احدى المعارك الصغيرة التي نشبت بين العرب واليهود في أحد أحياء مدينة القدس، وتخبرنا أن تلك المعرفة نمت وتحوّلت الى حبّ كبير كاد أن يحطمهما على الزواج، الا أن ذلك الطبيب تحوّل فجأة عن حبّها، وتبين لها فيما بعد أنه يحب أختها الكبرى هدى، ولذلك فهي تقضي كثيرا من الليالي ساهرة لا تنام، وهي لا تعرف كيف تصارح أختها هدى بتلك الحقيقة المرّة. وفي الليلة التالية لتلك الليلة التي حدثتنا فيها ثريّا عن حبّها لرافد تتأخر هدى عن العودة الى البيت الى ما بعد التاسعة ليلا بحجة أنها كانت تحضر محاضرة لأحد المحاضرين المشاهير، لكن ثريّا تعرف بالحدس أنها لم تكن في محاضرة، وانما كانت مع رافد في بيته، وما ان تأوي الاختان الى غرفة نومهما حتى تبدأ ثريّا بمناقشة أختها في أمر ذلك الحب، حبّهما لرافد، وهنا تحاول ثريّا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن تقنع أختها بأن تبتعد عن رافد بشتى الوسائل ، فتلجأ الى الكذب والتهويل اذ تزعم لأختها أن رافدا تخلّى عنها بعد أن حملت منه وأجهضها ، **وتحذّرها** من أن تواجه مع رافد المصير الذي واجهته هي . لكن هدى تصرّ على الاستمرار في علاقتها مع رافد ، وتخبر ثريا بأن رافدا سيتقدّم لخطبتها في وقت قريب. ويبدو أن هذه المناقشة تمثل درجة عالية من توتّر الأحداث وتأزّمها في القصّة . وكمن لهذه العقدة يجعل جبرا ثريا تقوم بمحاولة للانتحار عن طريق ابتلاع اليود ، **وتنقل** ثريا في اليوم التالي الى المستشفى ، ويجهد رافد وزملاؤه الأطباء في انقاذها ، وتكتب لها السلامة على يد رافد ، الذي يقرر في ذلك اليوم أن يتقدّم لخطبة هدى من والدها لولا معارضة أمّه التي لا تلين ، والتي تأنف أن يتزوج ابنها الطبيب من معلمة أطفال كان ابوها الميكانيكي ، يصلح سيارة والد رافد .

وكما هو واضح من أحداث القصّة نرى أن جبرا يقيم حبكتها على مسألة تحكّم الوهم والخيال في عقليّة ثريّا :

فالعلاقة بين ثريا ورافد لم تتجاوز قبلة عابرة ، ولكن ثريا توهمت انه كان بينهما وبين رافد حب كبير ، وأنها حملت من رافد ، وأجهضها . وأوهامها هي التي جعلتها تظن أنها تصلح للزواج من رافد أكثر مما هو الحال بالنسبة لأختها هدى ، تلك التي لا تملك الحد الأدنى من الجمال أو الذكاء . وأوهامها هي التي جعلتها تفكر في الانتحار لتحول دون زواج رافد من اختها بوضع شبح الموت حائلا بينهما . لكن محاولة الانتحار هذه يمكن أن تفهم على أنها محاولة لاستدرار عطف الآخرين ، بمعنى أن ثريا تعاني من الشعور بالحرمان وتجاهل الآخرين لها ، وهذا ما يشير اليه قول رافد نفسه " هذه مأساتها . لم يحبّها أحد " (١) . ولكن جبرا لم يقل لنا لماذا تعاني ثريا من تحكم الوهم في تفكيرها ، ولم يقل لنا لماذا لا يحبها الناس، مع أنها أجمل وأذكى من أختها .

---

(١) عمّان ٠٠٠ ، ص ٢١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يكون جبرا أكثر قربا من المنطق والحقيقة لو قال لنا ان هدى هي التي تعاني من تحكّم الوهم في تفكيرها ومن الاحساس بالحرمان والاغتراب ، وذلك لان هدى غير جميلة ، وتنصيبها من الذكاء وخفة الظل قليل .

ومن هنا نقول ان حبكة القصة غير مقنعة ، اذ كيف نصدّق ان ثريا الواثقة من جمالها وذكائها وخفة ظلها ، تعاني من الشعور بالاغتراب والحرمان ، لدرجة أن تحاول الانتحار لاستدرار شفقة الآخرين ؟ وكيف يصدّق أن هدى الساذجة البسيطة تملك كل هذه الثقة بنفسها فتصرّ على الزواج من رافد بعد أن أخبرتها ثريا بأنها حملت منه وأجهضت ، ثم تنكّر لها ؟ . وكيف نصدق أن ذلك الطبيب ، صاحب العقلية المتفتّحة يقيم علاقة غراميّة مع الأختين في الوقت نفسه ، وهما من جهة اخرى قريبتاه ؟ وهذه التساؤلات تقودنا الى حقيقة واحدة هي وجود هوّة كبيرة بين الشخصيّات وما يصدر عنها من أحداث وتصرّفات ، مما يجعل الحبكة بالتالي مفتعلة ، ومقحمة على القصّة .

أمّا من ناحية الأسلوب في هذه القصة فقد رأى القاص بين الحوار الداخلي والحوار الخارجي والسرد المباشر . وهذه الأساليب الثلاثة تتداخل فيما بينها تداخل الماضي والحاضر في زمن القصّة ومكانها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النهـــــر العميـــــق

تعود حبكة هذه القصّة على تصوّر خاطئ لأعراض فقدان الذاكرة الصادر عن يصيب الانسان نتيجة لمفاجأة حادّة ، أو لاصابة جسديّة يمتد أثرها الى الدماغ. وهذا التصوّر الخاطئ يجعل حبكة هذه القصّة حبكة غير منطقيّة وغير مقنعة.

يخبرنا راوي القصّة ، وهو الشخصيّة المحوريّة فيها ، بطريقة السرد المباشر ، أنه وجد نفسه ملقى على ضفة نهر دجلة في حالة من الاعياء الشديد ، الى جانب ما يحسّ به من ألم في مؤخرة رأسه ، ويخبرنا أنه حاول أن يتذكّر كيف جاء الى ذلك المكان ، ولكنه لم يفلح في ذلك ، فيتوجّه الى مكتب الجريدة التي يعمل فيها صديقه حسين ، وهناك يخبره العاملون في الجريدة أن الشرطة تبحث عنه ، ولكنه لا يذكر انه فعل ما يستوجب مطاردة الشرطة له ، فيتوجّه الى أحد المقاهي ، وهناك يقابل شقيقه سفين ، فيخبره الآخر بأن الشرطة تبحث عنه ، وما يكاد شقيقه سفين يودّعه حتى يدخل شرطيّان ويقتادانه الى المركز . وهناك يحقق معه أحد الضباط بتهمة قتل حبيبته عائدة ابنة المقدّم سالم الجبلي ، فينكر في البداية ، فيضربه أحد رجال الشرطة ويقتاده الى غرفة ، ويغلق عليه الباب . وحين يعود به الشرطيّ ثانية الى غرفة المحقق ، يقرّ ذلك الشاب بأنه هو الذي قتل عائدة تلبية لرغبتها في الخلاص من اضطهاد أبيها وقسوته عليها ، بسبب حبّها له ، وذلك أنه ذهب في يوم الاثنين لزيارتها في بيتها أثناء غياب والدها عن البيت ، فوجيء بها تقدّم له مسدّسا وتأمره أو تتوسّل اليه أن يطلق عليها الرصاص ليريحها من قسوة أبيها . فلا يجد بدا من تنفيذ رغبتها ، وقتلها كما تريد . ولكن حين يسأله المحقق ماذا فعل بعد ذلك يعجز عن التذكر ، وبعد يوم من اعتقاله يتبين أن عائدة انتحرت بنفسها ، ولم يقتلها أحد ، وحين يخبره المحقّق بهذه النتيجة التي كشف عنها التحقيق ، يرفض التصديق ، ويصرّ على أنه هو الذي قتل عائدة ، فيوصي له أخوه سفين الأمر ، ويرتّب له الحوادث من جديد ، فيذكر لنا أن المقدّم سالم الجبلي رأى كاملا وهو

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خان من بيته ، حين كان الأخير في زيارة حد بيته عائدة ، وأنه بعث سائق سيارته في اليوم نفسه ليقتل كامل هذا . ويخبرنا ان ذلك السائق وجد كامل في المقهى ، فاستدعاه الى سيارته في الخارج ، وحين سارت بهما السيارة أخذ السائق يتوعد كامل ، مما أثار حفيظة الأخير ، ودعاه الى ضرب السائق ، فردّ عليه السائق بضربة على مؤخرة رأسه بقطعة معدن ، وحين أغمي عليه ، القاه من سيارته على ضفة النهر ، فمكث هناك مدّة يوم كامل وهو في حالة فقد الوعي ، وبالتالي فهو لا يعرف أين كان في مساء يوم الاثنين وطيلة نهار الثلاثاء .

والخطأ الذي وقع فيه جبرا هو اعتقاده أن تعرّض كامل لهذه المدة من فقدان الوعي ، يجعله عاجزا عن تذكر الاشياء التي حدثت معه قبل تعرّضه لحادث الضرب ، بمعنى أنه فقد ذاكرته ، ولكن فقد الذاكرة يعني أن ينسى كل الاشياء السابقة في حياته ، حتى اسمه ووالديه أو اخوانه . ومنا يظهر لنا أن جبرا يخلط بين فقد الذاكرة ، وفقد الوعي . ففقد الذاكرة معناه أن ينسى الانسان كل الاشياء التي يعرفها قبل الحادث المسبب للحالة المرضية ، أما فقد الوعي ، فمعناه أن لا يتذكر الانسان الاشياء التي رآها او سمعها ، أو فعلها اثناء ساعات فقد الوعي أو الغيبوبة فقط ، وفي مثل حالة كامل يطلق هذه القصة ، نتوقع من كامل أن يتذكر عراكه مع سائق سيارة سالم الجبلي ، ونتوقع منه ان يتذكر تفاصيل زيارته لعائدة بوضوح لأن هذه الاشياء حصلت أثناء وعيه ، فلماذا لا يتذكرها بعد صحوته من غيبوبته تلك ؟ فان قيل انه فقد ذاكرته ، نقول وكيف اذن يتذكر عائدة وأباه وأصدقاءه ؟

وهناك خطأ آخر وقع فيه جبرا حين رسم لنا شخصيّة كامل ، وشخصيّة عائدة ، فكيف نصدّق أن كامل ذلك الشاب الجامعي يصرّ على الادعاء بأنّه قتل عائدة وهو يعلم ما يترتب على اصراره هذا من عقوبات ارضاء لرومانسيته

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي تريد له أن يكون البطل [illegible] المخلّص لحبيبته من قسوة أبيها ، ولـــــو عن طريق قتلها ؟

قد نوافق جبرا على أن المثاليّات التي تعلّمها كامل من الكتب أثناء دراستـــه الجامعيّة ، ما زالت تلحّ عليه ، وقد نصدّق أنه ما زال يعاني من رومانسيّـــة الشباب والمراهقين ، ولكن أن تصل هذه الرومانسيّة الى حد تصريح نفســـه للاعدام فذلك مالا نصدّقه . وكيف يريد منا جبرا أن نصدّق أن عائدة ، وهـــي فتاة جامعيّة أينما انتحرت بسبب عدم موافقة أبيها على حبّها لكامل ، وقسوتـــه عليها بعض الشيء بسبب ذلك الحب ! لا أظن أن موقف والد عائدة من حبّهـــا لكامل ، يكفي لجعلها تقدم على الانتحار . ولكنها رومانسيّة جبرا ، فـــي هذه القصّة على الأقل ، انسحبت على شخصياته انسحابا غير مقنع .

ولكن ذلك لا يعني عدم وجود بعض الجوانب المشرقة في هذه القصّـــة ، فهناك الحوار الخارجي الجيّد الذي يكشف جبرا من خلاله عن بعض جوانـــب شخصيّاته ، كذلك الحوار الذي يدور بين المحقق وكامل والذي يتضح من خلالـــه أن والد عائدة غير راض عن تعلّقها بكامل ، لأن له أختا مغنيّة ، هي ساجـــدة الصوفي ، والمعروفة باسم حنان :

- اذن ساجدة الصوفي أختك . وهي المعروفة باسم المغنية حنان .
- نعم
- وأين هي اليوم ؟ في دمشق ؟
- لست أدري .
- اذن لم يزرك سالم الحبلي بزواجكما ؟ فهمت . فهمت . (١)

---

(١) عمان ، ص ٣١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السيـــــــون والعنقـــــاء :

في هذه القصّة تتجلى رغبة جبرا الملحّة في كتابة الرواية ، وهذه القصّـــة تقع في منطقة متوسّطة بين القصّة القصيرة ، والرواية ، ولذلك لعله يكون مناسبـــا أن نقول عنها انها قصصيّة .

هذه القصصيّة تحتوي على ثلاث حكايات ، كل واحدة منها لها عنـــوان منفرد ، يكاد يجعل منها قصّة لا صلة لها بالحكايتين الأخريين . وليس ثمـــة ما يربط بين أحداث هذه الحكايات الثلاث باستثناء علاقتها الواهية بالشخصيات . بمعنى أنه لا يوجد أي أثر للحبكة في هذه القصصيّة ، مما يجعلها من الناحية الفنيّة ، أقرب الى المذكرات منها الى القصّة .

في الحكاية الأولى التي بعنوان " الآلهة الصغيرة" يحدثنا جميـــل ، راوي الحكاية ، وهو شديد الشبه بجبرا ابراهيم جبرا ، عن رحلة ممتعـــة قام بها هو وصديقه شيلا الانجليزية أيّام كان طالبا في جامعة كيمبردج . فيذكر لنا أنهما أمضيا ذلك اليوم يتناجيان ، ويتبادلان القبل ، في ذلك الزورق الـــذي كان يتهاديان بهما على مياه نهر الكـــام ويخبرنا أن شيلا هذه اختارتـــه على صديق آخر لها هو نورمن ، الذي طلب اليها الشابان أن تختار واحـــدا منهما ، ليرحل الآخر ، لم تجد شيلا مندوحة من اختيار جميل ، ولم يقل لنـــا جبرا سبب هذا الاختيار ، باستثناء قوله ان شيلا كانت معجبة بشعر جميـــل الأسود الكثيف .

وفي الحكاية الثانية ، التي بعنوان " نيران " يحدثنا الراوي جميل ، عـــن ليلة أمضى قضاءها مع شيلا في أحد المطاعم ، حيث رقصا مع لفيف من الشباب والشابات ، وذكر لنا من بينهم : صديقه ، جون بيترز، الشديد الشبه بتوفيق الحلو مـــن ناحية أفكاره ومبادئه ، وجين صديقة جون هذا ، والأمير الهندي الكومار كمـــل ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصديقه . وليس في هذه الحكاية أي أحداث ، وانما هي مجموعة من الآراء السطحيّة الفجّة التي يطرحها هؤلاء الشباب من خلال مناقشاتهم في ذلك المرقص والتي دار معظمها حول الحب ، والحرب العالمية التي كانت دائرة في ذلك الحين .

وفي الحكاية الثالثة التي بعنوان " الكتب وحفنتان من التراب" ينطلق جميل الى بيته حيث دعا أصدقاءه أولئك لشرب البيرة عنده في البيت ، وهناك يبدأ جون بالعزف على جيتاره ، ويبدأ جميل يفكر جدّيا بتأليف كتاب هو حكمة العمق وثورة الحس كما يقول عنه هو نفسه ، وتدور بين الاصدقاء المناقشات والثرثرات التي كانت بينهم في المرقص ، قبل أن يأتوا الى البيت .

وكما هو واضح مما تقدم يمكن القول ان " السيون والعنقاء" هي عبارة عن مجموعة ذكريات لجبرا نفسه كتبها على هذه الصورة . ولا يمكن اعتبارها بأي حال من الاحوال قصّة او قصصيّة بالمعنى النقدي الدقيق .

الرجل الذي كان يعشق الموسيقى :

هذه القصّة أيضا تفتقر الى البناء القصصي الصحيح ، فهي ليست أكثر من خاطرة صاغها جبرا باسلوب شبه قصصي ، ليقول لنا من خلالها ان طبيعة الحياة في المدينة جديرة بالرفض ، وأن الانسان السوي يجب أن ينصرف الى العيش في الجبال ، ففي هذه الخاطرة أو الحكاية ، يخبرنا جبرا ان هناك رجلا كان فقيرا ثم صار ثروة طائلة ، وابتنى لنفسه قصرا في أحد الجبال خارج المدينة ، وزوّده بكافة وسائل الترفيه والراحة ، ثم هجر كوخه في المدينة ونزل في ذلك القصر ليستمع الى الموسيقى التي يحبّها ، ولكنه ذات يوم فتح مكبرات الصوت التي في منزله ذات ليطلق صوت الموسيقى في كل اتجاه ، وانطلق هو يركض في قمم الجبال الى أن سقط في أحد الأودية ومات (١) . وهذه الحكاية لا تختلف من الناحية الفنيّة عن الحكايات التي ترويها الجدّة لحفيدها .

---

(١) عمر ٠٠٠ ، ص ص ٢٦١ - ٢٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الـــــــــــجار :-

أجمل ما في هذه القصّة هو البساطة في التعبير ، والعفوية في رسم الشخصيّات ، والقدرة على التكثيف ، والايحاء الفنّي الجميل ، وفي هذه القصّة تختفي نسبيا الهوّة بين الشخصيات والأحداث .

يروي لنا هذه القصة صبي ، يعيش مع أمّه وأبيه الفقيرين في أحد أحياء المدينة الفقيرة ، فيخبرنا أنه كثيرا ما كان يستيقظ ، ويتضايق من تلك المشاجرات التي تنشب بين نساء ذلك الحي ، لأتفه الأسباب ، وفي ذلك اليوم حين عاد زعيم اولئك النسوة ، أمرته أمّه بأن يأوي الى البيت ، وان لا يستمع الى اولئك النسوة الوضيعات ، فدخل الى البيت ، وأخذت أمه تخيط جوارب والده المهترئة ، وهي تدندن بأغنية حزينة ، وتخفي دموعها عنه . وفي المساء حين يعود والده من العمل ، ويجلسون لتناول طعام العشاء ، يعلو الصراخ والزعيق في الحي ، وحين يذهب الوالد لمعرفة السبب ، تكون المفاجأة الكبيرة اذ يجد أن المرأة الشريرة أم خليل ، دفعت زوجها الى العراك مع أبي مراد ، بعد أن تشاجرت هي مع أم مراد طيلة النهار ، وتكون نتيجة ذلك العراك أن يضرب أبو خليل أبا مراد بنبّوته على رأسه فيقع الأخير ميتا . (١)

الحدث الوحيد في هذه القصة هو جريمة القتل تلك ، وهو حدث ينسجم مع طبيعة الحياة في المدينة ، ومع نفسية أم خليل الشريرة ومع انقياد زوجها لها ، وموت أبي مراد من تلك الضربة هو المفاجأة الحقيقية في القصّة ، فنحن لا نتوقّع أن يموت ذلك الرجل من مجرد ضربة بعصا ، ولكن الصدفة جعلت تلك الضربة مميتة ، وهي صدفة معقولة ومقبولة ، ما دامت العصا الضخمة وقعت على رأس أبي مراد ، وليس في مكان آخر من جسمه . وهكذا تبدو الأحياء في هذه القصّة مترابطة ومعقولة .

---

(١) عمون ٠٠٠ ، ص ص ٢٠٦ - ٢١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من كل ما تقدّم نخلص الى النتائج التالية :-

الأولى : أن جبرا لم يوفّق في ايجاد الشكل الروائي الأمثل ، الذي كان ينشده من خلال كتابة رواياته ، ويدعو الروائيين العرب الى ايجاده ، من خلال كتاباته النقدية .

الثانية : بالرغم من أن قصص جبرا القصيرة ، تشكل مرحلة بداية انتاجه القصصي ، الا أنها تحتوي على عدد من القصص الجيدة البناء الفني مثل قصة " عرس " وقصة " المغنّون في الظلام " وقصة " الحجار " .

الثالثة : عدم موضوعية جبرا في التعامل مع شخصيّات قصصه وروايته ، انعكس انعكاسا سلبيا مباشرا على البناء الفنّي لتلك القصص والروايات ، فتعاطفه مع الشخصيّة الفلسطينية ، وشخصيّة المثقف غير الملتزم بايديولوجية محدّدة ، وتحامله على شخصيّة المثقف الملتزم بايديولوجية محدّدة ، جعله يلصق بتلك الشخصيات أفعالا وأقوالا لا تنسجم مع طبيعة تكوينها الذي منحها اياه ، مما أدى الى وجود هوّة ، في بعض الأحيان ، بين العبكة والشخصيات .

الرابعة : انصراف جبرا الى عرض قضيته كفلسطيني ، انعكس بطريقة شبه مباشرة على بنى رواياته الفنية ، كما هو واضح في روايتيه " صيّادون في شارع ضيّق " و " البحث عن وليد مسعود " .

الخامسة : أن جبرا مولع بتضمين رواياته شتى أساليب السرد الروائي ، وهو في هذا يستلهم أحدث اتجاهات فنّ الرواية في الغرب ، من جهة ، ويستلهم أجواء " ألف ليلة وليلة " من جهة أخرى .

السادسة : رغبة جبرا الملّحة في كتابة الرواية ، تسربت الى بعض قصصه القصيرة ، وأفسدت بناءها الفنّي ، كما يتضح من قصة " نوافذ مغلقة " و " السيول والعنقاء " و " ملتقى الأحلام " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة

****

من خلال ما تقدّم من عرض سريع مجمل لسيرة جبرا ، وآثاره الأدبية في الشعر ، والنقد ، والترجمة ، ومن خلال العرض المفصّل ، والتحليل المستفيض لرواياته وقصصه القصيرة ، يمكن أن نستخلص النتائج التالية :

الأولى : أن جبرا تنقّل بين عدد من البيئات المختلفة ، فمن بيئته الأمّ في فلسطين قبل نكبة ١٩٤٨ ، الى بيئة بريطانيا في سنوات الحرب العالمية الثانية ، الى بيئة العراق بعد نكبة ١٩٤٨ ، وأنّ تنوّع معطيات هذه البيئات ، وخصوصيتها انعكس على ثقافته ، وتجربته الحياتية ، مما أدى الى تنوّع انتاجه الأدبي ، وغزارته . ولذلك ترك لنا بالاضافة الى أعماله القصصيّة ، ثلاثة دواوين من الشعر ، وستة كُتب نقدية ، وحوالي عشرين كتابا ترجمها عن اللغة الانجليزية الى اللغة العربية .

الثانية : أن جبرا من أبرز الداعين الى تثوير الفنّ العربي ، عامة ، وجعله في مستوى الفنون العالمية ، أو مستوى فنون الأمم المتقدّمة على أقل تقدير . وأنه يرى أن هذه الغاية لا تتحقق الا بشرطين : أولهما أن نعود الى التراث العربي القديم ونستصفي الجيد منه ، ونستلهمه فيما نكتب ، أو فيما نرسم أو ننحت ، وثانيهما أن نطّلع على فنون الأمم المتقدمة ، ومنجزاتها العلميّة ، ونستوعب منجزات تجربتها الحضارية ، ومن ثم نبدع في اطار استيعابنا لروح هذا العصر . ولذلك تصدّى جبرا لترجمة كثير من الكتب الأدبية والنقدية ، التي قدّر أنها تثري معرفة الكاتب العربي ، وتجعله على صلة بأحدث اتجاهات آداب الأمم الأخرى .

الثالثة : أن هناك ثلاثة موضوعات رئيسية شغلت جبرا كثيرا ، واستغرقت معظم انتاجه القصصي والشعري على السواء ، وهذه الموضوعات هي :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١. مرحلة التحوّل من القديم الى الجديد التي يعيشها المجتمع العربي في هذا القرن. فقد صوّر لنا جبرا مظاهر الصراع بين قيم الماضي وقيم الحاضر، ومقدار ما يعانيه الانسان العربي اليوم، من تبعات هذا الصراع.

٢. القضية الفلسطينية: في عرض جبرا لقضية الانسان الفلسطيني ركّز على ناحيتين: الأولى منهما هي تصوير ما لحق بالفلسطيني من ظلم وقسوة بتشريده عن أرضه، والثانية منهما هي تجسيد كل معاني التفوّق والبطولة في شخصية ذلك الفلسطيني المشرّد، والتأكيد على أن هذا الفلسطيني لم ينس وطنه رغم المكاسب المادّيّة والمعنوية التي حققها في الأقطار العربية المجاورة، وأنه لا بد أن يعود الى وطنه مهما طال الزمن.

٣. الانسان من حيث هو انسان، بغض النظر عن زمانه أو مكانه: فقد حاول جبرا أن يصوّر لنا أدقّ خلجات النفس الانسانية، بكل ما في هذه النفس من مشاعر وأحاسيس، وبكل ما يتناوبها من صراع وآمال وطموحات. وهذا يتناسب مع فهم جبرا للالتزام على أنه تصوير للفرد في مجابهة قوى الجماعة، وأنه تعبير عن شخصيّة الفنان نفسه. ولعل جبرا كان ينطلق من هذه النقطة بالذات، حينما اعتبر العمل القصصي محاولة لسبر أغوار النفس الانسانية.

الرابعة: لم يوفّق جبرا في طرح رؤية مستقبلية واضحة لمسيرة المجتمع العربي، وكل ما فعله هو أنه نقل لنا مظاهر الصراع بين قيم الماضي وقيم الحاضر في هذا المجتمع، كما هي في الواقع. ولعل هذا يرجع الى عدم التزام جبرا برأيٍ ايديولوجية محدّدة تمكّنه من التنبؤ بالنتيجة التي سيسفر عنها الصراع بين قيم الماضي والحاضر في المستقبل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخامسة : بالرغم من أن جبرا يوفي شعار المعاصرة ومواكبة التقدم الحضاري ، الا أنه لم يستطع أن يعكس ايمانه بهذا الشعار في أعماله القصصية ، بل على العكس من ذلك كانت معظم رواياته وقصصه القصيرة تعكس حنينه الجارف الى العودة الى الحياة البدائية البسيطة . ولعله بسبب هذا الحنين صبّ جام غضبه على المدينة العربية الجديدة ، واتهمها بالعقم وقتل انسانية الانسان ، واتهم رجالها بالعنّة والخواء الروحي ، وألصق بنسائها تهمة الفجور والحقد والجهل .

السادسة : بالرغم من أن جبرا يؤمن بأن مهمة الفنّان هي خلق الشخصيات المقنعة السويّة ، الا أنه لم يوفّق في تجسيد هذا الايمان من خلال الشخصيات التي قدّمها الينا في أعماله القصصيّة ، فهو يجعل شخصيات قصصه تفعل مالا ينسجم مع طبيعة تكوينها الذي منحها اياه ، والسبب في ذلك هو عدم موضوعيته وحياده في التعامل مع تلك الشخصيّات ، فقد رأيناه يتعاطف مع بعض الشخصيات ، كالشخصيّة الفلسطينية مثلا ، ويتحامل على بعض الشخصيات ، كشخصية المثقف الملتزم بايديولوجية محددة .

السابعة : بالرغم من محاولة جبرا المخلصة لاعطاء الشخصية الفلسطينية بعدا نضاليا وطنيا ، الا أنه لم يفلح في ذلك فجميل قرّاص في " صيادون في شارع ضيق " نسي ليلى في القدس ، وتزوّج من سلافة في بغداد واستقر هناك ، رغم ما يدعيه من وطنيه وحنين للقدس . ووديع عساف في " السفينة " يريد أن يعود الى فلسطين ليبني له بيتا في مرتفعات حلحول ، ولكنه لم يقل لنا عن خطته في العودة ، ولا كيف سيتمكن من تحقيق حلمه هذا ، وهو مشغول بالنساء وبمن الثروة في الكويت . ووليد مسعود في " البحث عن وليد مسعود " لم تكن عودته الى فلسطين مقنعة لنا ، فكيف نصدّق أن رجلا له تلك الثروة ، ولديه العدد الكبير من العشيقات يمكن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن يكون عضوا بارزا في صفوف المقاومة الفلسطينية،ويمكن أن يتخلّى عن تلك الحياة الرغيدة ، ويعود بعد أن تجاوز الخمسين من العمر ، لينضّم الى صفوف المقاتلين في فلسطين ؛ وأية وطنية تلك التي تحتّم على وليد هذا أن يترك كل ثروته في بغداد ، وسيارته على الحدود الأردنية العراقيّة ، ليعود الى فلسطين ، صفر اليدين ، كما خرج منها ؟

الثامنة : في بعض قصص جبرا القصيرة ، **وروايات**ه نجد هوّة كبيرة بين الحبكة وطبيعة الشخصيات ، مما يؤدي الى وجود خلل في بنية العمل القصصي . ولعل هذا يرجع الى عدم موضوعية جبرا في التعامل مع شخصيّات أعماله القصصية ، كما قلنا سابقا .

التاسعة : بالرغم من محاولات جبرا المخلصة لايجاد الشكل الروائي الأمثل ، وتحقيق المستوى الأسطوري في مضمون الرواية العربية وشكلها ، من خلال ما كتبه من روايات ، الا أنه لم يفلح في ذلك ، وظلّت هنالك فجوة بين ما يطمح اليه وما أنجز بالفعل .

العاشرة : وفّق جبرا في بناء بعض قصصه القصيرة بناء جيدا ، الا أن رغبته في كتابة الرواية تسربت الى قصصه تلك ، وانعكست سلبيا على بنى معظمها .

الحادية عشرة : أن جبرا متأثر بكثير من كتاب الغرب الكبار ، أمثال : وليم فوكنر ، و ت . س . اليوت ، والبيرتو مورافيا ، وغيرهم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصـــــادر والمراجـــــع

****

"" أ ""

المصـــــــــادر

==========

أ. المصادر الرئيســـــة :-

٠١ مقابلات عديدة مسجّلة مع جبرا ابراهيم جبرا .

٠٢ جبرا ابراهيم جبرا :صراخ في ليل طويل- رواية - دار الآداب، بيـــروت ط ٢، ١٩٧٩ .

٠٣ جبرا ابراهيم جبرا : صيّادون في شارع ضيّق- رواية - ترجمة محمد عصفـــور، دار الآداب، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠ .

٠٤ جبرا ابراهيم جبرا : السفينة - رواية - دار الآداب، بيروت، ط٢، ١٩٧٩ .

٠٥ جبرا ابراهيم جبرا : البحث عن وليد مسعود - رواية - دار الآداب، بيروت، ١٩٧٨ .

٠٦ جبرا ابراهيم جبرا : عرق وقصص أخرى - مجموعة قصص قصيرة - اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٧٤ .

ب. المصـــــادر الثانويـــــة :

٠١ جبرا ابراهيم جبرا : تموز في المدينة - ديوان شعر - دار مجلة شعـــــر، بيروت، ١٩٥٩ .

٠٢ جبرا ابراهيم جبرا : الحرية والطوفان - دراسات نقدية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٧٦ .

٠٣ جبرا ابراهيم جبرا : المدار المغلق - ديوان شعر، المؤسسة الوطنيـــة للطباعة، بيروت ١٩٦٤ .

٠٤ جبرا ابراهيم جبرا : الرحلة الثامنة - دراسات نقدية- المؤسسة العربيـــة للدراسات والنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥. جبرا ابراهيم جبرا : الفن العراقي المعاصر - دراسات نقدية - وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، بدون تاريخ .

٦. جبرا ابراهيم جبرا : جواد سليم ونصب الحرية - دراسة في آثاره وآرائه - وزارة الاعلام ، بغداد ، ١٩٧٤ .

٧. جبرا ابراهيم جبرا : النار والجوهر - دراسات نقدية - دار القدس ، بيروت ، ١٩٧٥ .

٨. جبرا ابراهيم جبرا : لوعة الشمس - ديوان شعر - مؤسسة رمزي ، بغداد ، ١٩٧٦

٩. جبرا ابراهيم جبرا : ينابيع الرؤيا - دراسات نقدية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٦ .

"ب"

المراجع

أ. الكتب العربية :-

١. د . ابراهيم السعافين : تطوّر الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام ، وزارة الثقافة والاعلام العراقية ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠ .

٢. أحمد عبد المعطي حجازي : ديوانه ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٣ .

٣. د . أحمد عطية أبو مطر : الرواية في الأدب الفلسطيني ١٩٥٠ - ١٩٧٥ ، وزارة الثقافة والاعلام العراقية ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠ .

٤. اليان خوري : تجربة البحث عن أفق مقدمة لدراسة الرواية العربية بعد الهزيمة ، منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث ، بيروت ، ١٩٧٤ .

٥. جون سالم : الصفامرة الروائية ، دراسات في الرواية العربية ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦٠ د . شكري عزيز ماضي : انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربيـــــة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٨ .

٧٠ شكري محمد عيّاد : البطل في الأدب والأساطير ، دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

٨٠ د . صالح أبو أصبع : فلسطين في الرواية العربية ، منظمة التحريـــــر الفلسطينية ـ مركز الأبحاث بيروت ، ١٩٧٥ .

٩٠ عبد الجبار عبّاس : في النقد القصصي ، وزارة الثقافة والاعلام العراقيـــة ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠ .

١٠ د . عبد الواحد لؤلؤة : البحث عن معنى ، دراسة نقدية ، وزارة الثقافـــة والاعلام العراقية ، الدار العربية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٣ .

١١ عرفان شعيد أبو حمد الهوّاري : أعلام من أرض السلام ، مطبعة دار الشـــرق ، شفا عمرو ، ١٩٧٦ .

١٢ غالب هلسا : قراءات نقدية في أعمال : يوسف الصايغ ، يوسف ادريـــس ، جبرا ابراهيم جبرا ، حنا مينه ، دار ابن رشيد للطباعة والنشر ، بيـــروت ، بدون تاريـــخ .

١٣ فاروق وادي : ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية ، غسان كنفاني ، اميـــل حبيبي ، جبرا ابراهيم جبرا ، منظمة التحرير الفلسطينية ، والمؤسســـــة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨١ .

١٤ محمد المبارك : دراسات نقدية في النظرية والتطبيق ، وزارة الاعلام العراقية دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٦ .

١٥ د . محمود السمرة : أدباء معاصرون من العرب ، دار الثقافة ، بيروت ، بدون تاريخ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٦. د . محمود السمرة ، في النقد الأدبي ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، ١٩٧٤ .

١٧. نجيب محفوظ : ميرامار - رواية - مكتبة مصر ، دار مصر للطباعة ، القاهرة ، بدون تاريخ .

١٨. د . هاشم ياغي : القصّة القصيرة في فلسطين والاردن ١٩٥٠ - ١٩٦٥ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، بيروت ١٩٦٦ .

١٩. يعقوب العودات : من أعلام الفكر والأدب في فلسطين ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، عمان ، ١٩٧٦ .

٢٠. يوسف القعيد : الحرب في برّ مصر - رواية - دار ابن رشد للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٨ .

ب : الكتب المترجمة :-

١. البيريس ، أ . م :
تاريخ الرواية الحديثة ، ترجمة جون سالم ، منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٦٧ .

٢. اليوت ، الكساندر :
آفاق الفنّ ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧١ .

٣. أوكونور ، وليم فان :
وليم فوكنر ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، المكتبة الأهلية ومؤسسة فرانكلين للنشر ، بيروت ، ١٩٦١ .

٤. بيرس ، جيرمي : البير كامو ،
ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، بيروت ، ١٩٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥٠ بنتلي ، اريك : الحياة في الدراما ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، المكتبة العربية ومؤسسة فرانكلين ، صيدا ـ بيروت ، ١٩٦٨ .

٦٠ ريكاردو ، جان : قضايا الرواية الحديثة ، ترجمة صياح الجهيم ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ، ١٩٧٧ .

٧٠ شكسبير ، وليم : مأساة هملت ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، بيروت ، ١٩٦٠ .

٨٠ شكسبير ، وليم : مأساة الملك لير ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٩٠ شكسبير ، وليم : مأساة كريولانس ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، وزارة الاعلام ، وزارة الاعلام الكويتية ، الكويت ، ١٩٧٤ .

١٠ شكسبير ، وليم : مأساة عطيل ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٨ .

١١٠ شكسبير ، وليم :
العاصفة ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، وزارة الاعلام الكويتية ، الكويت ، ١٩٧٦ .

١٢٠ شكسبير ، وليم :
مأساة مكبث ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ، ١٩٧٦ .

١٣٠ طومبسن ، لورنس :
روبرت فروست ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، المكتبة الأهلية ، ومؤسسة فرانكلين ، بيروت ، ١٩٦١ .

١٤٠ فرانكفورت . هـ ، و فرانكفورت . هـ . أ ، .
ولسن ، جون . أ . و ، جاكوبسن ، توركيلد : ما قبل الفلسفة ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، مكتبة الحياة ، بغداد ، ومؤسسة فرانكلين ، بيروت ، ١٩٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٥. فريزر، جيمس :
أدونيس، دراسة في الأساطير والأديان الشرقية القديمة، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٧٦.

١٦. فورستر، أ.م :
أركان القصّة، ترجمة كمال عياد جاد، دار الكرنك للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٦٠.

١٧. فورستر، نورمن و فوت، روبرت (باشرافهما)
ثلاثة قرون من الادب، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا وآخرين، دار مكتبة الحياة، ومؤسسة فرانكلين، بغداد، بدون تاريخ.

١٨. فوكنر، وليم :
الصخب والعنف، رواية - ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٣.

١٩. كاودن، روب : (باشرافه)
الأديب وصناعته، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، مكتبة منيمنة ومؤسسة فرانكلين، بيروت، ١٩٦٢.

٢٠. كوت، يان :
شكسبير معاصرنا، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠.

٢١. ميور، أدوين :
بناء الرواية، ترجمة ابراهيم الصيرفي.
المؤسسة العربية العامة للتأليف والانباء والنشر، القاهرة، بدون تاريخ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢٢. ولسون ، أدمون :
قلعة آكسل ، دراسة في الادب الابداعي الذي ظهر بين عامي ١٨٧٠ — ١٩٣٠ ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩ .

٢٣. وليك رينيه و وارين أوستن :
نظرية الأدب ، ترجمة محيي الدين صبحي ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، مطبعة خالد الطرابيشي ، دمشق ، ١٩٧٢ .

٢٤. عدد من الكتّاب الغربيين :
الاسطورة والرمز ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ،
وزارة الاعلام العراقية ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٣ .

٢٥. عدد من القاصّين الغربيين :
قصص من الأدب الانجليزي المعاصر ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ،
بغداد ، ١٩٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ج . المجـــــــــلات :-

١ . الآداب ، بيروت ، عدد كانون أول / ١٩٥٥ ، وعدد حزيران / ١٩٧٤ .

٢ . الأديـــب ، بيروت ، عدد ديسمبر / ١٩٥٥ .

٣ . الأمالـــي ، بيروت ، العددان ٤٤ ، ٤٥ / ١٩٣٦ .

٤ . الحوادث ، بيروت ، عدد آذار / ١٩٨٠ .

٥ . شؤون فلسطينية ، بيروت ، عدد مارس / ١٩٧٥ .

٦ . عالم الفكر ، الكويت ، عدد مارس / ١٩٧٢ .

٧ . العربي ، الكويت ، عدد فبراير / ١٩٨٠ .

٨ . قضايا عربية ، بيروت ، عدد اكتوبر / ١٩٧٧ .

٩ . المعرفة ، دمشق ، عدد آذار / ١٩٧٨ .

١٠ . الهلال ، القاهرة ، عدد يناير / ١٩٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦٧٥٧٤٥

Jabra Ibrāhīm Jabra
A Study of his Fictional Art

by

'Alī Aḥmad al-Fazzā' al-Awāmleh

Supervisor

Professor Mahmūd D. Samra

Date of Defence

" Submitted in partial fulfilment of the requirements for the degree of Master of Arts / in Arabic Language and Literature ,
Faculty of Arts .
University of Jordan .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

The research presents , analyses and criticises the fictional works of Jabra Ibrāhīm Jabra . These works are four novels and a collection of short stories . His novels are :

- Surākh fi Layl Tawil , (A Scream in a Long Night) .
- Sayyādun fi Sharī' Dayyiq , (Hunters in a Narrow Street) .
- Al-Safina , (The Ship) and al-Bahth 'An Walid Mas'ūd , (The Search for Walid Mas'ud) . The collection of the short stories is 'Araq wa Qisas Ukhra , (Araq and other stories).

This research consists of an introduction , four major chapters, conclusion and a bibliography on which the researcher based his study .

In the introduction , the researcher puts forward his reasons for choosing this subject , the approach he adopted in dealing with his study and the main difficulties encountered him during the process of his research .

Each of the four main chapters specialises in one part of the research .

The first chapter deals with Jabra's autobiography and his literary works . Chapter two examines the contents of and visions in Jabra's fictional works . Chapter three deals with the characters in these works . Chapter four is a study of the artistic structure in each novel and short story . The conclusion summed up the main results of the research of which the following are the most important :

- Jabra experienced life in three countries : his homeland , Palestine before the 1948 war , Britain before the Second World War and finally Iraq after 1948 . The different and various aspects of these environments were reflected , in one way ore another , in Jabra's cultural outlook , consequently leading to a rich and diversified output ; he is a poet , critic , novelist,

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

painter , musician and a translator of many works from English into Arabic . Jabra is one of the major proponents of revitalizing Arab literature and effecting changes that reflect the spirit of the age. This , Jabra maintains , could be achieved through an understanding and appreciation of Arab literary heritage on the one hand , and through an understanding of modern world literature and knowledge on the other hand .

- Three major topics dominated most of Jabra's work , fictional and poetic . These are :
  (a)The portrayal of the Arab suffering in the phase of transformation from old to new .
  (b)The presentation of Jabra's cause as an uprooted Palestinian , whose land was extorted by force of arms .
  (c)The expression of human substance , entailing feelings , hopes and aspirations , with disregard of race , time and place .

- In spite of Jabra's sincere attempts to attain the ideal novelist form , through his novels and critical essays , a gap existed between what he called for and what he accomplished .

- Despite Jabra's belief that the task of the novelist is to create sound and convincing characters , his lack of objectivity in dealing with his fictional characters failed him , for he was biased to and against the different characters in his fictional works , attributing to these characters sayings and deeds in harmony with their nature .

- This lack of objectivity created a gap between the characters and the plot , hence leading to a deficiency in the artistic structure

- Jabra did not present a future vision of the Arab nation's

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit